مسمار في الحائط

قصص من الأدب الروسي الكلاسيكي

أنطون تشيخوف وآخرون

ترجمة

د. باسم الزعبي

دار نشر

أنباء روسيا

Russian News

www.russiannewsar.com

الناشر

أنباء روسيا
Russia News

www.russiannewsar.com

رئيس مجلس الإدارة ورئيس التحرير

د. حسين الشافعى

secertary_ert@yahoo.com

المراسلات

القاهرة - مدينة العبور

44971 مكتب بريد جمعية أحمد
عرابي - ص. ب. 72

Tel. & Fax: + (202) 24698170 & 071
+ (2) 01006774027

الإخراج الفني/ أحمد عثمان

خط حر / أيمن العيسوي

الطباعة

دار الطباعة المتميزة

مدينة العبور - القاهرة

Tel. & Fax: + (202) 4478 96 44 & 46

الطبعة الأولى 2017

دار نشر أنباء روسيا

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للناشر.
لا يحق إعادة طبع أو نسخ محتويات هذا الكتاب
إلكترونياً أو ضوئياً دونما إذن كتابي من الناشر.

رقم الإيداع

3978 / 2017

بالتعاون مع

المؤسسة المصرية الروسية
للثقافة والعلوم

Египетско-российский
Фонд культуры и наук

www.a-rfcs.org

مسمار في الحائط

مسمار في الحائط (قصص من الأدب الروسي الكلاسيكي) .
أنطون تشيخوف وآخرون .
ترجمة: د.باسم الزعبي (مترجم وقاص أردني) .
الطبعة الأولى ٢٠١٧ .

На гвозде
Избранные Классические Русские Рассказы
Антон Чехов и другие
Перевод: Басим Аль–Зуби

دار نشر

أنباء روسيا
Russia News
russiannewsar.com

www.russiannewsar.com

وفاءً لبعض الخبز والملح،

وفاءً لروسيا الأرض والإنسان

تقديم

مـا يُميز هذه المجموعة أن أغلب قصصها ينتمي إلى الأدب السـاخر، بأقلام كبـار فنانيـه الـروس، المعروفـين علـى المسـتوى العالمـي ايضاً، مثـل أنطون تشـيخوف، وألكسـندر كـوبريـن، وسـالتيكـوف- شـيدرين، وأركـادي أفيرتشـينكـو، وناد يجدا لوخفيتسكـايا (تيفي).

إن الفن السـاخر سلاح قوي في نقد الواقع، لسـهولة تقبله من قبل المتلقي، فهو يـكشـف الحُجُبَ عن الواقع الـذي نراه عاديـاً، مألوفاً، مقبولاً، فيكشـف عيوبـه، ويزيل الهالات التي تحجب الرؤية عن الشـخصيات والفئات والأفكار الـتي تبـدو عظيمة، غـير قابلة للنقـد، مقدّسـة، ولقدرته على حمـل المعاني المفتوحة علـى التأويلات المختلفـة، وفيه أيضاً تطهير للنفـس. (والتطهير هنا مختلـف عـن التنفيـس، الـذي غالباً ما يرتبـط بالفـن الهزلي، الـذي يهدف إلى الإضحاك لمجرد الإضحاك، وليس السـاخر، علما أن السـخرية قد تثير الابتسام أو الضحـك)، لكـن يبقـى الجانب التثويري في الفن السـاخر هو الأسـاس، رغم أنك لا يمكـن أن تلغي تماماً الجانب التنفيسـي منه.

ومـن هنا فإن الأدب السـاخر يعتبر وسـيلة مهمـة في نقد الواقـع، وتثوير العقل.

كمـا تضم هذه المختـارات إضافة جديدة، وهـي نصوص سـاخرة لأنطون تشـيخوف دأب علـى كتابتهـا في بداية حياته الأدبيـة، وهـي نصوص ملفتة من حيث الأسـلوب، مثل: إعـلان طبيب الأسـنان غفالتير، وبرقيات ورسـائل، كما يوجد فيها المسـرحية القصـيرة، مثل أُنجز العمل، التي هي أقرب للقصة القصـيرة الساخرة

وتضـم هذه المجموعة قصصاً متفرقة، لكتـاب كبار، لكنها لا تنتمي للأدب الساخر، أردت أن يتعرف من خلالها القارئ على إسهامات الروائيين الروس الكبـار أمثال دوستويفسـكي، وأندريـه بلاتونوف، وفلاديمـر نابوكوف، وسولجنيتسـين، وليـف كاسـيل، وألكسـندر تشـيخوف شـقيق أنطـون تشـيخوف الأكبر.

آمل أن تلقى هذه المجموعة قبول ورضا القارئ العربي.

باسم إبراهيم الزعبي

فيودور دوستويفسكي

صبي عند شجرة الميلاد

هذه القصة للكاتب الروسي الشهير، على بساطتها، إلا أنها تكشف أمرين مهمين ؛ الأول، هو النزعة الإيمانية والإنسانية عند هذا الكاتب العالمي، الذي رغم مرور أكثر من مائة عام على وفاته، إلا أنه يبقى معروفا أكثر من أي كاتب معاصر. والأمر الآخر، هو أن هذه القصة كتبت مع مقدمة وتعليق ختامي يعتبران من جهة جزءا من القصة، ومن جهة يكشفان عملية الإبداع عند الكاتب، وهو ما يفيد كتاب القصة والنقاد، الذين يهتمون بهذا الجانب.

فيودور دوستويفسكي

١٨٨١ـ ١٨٢١

واحد من أكبر الكتّاب الروس ومن أهم الكتاب العالميين. كان لأعماله أثر عميق ودائم على أدب القرن العشرين. ولد بموسكو في أسرة طبيب عسكري ينحدر من فئة رجال الدين، منح لقاء استقامته في الخدمة لقب نبيل، وكانت أمه تنتمي إلى فئة التجار.

شخصياته دائماً في أقصى حالات اليأس وعلى حافة الهاوية، ورواياته تحوي فهماً عميقاً للنفس البشرية، كما تقدم تحليلاً ثاقباً للحالة السياسية والاجتماعية والروحية لروسيا في ذلك الوقت. قال فيه عالم النفس الشهير سيغموند فرويد إنه تعلم علم النفس من روايات دوستويفسكي. يُعدّ الكثير من أعماله المعروفة مصدر إلهام للفكر والأدب المعاصر.

ترجمت أعماله إلى العديد من اللغات، وأصبحت أفكارها وشخصياتها جزءاً من تراث البشرية الروحي.

كان أول عمل أدبي له رواية «المساكين» عام ١٨٤٦، وكان آخر أعماله وأشهرها رواية «الإخوة كارامازوف» ، ومن أشهر أعماله: «الجريمة والعقاب»، «مذلون مهانون»، «الشياطين»، «الأبله»، «المراهق» ، «ذكريات من منزل الموتى» ، «الليالي البيضاء»، «المقامر» ، «الإنسان الصرصار، أو رسائل من أعماق الأرض»، «مذكرات كاتب».

صبي عند شجرة المسيح

٢ـ الصبي الشحّاذ

الأطفال قوم غريبو الأطوار، يتخيلون أشياء غريبة وهم نيام. التقيت قبيل عيد الفصح، في ركن معروف، أمام شجرة عيد الميلاد، صبياً، لا يتجاوز عمره سبعة أعوام، ملتصقاً بها. كان يرتدي، في الجو الصقيعي المحيط، لباساً صيفياً، تقريباً، ولُفّت رقبته بخرقة بالية – وهذا يعني، أن شخصاً ما جهّزه، وأخرجه. كان يمشي بـ»يد«، وهذا مصطلح تقني، يعني طلب الصدقات، ابتكره هؤلاء الصبية. مثل هؤلاء يصادَفون في الطرقات، رافعين عقيرتهم بعبارات حفظوها عن ظهر قلب، لكن هذا الصبي لم يرفع عقيرته مثلهم، كان يتكلم ببراءة، وبشكل غير عادي، ناظرا في عينيّ بثقة، أي أنه كان جديدا على هذه المهنة. وقد أخبرني رداً على استفساراتي، أن لديه أختا مريضة، بدون عمل، تلزم المنزل ؛ قد يكون ذلك حقيقة، لكني علمت فيما بعد، أنهم يُخرجون هؤلاء الصبية، وعددهم لا يحصى بـ»أيادي«، حتى في أصعب صقيع، على ما يبدو، وإذا ما عادوا من دون حصيلة، فينتظرهم الضرب. يعود الصبي، جامعا بعض الكوبيكات، إلى قبو ما، يداه محمرتين ومتجمدتين، هناك تسكر عصابة من العاطلين عن العمل، أولئك الذين»يضربون عن العمل في المعمل يوم السبت قبيل الأحد، ويعودون مجددا إلى العمل مساء الأربعاء«. في الأقبية يسكر هؤلاء مع زوجات جائعات، مهانات من قبلهم، وفي نفس المكان يسمع بكاء أطفالهم الرضع. عالمهم هو عالم الفودكا والقاذورات، والدعارة، أما أهم شيء عندهم فهو الفودكا. ما أن يعود الصبي حتى يرسلونه من توه إلى الخمارة ليحضر مزيدا من الخمرة بما جمعه من كوبيكات. أحيانا يصبون في حلقه جرعة فودكا من أجله أو من

أجل التسلية، ويضحكون عليه عندما يسقط على الأرض مقطوع الأنفاس بلا وعي تقريبا.

... سكبوا الفودكا الكريهة،

في فمي دون إشفاق...

وعندما يشب صبي ما، يسرعون إلى زجه بطريقة ما في أحد المعامل، ويبقى ملزما على إحضار حصيلته اليومية إلى هؤلاء العاطلين، الذين بدورهم يشربون بكل ذلك. لكن حتى أثناء العمل في المعامل، فإن هؤلاء الأطفال يتحولون إلى مجرمين حقيقيين. إنهم يهيمون على وجوههم، ويعرفون الأماكن التي يمكن المبيت فيها في الأقبية الكثيرة دون ملاحظة أحد. أحدهم نام ليالي متوالية في سلة عند أحد حراس البنايات دون أن يلحظه الحارس بأي شكل من الأشكال. وبشكل تلقائي يتحول هؤلاء إلى لصوص صغار. إن السرقة تتحول إلى هوس حتى عند الأطفال في عمر الثانية. وأحيانا دون إدراك للبعد الجرمي للفعل ذاته. ويتحمل هؤلاء الأطفال كل شيء: الجوع، والبرد، والضرب، من أجل شيء وحيد ألا وهو- الحرية. إنهم يهربون من عند العاطلين ليسيحوا هذه المرة من أجل أنفسهم. إن هذا الكائن البريء لا يفقه شيئا أحيانا: أين يعيش؟ ما هي جنسيته؟ هل يوجد إله؟ هل يوجد قيصر؟، لدرجة، أنه تُنقل عنهم أشياء يصعب سماعها، لكنها في الوقت ذاته حقيقة.

٢ ـ صبي عند شجرة المسيح

لكني روائي، وأظن أني ألّفت »قصة« بنفسي. لماذا أقول «أظن»؟ تراني أدرك أني ألّفت، لكن يخيّل إليّ، أن ذلك حدث في مكان ما، وفي زمان ما، وبالتحديد، إن ذلك حدث قبيل عيد الفصح، في مدينة ضخمة، وفي ظروف الصقيع الرهيب.

يخيـل إلي، أنه عاش في أحد الأقبية صبي صغير جدا، سـنوات عمره سـت أو دون ذلـك. اسـتيقظ هذا الصبي صبيحة أحـد الأيام في القبـو الرطب البارد، كـان مرتديـا جلبابـا كيفما اتفـق، جلس مرتجفا علـى صنـدوق في ركـن القبو وراح نفَسُه يخرج على شكل بخار أبيض، ويبدو أنه كـانت لديـه رغبة كبيرة في تناول الطعام. قام منذ الصباح بالاقتراب عدة مرات من المرقد البائس الـذي كـانـت ترقد عليـه أمه المريضـة على «طرحة» رقيقـة تشـبه شـريحة الزلابية، ملقية رأسـها على صـرة كـانت قد جعلتها وسادة. كيف جاءت إلى هنـا؟ من المؤكد أنها قدمت مـع ابنها من بلدة غريبة، واعتلّت فجأة. سـاكنة الزوايا أُخذت إلى الشـرطة قبل يومين. تفرق السـكان، فالوقت عيد، والصبي المشـرد، إذ بقي وحيدا، رقـد أياما كـاملة ثـملا إلى درجـة مميتة، غير عابئ بمقـدم العيد. وفي ركن آخر كـانت عجوز في الثمانين من العمر، تئن من آلام الروماتيزم. عملت في زقاق ما، في مكـان ما حاضنة، أما الآن فهي تموت وحيدة تئـن، وتتبرّم، وتدمدم على الصـبي، الذي صار يخاف الاقـتراب من ركنها. لقد حصل على ما يشـربه في مداخـل المنازل، لكنه لم يجد حتى كسـرة خبز جافة في أي مكـان. وعاد لإيقاظ أمه للمرة العاشـرة. بدا الأمر مرعبا بالنسبة لـه في تلـك الظلمة، فالمسـاء بدأ منذ زمن طويـل، ولم يوقد أحد نارا. اسـتغرب عندما تحسـس وجه أمه، ووجدها لا تتحرك، وجسدها بارد، مثل الجدار، فكـر في نفسـه: «إن البرد شـديد جدا هنا»، توقف قليلا، ناسـيا يده من دون وعي علـى كتف أمه الميتة، ثم راح ينفخ في قبضة يده في محاولة لتدفئة أصابعه، وفجـأة، فتش عن قبعته علـى المرقد البائس، وتلمّس طريقـه بهدوء خارجا من القبو. كـان بوده الخروج أبكـر من ذلك، لولا خوفه من الكلب الكبير، الذي ظـل ينبح طول النهـار في الفناء المجـاور. لكـن الكلـب الآن لم يعد موجودا، لذلك قرر فجأة الخروج إلى الشارع.

«إلهـي أي مدينـة هذي!» إنه لم ير في حياته مثل هذا. هناك، من حيث قَدِم، كـان الظـلام الحالك يخيـم في الليالي، الشـارع ينيره مصباح وحيـد، المنازل الخشـبية الواطئة مغلقة بدرف نوافذ، عندما يُظلِم الشـارع قليلا لا يبقـى أحد

فيـه، الجميع يغلـق منزله دونه، وتبقـى ثلل كاملة مـن الكلاب، مئات، بل ألـوف منهـا تعوي وتنبح طول الليـل. لكـن بالمقابل كان هنـاك دفء أكثر، وكانوا يقدّمون له الطعام، أما هنا –«يا إلهي، لو يتسـنى لي الأكل! أي أزيز وهديـر هنا، أي أنوار، أي ناس، أي خيول وعربـات، أي صقيع.. صقيع! « البخار المتجمد ينبعث مـن مناخير الخيول اللاهثة، الحارة الأنفـاس، الصارفة حوافرها المحـذوة بسـبب اصطدامهـا بالحجـارة عـبر الجليد الرخـو. إلهي، كـم يرغب بالطعام، لقمة واحدة! فجأة، أصبحت أنامله تؤلمه. مر الحارس به، استدار، كي لا يلاحظه الصبي.

هذا هو الشـارع من جديد، «أوي كم هو واسع! إنهم سـيدوسونني هنا، إنهم يصـرخون، ويـركضون، ويمشـون، لكـن لا بصيص نور. واجهة زجاجية، يا لها من واجهة، تظهر خلفها غرفة، فيها شـجرة تصل حتى السـقف. إنها شـجرة عيد الميلاد، يا للأنـوار عليها، والأوراق، والتفاح الذهبي، وكم من دمى وخيول صغـيرة حولهـا. وأطفـال حسـني الهنـدام يتراكضـون في أرجائهـا نظيفين، ضاحكين ولاهين، يروحون و يجيئون، يشـربون شـيئا ما. ها هي طفلة راحت ترقص مع صبي. أي طفلة حسـناء! وهذه موسـيقى، تسـمع من خلال الزجاج. الطفل يرى، يُدهش، يبتسم، لكـن أنامله تؤلمه، واكتست يداه وقدماه حمرة شديدة، ولم تعد أصابعه قادرة على الانثناء، وأصبح تحريكها مؤلما. وتذكر فجـأة أن أصابعه تؤلمه كثيرا، بكـى قليلا ثـم انطلق مجددا، وها هو يرى من خـلال واجهة أخـرى غرفة، تحوي أيضا شـجرة، وعلى الموائد فطائر بأشـكال شتى: لوزية، حمراء، صفراء، و يجلس هناك أربعة رجال أغنياء، وكلما حضـر شـخص جديـد، كـانت تُقدَّم لـه الفطائر، البـاب يُفتـح كل دقيقة ويدخل أسـياد كثر من الخارج. اقترب الصبي متلصصا، وفجأة فتح الباب ودخل. أوي، كـم صرخـوا به ولوحوا بأياديهم! سـيدة وحيدة اقتربت منه ودسـت في يده كوبيـكـا، وفتحت له الباب إلى الشـارع. كم ارتعب! أمـا الكـوبيك، فقط سـقط، وتدحرج على الـدرج محدثا رنينا. لم يسـتطع أن يثني أصابعه المحمرة ويلتقطه. هرب، وراح يمشـي مسرعا لا يلوي على شـيء. مجددا تولدت لديه

رغبة في البكاء، لكنه خائف، يركض، ويركض، والريح تلفح يديه. يأخذه الحنين، لأن شعورا بالوحشة سيطر عليه فجأة، ارتعب. وفجأة، يا إلهي! ما هذا؟ مرة أخرى حشد من الناس ينظرون بدهشة: خلف زجاج إحدى النوافذ كانت تقف دمى ثلاث، واحدة صغيرة ألبست ثيابا حمراء وخضراء، تبدو كأنها حية تماما، وأخرى لعجوز ما جالس، ويبدو أنه يعزف على آلة كمان كبيرة، وآخران يعزفان على كمانين صغيرين، وجميعهم يهزون رؤوسهم بأدب، ناظرين إلى بعضهم بعضا، شفاههم تتحرك، يتكلمون، إنهم حقيقة يتكلمون،ـ لكن كلامهم غير مسموع عبر الزجاج. اعتقد الصبي للوهلة الأولى أنهم أحياء، وعندما عرف أنهم دمى، ابتسم فجأة. إنه لم ير مثل هذه الدمى من قبل، ولم يعرف أنه يوجد في الواقع مثلها! إنه يرغب في البكاء، لكن، أن يبكي بسبب الدمى شيء مضحك. فجأة أحس بأحدهم يمسك بياقة جلبابه من الخلف: كان يقف خلفه صبي كبير شرير. ضربه الصبي الشرير فجأة على رأسه بشدة، ونزع عنه قبعته، أما هو فقد تمكن من عرقلته من أسفل بقدمه. تدحرج الآخر على الأرض. عندها راح هو يصرخ، مصعوقا، ثم قفز، وانطلق هاربا. وفجأة دخل لا يعرف إلى أين. وجد نفسه على عتبة فناء غريب، فحط خلف كوم حطب هناك: «لن يبحثوا عني هنا، كما لن يراني أحد في الظلمة»

تلوى ألما، مقطوع الأنفاس من شدة خوفه، وفجأة تماما، تحول وضعه، فأصبح أحسن بكثير: لم تعد يداه وقدماه تؤلمه، صار جسده دافئا، كما لو كان نائما فوق المدفأة، ها هو جسمه يرتجف كله: آه، لو يتمكن من النوم! كم هو النوم حسن هنا! فكر الصبي، وابتسم بمكر متذكراً الدمى: «سأرتاح هنا، ثم أذهب لمشاهدتها مجددا، إنها حية تماما!..»

وفجأة هئ له أنه سمع أمه تشدو فوق رأسه بأغنية. «أمي، إنني نائم، أوي، كم هو النوم جميل هنا!» فجأة همس صوتٌ هادئٌ فوق رأسه:

لنذهب إلى شجرة الميلاد، أيها الصبي.

ظن أن ذلك الصوت كان صوت أمه، لكن لا، ليست هي؛ من دعاه يا ترى؟ إنه لا يرى، لكن شخصا ما انحنى فوقه واحتضنه في الظلمة، أما هو فقد مد له يده و.. وفجأة.. أوه، يا للنور! يا للشجرة! لم تكن شجرة عيد ميلاد، إنه لم ير مثلها من قبل. أين هو الآن: كل شيء له بريق، كل شيء يلمع، وامتلأ المكان بالدمى – لكن، لا، إنها ليست دمى، بل فتيات وفتيان، غير إنهم كانوا مشرقين، يدورون حوله، يحلقون فوقه، ويقبلونه، ويأخذونه، و يحملونه معهم، نعم، حتى هو نفسه يحلق، ويرى أمه تنظر إليه مبتسمة بسرور، ينادي عليها:

ماما! ماما! أوه، يا لروعة هذا المكان! ماما.

ومن جديد يتبادل القبل مع الأطفال. ورغبة ملحة لديه في أن يحدثهم عن الدمى التي خلف الزجاج. سأل أحدَهم وهو يبتسم:

من أنتم أيها الصبية؟ من أنتن أيتها الصبايا؟

أجابوه :

هذه «شجرة المسيح». لدى المسيح دائما شجرة في مثل هذا اليوم لأولئك الأطفال الصغار، الذين لا يملكون شجرتهم الخاصة.. وقد أدرك أن هؤلاء الفتية والفتيات جميعهم كانوا مثله، أطفالاً، لكن بعضهم تجمد في(سلته) التي يُرمى بها على الدرج أمام أبواب منازل الموظفين من سكان بطرسبورغ، وآخرون اختنقوا عند المدافئ التابعة لملجأ التربية أثناء إطعامهم، غيرهم توفوا بسبب جفاف صدور أمهاتهم(أثناء مجاعة سمارا)، وبعضهم اختنق في عربات الدرجة الثالثة من شدة النتانة فيها، وجميعهم الآن هنا، جميعهم الآن مثل الملائكة، جميعهم حول المسيح، وهو وسطهم، يمسح بيده على رؤوسهم، يباركهم ويبارك أمهاتهم الخاطئات... أما أمهات هؤلاء الأطفال، فكن يقفن بدورهن جانبا، يبكين، كل واحدة تتعرف على ابنها أو ابنتها، أما هم فيقتربون محلقين مقبلين ماسحين دموعهن بأكفهم الصغيرة طالبين منهن ألا يبكين، لأنهم مرتاحون هنا...

صباحـا وجد الحراس جثة صغيرة، تعود للطفـل الهارب، الذي تجمد خلف كومة الحطب؛ بحثوا عن أمه أيضا.. كانت هي الأخرى قد ماتت قبله، وانتقل الاثنان معا إلى الرب في السماء.

* * *

لماذا ألّفت هذه القصة، التي لا تنضوي في سجل عقلي عادي، وأكثر من ذلك في سجلي أنا؟ إضافة إلى أنني وعدت بتقديم قصص تدور في أغلبها حول أحداث واقعية! هنا بالتحديد مربط الفرس، فأنا أظن، ويخيل إلي، أن كل هذا يمكن أن يحدث في الواقع.

لا أعرف ماذا أقول لكم، هل يمكن أن يحدث مثل هذا أم لا؟ أقصد ما حدث في القبو وخلف كومة الحطب، وما دار حول الشجرة عند المسيح. لهذا أنا روائي كي أبدع.

١٨٧٦

أنطون تشيخوف

(١٨٦٠–١٩٠٤)

- كاتب مسرحي.
- جزمة.
- رغم أن اللقاء تحقق، إلا أن.
- شخصية مشرقة.
- شمبانيا.
- وجع أسنان.
- مسمار في الحائط.
- كائن ضعيف.
- الوسام.
- إعلان طبيب الأسنان غفالتير.
- مسائل رياضي مجنون.
- برقيات ورسائل.

أنطون تشيخوف

طبيب وكاتب روسي مشهور. بدأ حياته الأدبية كاتب مقالة وأقاصيص ساخرة. الثيمة الرئيسية لدى تشيخوف هي السؤال الفكري والفلسفي لدى المثقفين، إضافة إلى موضوعات مثل: عدم رضا شخصياته المختلفة عن الحياة، والحياة المبتذلة عند شخصياته، ومسالمتهم في مواجهتهم سفالات الحياة – قصص «قصة مملة» ١٨٨٩، «المبارزة» ١٨٨١، «المنزل ذو العلية» ١٨٩٦، «إيونيتش» ١٨٩٨، «السيدة صاحبة الكلب الصغير» ١٨٩٩. وقد عرض للعلاقات البرجوازية في المدينة والقرية ومسألة إفقار الريف في قصصه «مملكة النساء» ١٨٩٤، «الفلاحون» ١٨٩٧، «في الوادي» ١٩٠٠. ووصل إلى ذروته على صعيد الفكر الاجتماعي والمستوى الجمالي في قصص «عنبر رقم ٦» ١٨٩٢، و«الرجل المعلب» ١٨٩٨.

كتب تشيخوف عدداً من المسرحيات المهمة منها: «الخال فانيا» ١٨٩٦، و«الأخوات الثلاث» ١٩٠١، و«بستان الكرز» ١٩٠٤.

ويعتبر الإنسان البسيط، العادي، بهمومه اليومية، هو البطل الرئيسي في أعماله. تميّز أسلوبه بدقة التحليل السيكولوجي والغور في الأعماق النفسية للشخصية التي يتناولها في أعماله. وهو يعتبر بحق صاحب النص الداخلي ـ النص داخل النص، وصاحب مدرسةٍ في القصة القصيرة، مزج بتميز بين الأسلوب الساخر وشعرية الكتابة، ترك أثرا هائلا على فن القصة القصيرة في روسيا والعالم.

كاتب مسرحي

دخل رجل ضئيل، ذو وجه أربد، إلى عيادة الطبيب، وقد بدا كأنه مصاب بالتهاب في الجيوب الأنفية. وبنظرة إلى حجم أنفه ووجهه الشاحب الذي يشبه وجه شخص مصاب بالسل، فإنك تكتشف أنك أمام شخص ليس غريباً على المشروبات الكحولية والرشح المزمن والتفلسف...

جلس على الكنبة وراح يشكو ضيق التنفس، والحرقة والتجشؤ، والسعال، ومن طعم منفّر في فمه.

سأله الطبيب:

ماذا تعمل؟

ردّ الرجل بشيء من الفخر:

إنني كاتب مسرحي.

سرعان ما امتلأ قلب الطبيب بالاحترام نحو المريض المراجع، ابتسم باحترام ثم تمتم قائلاً:

أوه، هذا تخصص نادر... إنه كتلة من العمل العقلي والعصبي الخالص!

اِفـ.. تر.. ض، ذلك

إن الكتّاب نادرون... وحياتهم لا يمكن أن تشبه حياة الناس العاديين.. لذلك لي رجاء عندك، وهو أن تصف لي شكل حياتك: أشغالك، عاداتك، وضعك بشكل عام... أي ثمن تدفعه وأنت تمارس نشاطك...

قال الكاتب موافقاً:

حسنا، أستيقظ، يا سيدي، حوالي الثانية عشرة، وأحيانا قبل ذلك.. وعندما أنهض، أدخن فورا سيجارة، وأشرب قدحين من الفودكا، وأحيانا ثلاثة، وأحياناً أربعة، وهذا يعتمد على ما إذا كنت قد شربت قبل ذلك. وهكذا، فإذا لم أشرب، فإن الغبش يظهر في عيني، ويبدأ شيء يقرع رأسي..

واضح أنك تشرب كثيرا.

لا، أين هي الكثرة؟ إذا ما شربت بعض الشيء، فإن ذلك يعتمد،كما أفترض، على الأعصاب. بعد ذلك، أرتدي ملابسي، وأذهب إلى ليفورنو[1] أو إلى سافراسينكوف[2]، حيث أتناول الإفطار. شهيتي، بشكل عام، سيئة. آكل على وجبة الإفطار أقل القليل: قطعة من الكفتة، أو نصف قطعة من لحم الزجر[3] مع الفجل الحار. أتعمد شرب ثلاثة أقداح أو أربعة.. لكن الشهيّة تبقى غائبة.بعد الإفطار، لا بد من البيرة أو النبيذ.. وطبعاً، من الضروري توفر المال لديك..

بعد ذلك أذهب إلى الحانة، ومن الحانة أذهب، مرة أخرى، إلى ليفورنو للعب البلياردو. أبقى هناك حتى الساعة السادسة، ثم أعود لتناول طعام الغداء. أتناول على الغداء أقل القليل.. هل تصدق! وأشرب، مرة أخرى، ستة أو سبعة أقداح، لكن، لا شهية للطعام..! ويصادف أن أنظر إلى الناس بحسد، إنهم جميعا يأكلون الحساء، أما أنا فلا أستطيع حتى النظر إليه، فكيف لي أكله.وأشرب البيرة، وبعد الغداء، أذهب إلى المسرح...

- أها.. لا بد أنك تقلق من أجل المسرح؟

١- ليفورنو: مطعم في موسكو كان يرتاده الممثلون.
٢- سافراسينكوف: فندق ومطعم في موسكو.
٣- الزجر: سمك كبير الحجم، ليس لديه هيكل عظمي، مشهور بلحمه وبيضه (الكافيار).

- أوه، أقلق بشـكل فظيـع! إنني أقلق وأنتفض من شـدة القلق، وفي المسـرح لدي أيضـا أصدقاء، و يحدث نفس الأمر: تشـرب وتشـرب! تشـرب مع أحدهـم الفودكـا، ومع آخـر نبيذاً احمر، ومـع ثالث بيرة، وهكذا، تسـير الأمور حتى الفصـل الثالث، عندها تكون غير قادر علـى الوقوف على قدميك... الشـيطان وحده يعـرف هذه الأعصاب. بعـد المسـرح تذهـب إلى الصالـون الأدبـي، أو إلى سـاحة زْرودون للمشـاركة في الحفـل التنكري، وكمـا تعلم، ليس من السـهل التملص من الصالون أو الحفل التنكري. وإذا ما اسـتيقظت صباحاً، ووجدت نفسـك في بيتك، فعليك أن تشـكر ربك، ففي أحوال أخرى، أنت لا تنام في البيت أسابيع بأكملها...

- أها.. تتأمل الحياة؟

- أي، نعم...لقـد انفعلـتْ أعصابي مرةً، لدرجة أنـني لم أعش في البيت شـهراً كـاملاً، حتى إنني نسـيت عنواني، واسـتدعى ذلك أن تذهب إلى مكتب الاسـتعلامات لأسـأل عنه.. وهكذا، كما ترى، فالأيام تقريبا على هذا المنوال!

- اها، والمسـرحيات، ترى، متى تكتبها؟

- هز الكاتب كتفيه وقال:

- المسـرحيات؟ ماذا أقول لك؟ كل شـيء يعتمد على الظروف..

- حاول أن تصف لي عملية الكتابة لديك...

قبـل كل شـيء يا سـيدي، قد يقع بـين يدي (من خلال أحـد الأصدقاء، فأنا شـخصيا ليس لدي الوقت الكافي للمتابعة) نص فرنسـي أو ألماني. فإذا ما كان مناسـباً، فإنني آخذه إلى أختي أو أسـتأجر طالبا مقابل خمسة روبلات.

فهؤلاء يترجمون، أما أنا كما تعلم، أعِدُّه ليناسب الذوق الروسي: أستبدل أسماء العائلات الأجنبية بأسماء روسية.. وما إلى ذلك.. وهذا كل شيء.. أترى، إنه صعب! أوه، كم هو عمل صعب!

أسبل الرجل الضئيل جفنيه، وأخذ نفساً عميقاً... وراح الطبيب يجس نبضه، ويسمع نفسه، طارقاً صدره برؤوس أصابعه...

جزمـــة

خـرج الرجـل حليـق، ذو الوجه الشـاحب، والأنـف المعتاد على السـعوط، والأذنين المحشـوتين بالقطن، «مدوزِن» البيانـو موركين، من غرفته إلى الممر، صائحاً بصوت مرتجف:

- سـيمون! أيها الخادم!

لو نظر أحد إلى وجهه الخائف، لاعتقد أن كتلة من الجص سـقطت على رأسه، أو أنه قد أفاق لتوه من كابوس مرعب.

عندما رأى موركين خادم الفندق مقبلاً صاح به:

- من فضلك، يا سـيمون! ما هذا؟ أنا أعاني من الروماتيزم، وأنت تجبرني على الخروج حافياً! لماذا لم تُعد لي «الجزمة» حتى الآن؟ أين هي؟

دخل سـيمون إلى غرفة موركين، ألقى نظرة علـى المكان الذي يضع فيه «الجزمة» التي يكون قد نظفها، حكّ ذقنه: لا توجد «جزمة».

قال سـيمون:

- أين هـي الملعونة؟ يهيأ لي أنني بالأمس مسـحتها ووضعتها هنا... أها! بالأمـس! علـيّ الاعتراف أنـني كنت سـكران، وهذا قـد يعني أنني وضعتهـا في غرفة أخرى، نعـم إنه كذلك، يا أفاناســي يغوريتش، لقـد وضعتها في غرفة أخرى، إن «الجزم» كثيرة هنا، ولا يمكن إلا للشـيطان وحده التمييز بينها في حالة السكر، أنا كاد لا أتذكر نفســي. إنني، بالتأكيد، وضعتها لدى السـيدة التي تعيش بالجوار، لدى الفنانة...

- تفضل، إنني بسببك مضطر للذهاب وإزعاج السيدة! أرجو أن تكون امرأة كريمة رغم التفاهات التي حدثت!..

اقترب موركين من باب الغرفة المجاورة، أخذ نفسا عميقا، وأصدر سعلة، ثم طرق الباب بحذر. بعد دقيقة سمع صوتاً أنثويا.

- من هناك؟

- أنا، سيدتي! بدأ موركين بصوت فيه رجاء، وهو يقف في وضعية شريك للرقص مع سيدة عالية المقام - أرجو المعذرة على الإزعاج، أيتها السيدة، لكنني رجل مريض بالروماتيزم، وقد أمرني الأطباء، أيتها السيدة، أن أُبقي قدميّ دافئتين، والمسألة هي أنه عليّ أن أذهب الآن لأدوزن البيانو لدى الجنرالة شيفيليتسينايا. ولا يمكنني الذهاب إليها حافيا...

- ماذا تريد؟ أي بيانو؟

- ليس البيانو، سيدتي، إنني أتكلم بخصوص «الجزمة»! هذا الجاهل سيميون، نظّف «جزمتي»، ووضعها بطريق الخطأ في غرفتك. أرجوك، سيدتي، وبلطفك الكبير، أن تعطيني «الجزمة».

سُمع حفيف ملابس، وقفزة عن السرير، وخفْق حذاء، وبعد ذلك انفرج الباب قليلا، وقذفت يد أنثوية صغيرة ممتلئة «جزمة» موركين عند قدميه. قدّم المدوزن الشكر وعاد إلى غرفته. تمتم وهو ينتعل «الجزمة»:

- غريب، يبدو كما لو أنها ليست الفردة اليمين. نعم لدي هنا فردتان يساراوان! الاثنتان يساراوان! اسمع، يا سيمون، هذه ليست «جزمتي»! «جزمتي» بخروم حمر، ودون دروع، أما هذه فمهترئة، ودون خروم!

رفع سيمون «الجزمة»، أدارها عدة مرات أمام عينيه، تجهم وجهه، تمتم وهو يلقي نظرة حولاء:

- هذه «جزمة» بافل الكسندريتش.

لقد كان سيمون أحول العين اليسار.

- أي بافل الكسندريتش؟

- الممثل. إنه يأتي إلى هنا كل اثنين. أصبح من الواضح، إذاً، أنه انتعل«جزمتك» بدل«جزمته»... وأنا وضعت في غرفتها، على ما يبدو، زوجين من الجزم: «جزمتك» و«جزمته». يا لها من لجنة!

- خذها إذاً واستبدلها!

ضحك سيمون ساخرا:

- أهلا! يقول خذها واستبدلها. ومن أين لي أن أحصل على«جزمته» الآن؟ لقد غادر منذ ساعة، ومن يبحث عن الإبرة في القش؟

- وأين يسكن هو؟

- من يعرف! إنه يأتي إلى هنا كل اثنين، أما أين يسكن- فلا نعرف. يأتي، يقضي ليلة، ثم ننتظر حتى الاثنين التالي...

- انظر، أيها الخنزير، ماذا فعلت! والآن، ماذا بإمكاني أن أفعل؟ لقد آن الأوان كي أذهب للجنرالة شفيليتسينايا، أيها اللعين، وقد بردت قدماي!

- لا يحتاج تبديل «الجزمة» لفترة طويلة. انتعل هاتين «الجزمتين»، وامش بهما حتى المساء، وعند المساء، اذهب إلى المسرح، وهناك اسأل عن الممثل بليستانوف. وإذا لم تكن لديك الرغبة بالذهاب إلى المسرح، ستضطر للانتظار حتى الاثنين القادم. إنه لا يحضر إلى هنا إلا أيام الاثنين.

تساءل المدوزن متناولا «الجزمتين» بقرف.

- لكن لماذا هنا فردتان يسراوان؟

- ما يرسله الرب، يأخذه الرب. أين يمكن لممثل أن ينال مثلها من الفقر؟ «أنا أقول له: إن «الجزم» لديك، يا بافل الكسندريتش! يا له من عار حقيقي!» أما هو فيقول: «اخرس، واخجل!. إنني بهذه «الجزمة»، ذاتها، لعبت أدوار النبلاء وكبار الملّاك». يا له من شعب غريب! كم أود لو آخذ جميع هؤلاء الممثلين و... إلى الحبس.

شد موركين فردتي «الجزمة» اليسراوين مقطبا الجبين، ودون أن يتوقف عن التأوه، ثم انطلق وهو يعرج على قدمه إلى الجنرالة. مشى طيلة النهار في شوارع المدينة، دوزن البيانوهات، وقد هيئ له طيلة النهار، أن العالم كله كان ينظر إلى قدميه، ساخرا من «جزمته» ذات الدرعين والكعبين المائلين! إضافة إلى العذابات المعنوية، فقد عانى الرجل جسديا: فقد نما لديه مسمار لحمي.

مساءً، كان في المسرح. عُرضت هناك مسرحية «اللحية الزرقاء». سُمح له أن يدخل إلى كواليس المسرح فقط قبيل الفصل الأخير، وبواسطة عازف ناي من معارفه. عندما دخل غرفة تغيير الملابس الخاصة بالرجال، وجد هناك طاقم الممثلين كاملا. كان بعضهم يغيّر ملابسه، وبعضهم كان يضع المساحيق على وجهه، وآخرون يدخنون. اللحية الزرقاء كان يقف مع الملك بوبيش. قال له عارضا عليه مسدسا:

- اشتر! لقد اشتريته في كورسك بطريق الصدفة مقابل ثمانية، وأقدمه لك مقابل ستة... إنه رائع للقتال!.

- احذر.. إنه معبأ بالذخيرة!

سأل المدوزن الذي دخل للتو:

- هل يمكنني رؤية السيد بليستانوف؟

استدار إليه «اللحية الزرقاء» وقال:

- أنا هو! ماذا تريد؟

بدأ المدوزن بنبرة رجاء:

- أرجو المعذرة، يا سيدي، على الإزعاج، لكن، صدقوني، أنا رجل مريض بالروماتيزم، وأمرني الأطباء أن أُبقي قدمي دافئتين...

- وماذا تريد مني بالتحديد؟

أكمل المدوزن كلامه الموجه للحية الزرقاء.

- كما تعلمون، فقد كنت هذا المساء في الغرفة رقم ٦٤، في بناية التاجر بوختيف المفروشة.

غضب الملك بوبيش.

- ماذا يفتري هذا الشخص! إن زوجتي تقيم في هذه الغرفة!

ابتسم موركين:

- زوجتك؟ لطيف جدا. إنها زوجتك، بالتحديد، من أعطاني «جزمة» هذا عندما خرج - وأشار إلى بليستانوف - من عندها، لقد أخذت «جزمتي» يا سيدي. أما أنا فقد ثُرت على خادم الفندق، وهو يقول: «لقد وضعت «جزمتك»، يا سيدي، في الغرفة المجاورة!». لقد كان في حالة سكر، ووضع بطريق الخطأ «جزمتي» في الغرفة ٦٤ - ثم استدار موركين نحو بليستانوف – أما أنتم، عندما خرجتم من عند زوجته، فقد انتعلت «جزمتي»...

- ما هذا الذي تهذي به؟ - قال بليستانوف ثم أقطب الجبين - ترى، هل أتيت إلى هنا لتفتري؟

- أبدا! احفظني يا رب! أنتم لم تفهموني... أنا هنا بخصوص ماذا؟ بخصوص «الجزمة»! هل نمتم سعادتكم في الغرفة ٦٤؟

- متى؟

- الليلة الماضية؟

- هل رأيتني هناك؟

- لا، لم أرك.

أجاب موركين بانفعال شديد، ثم جلس وخلع «الجزمة» واسترسل:

- لا لم أرك، لكن «جزمتك» هذه رمتها علي زوجته بدل «جزمتي».

- كيف تعطي نفسك الحق، أيها السيد الكريم، أن تؤكد مثل هذه الأمور؟ لا أتكلم هنا عن نفسي، لكنك تهين امرأة، وبحضور زوجها.

وعلا صخب مخيف خلف الكواليس. احمر وجه الملك بوبيش- الزوج المخدوع، فجأة، وبكل قوة ضرب الطاولة بقبضة يده، لدرجة أن الممثلتين اللتين كانتا قريبتين منهم أصيبتا بالفزع. صرخ به اللحية الزرقاء:

- هل تصدق؟ هل تصدق هذا الحقير؟ أوه! أأقتله مثل الكلب؟ هل تريد؟ يمكنني أن أحوِّله إلى كفتة! سأهشم رأسه.

كل الذين كانوا يتمشون ذلك المساء في حديقة المدينة بالقرب من المسرح الصيفي، يتحدثون الآن كيف أنهم رأوا قبيل المشهد الرابع رجلا حافي القدمين بوجه شاحب، وبعينين مليئتين بالرعب منطلقا من المسرح باتجاه الطريق الرئيسي في الحديقة، يلحق به رجل بلباس اللحية الزرقاء ممسكاً مسدساً. ولا أحد رأى ماذا حدث فيما بعد. عُرف فقط أن موركين، بعد تعرفه على بليستانوف، رقد، فيما بعد، أسبوعين مريضا، وأصبح يضيف إلى عبارته: «أنا إنسان مريض بالروماتيزم» عبارة: «أنا رجل مصاب» أيضا...

رغم أن اللقاء تحقق، إلا أن....

بعد أن اجتاز غفوزديكوف الامتحان، استقل الزلاجة مقابل ستة كوبيكات(لقد كان دوما يتنقل«راكبا») ووصل إلى مدخل المدينة. ومن مدخل المدينة توجه سيراً على الأقدام إلى المنزل الريفي الذي يبعد مسافة ثلاثة فراسخ. عند بوابة المنزل الريفي استقبلته مدبرة المنزل، وهي سيدة شابة. لقد سبق له أن درّس ابن هذه السيدة الحساب، مقابل حصوله على طعام وشقة في المنزل الريفي وخمسة روبلات نقدا في الشهر.

سألته مدبرة المنزل باسطة يدها:

- ـ ها، كيف؟ ناجح؟ هل اجتزت الامتحان؟
- ـ نعم، اجتزته.
- ـ برافو، يا يغور أندريفيتش!هل حصلت على علامة جيدة؟
- ـ كالمعتاد.. خمسة من خمسة.

لقد حصل غفوزديكوف على ثلاثة+، لكن... لماذا لا يكذب إذا كان بالإمكان أن يكذب؟ الممتحنون يكذبون بذكاء، تماما مثل الصيادين. وعندما دخل غرفته وجد على المنضدة رسالة صغيرة مربوطة بمنديل أحمر. الرسالة كانت تفوح برائحة الخزام. فض المغلف، ونزع المنديل وقرأ ما يلي:

«عليك القيام بما يلي: كن في تمام الساعة الثامنة قرب القناة التي سقطت فيها قبعتك بالأمس، سأكون جالسة على المقعد تحت الشجرة. أحبك، لكن لا تكن أخرق متهورا، عليك أن تكون مرحا، خفيف الظل. أنتظر المساء بفارغ

الصبر. إنني أحبك بجنون. حبيبتك س.»

«سافرت Maman P.S، سنتمشى حتى منتصف الليل. أوه، كم أنا سعيدة! الجدة ستكون نائمة، ولن تلاحظ شيئاً».

أطلق غفوزديكوف ابتسامة عريضة بعد أن قرأ الرسالة، قافزا عاليا، ذارعا الغرفة بشكل استعراضي.

- محبوب! محبوب! محبوب!!! كم أنا سعيد! أو- أو- أو! ترلللا!

أعاد قراءة الرسالة مرة أخرى، قبّلها، ووضعها بعناية داخل طاولة التشريح. أحضروا له الغداء. أكل ما قدم له كلّه، غافلا عن شوارد الدنيا، مسطولا بتأثير الرسالة، لقد أكل الحساء واللحم والخبز. وبعد أن تناول غداءه استلقى وراح يحلم بكل شيء: بالحب، بالصداقة، بالخدمة...وصورة سونيا كانت حاضرة في مخيلته طول الوقت.

فكر: «كم هو مؤسف أنه لا توجد لدي ساعة يد! لو كان لدي ساعة، لتمكنت من حساب الوقت المتبقي لدي حتى المساء. أما الوقت عليه اللعنة فقد كان يسير بطيئا، كما لو كان يقصد إغاظتي».

ولما مل الاستلقاء والأحلام، نهض، وراح يذرع المكان ثم أرسل الطباخة من أجل أن تحضر البيرة.

فكر: «ما دام الوقت يمر بطيئا، فلنشرب، سيمر الوقت أسرع».

أحضرت البيرة. جلس غفوزديكوف واضعا أمامه الزجاجات الست جميعها إلى جانب بعضها، وراح يشرب متأملا فيها بغرام. وبعد أن شرب ثلاث كؤوس، شعر أن نوراً أضاء صدره ورأسه: أصبحت الأشياء أكثر دفئا، وإشراقا، وحسنا.

فكر وهو يتناول الزجاجة الثانية: «إنها تصنع سعادتي، إنها المرأة التي كنت أحلم بها..نعم إنها هي!»

بعد الكأس الثانية شعر أن المصباح الذي أنار رأسه قد انطفأ وأصبح رأسه معتما، لكنه، مقابل ذلك، أصبح أكثر مرحا! شـيء جيد أن تعيش في هذا العـالم بعد الـكأس الثانية!ولما بـدأ بالزجاجة الثالثة، لوح بيده، وأقسـم أنه لا يوجد من هو أكثر منه سـعادة في هذه الدنيا. لقد أقسـم لنفسه، وصدَّق ذلك بشكل قطعي.تمتم بينه وبين نفسه:

- أنـا أعـرف ما الـذي أحبتـه فيّ! أعرف! لقـد أحبت لدي الشـخص غير الاعتيادي!نعم كذلك! إنها تعرف الشـخص الذي تحب، ولماذا تحب؟ أنا شـخص غير اعتيادي! إنني لسـت أي شخص.. لسـت نكـرة.. إنني غفوزد.. أنا..

هتف متناولا الزجاجة الرابعة:

- نعـم! إنهـا ليسـت أي شـخص! لقـد أحبـت فيّ.. العبقريـة! العبـقـ ريّـة! العبقريـة العالميـة! مـن أنـا! ومـاذا أكـون؟ هـل تظنون أنـي- غفوزديكـوف؟ نعـم، أنـا غفوزديكـوف، لكـن أي غفوزديكوف؟ماذا تعتقدون؟

وعندمـا وصل إلى منتصف الزجاجة الرابعة، ضـرب المنضدة بقبضة يده، وقال نافشاً شعره:

- سـأريهم من أكون! فقط عليّ أن أنهي الفصل! اسمحوا لي فقط أن أدرس! أنا محب العلوم النهم.. إنها أحبت فيّ محب العلوم. وسـأثبت أنها محقة!ألا تصدقوني؟ ألا تصدقوني؟ اغربوا عني جميعا! وهي كذلك لا تصدق؟ هي؟ سـونيا! اغربوا عن وجهي جميعـاً وهي معكم، إذاً! سـأبرهن لكم! سـأبدأ الدراسـة حالا!.. بعـد أن أكمـل الكأس.. جميعكم أنذال!

غضـب غفوزديكـوف، أكمـل الـكأس، وتنـاول من على الـرف دفتر

المحاضـرات، فتحه وراح يقرأ في مكـان ما من وسط الدفتر:

«عند...يشـكل سـبباً في خلـع الفك السـفلي وكذلك يسـببه السـقوط، والضـربة المباشـرة عليه والفم مفتوحا..»

- كلام سخيف! الفك.. ضـربة. هذا وذاك.. سخف!

أغلـق دفـتر المحاضـرات وبـدأ بالزجاجة الخامسـة. وفي النهايـة، وبعد أن أكمـل الزجاجـة الخامسـة، ومـن بعدهـا السادسـة، اكتـأب، وراح يفكـر بتفاهة العالم بشـكل عام، والإنسان بشـكل خاص، وقام بشـكل آلي، وهو يفكـر، بوضع السـدادة على عنـق الزجاجة، وراح يصوب نحوهـا نقرات من إصبعه، محاولا تسـديدها في البقعة الخضـراء الصغيرة، التي كانت تتلألأ أمام ناظريه.وعندما سـدّدها في البقعـة الخضـراء بدأت البقع السـوداء والخضـراء والزرقـاء تتراقـص أمام عينيه. إحـدى تلك البقـع، وكانـت ذات لون أحمر قان، وبرؤوس إبرية خضـراء، طارت نحو عينيـه مبتسـمة وألقت من جسـمها شـيئاً يشبه الصمغ..شعر حينها بأن جفنيه يغمضان..

فكـر: «شـيء ما يؤلمني في عيني! علـيّ أن أخرج للهواء الطلق، وإلا سأفقد البصـر. علـيّ التمشـي..الجو خانق هنا.الجميـع يطفئون مدافئهم.. أوه حمير! يؤلمونـي ويطفئون المدافئ! مجانـين!». اعتمر قبعته وخرج مـن الغرفة. كان الظلام قد هبط، وقد اقتربت السـاعة من العاشـرة. في الخـارج، كانت بعض النجوم الصغيرة تلألأ في السـماء، وغاب القمر، وكأن الليل وعد بأن يكون حالـكا. هبت نسـائم أيار اللطيفة من جهة الغابة. وقـد اجتمعت كل ظروف مواعيـد الغـرام rendez – vous: همسـات أوراق الشجر، تغريـد البلابـل، و..حتـى «هي»، لاحت له في العتمـة الحالكة بيضاء شـاردة الذهن. ودون أن يشعر، كان قد اقترب من المكان، الذي عينته في رسالتها.

نهضت عن المقعد وتقدمت للقائه، قالت مقطوعة النفس قليلا:

- جورج. أنا هنا.

توقف غفوزديكوف، استمع للصوت وراح ينظر إلى الأعلى، إلى أعالي الشجر. هُيِءِ له أن أحدا نادى عليه من فوق. كرّرت هي النداء، مقتربة منه أكثر:

- جورج، هذه أنا!

- أها؟

- هذه أنا.

- ماذا؟ من هنا؟ من؟

- هذه أنا، يا جورج.. تعال... اجلس.

فرك جورج عينيه، وبحلق بها..

- ماذا تريدين؟

- إنك مضحك! ألم تعرفني؟ من غير المعقول أنك لا ترى شيئا؟

- آه..عفوا.. بأي حق أنت تمشي في حديقة غرباء في الليل؟أيها السيد المبجل!أجب أيها السيد المبجل وإلا ضربتك على سحـ..نـ.. تك..

مد جورج كلتا يديه إلى الأمام وأمسك بها من كتفيها، فانفجرت هي ضاحكة.

- كم أنت مضحك! ها..ها..ها. كم أنت تجيد التمثيل! دعنا نذهب.. ودعنا نثرثر..

- من يثرثر؟ ماذا؟لماذا أنت؟ لماذا أنا؟ هل تسخر؟

وعلت ضحكاتها، لفته بذراعها واندفعت به إلى الأمام. نكص هو إلى الوراء. وجعل من نفسه حصان عربة عنيد، أما هي فقد بدت حصانا مطواعا، مندفعا إلى الأمام.

تمتم قائلا:

- إنني نعس، أريد النوم.. اتركني. لا أرغب بالتسلية بأمور تافهة.

- ستتسلى..ستتسلى لماذا تأخرت نصف ساعة؟ هل كنت تدرس؟

- كنت أدرس.. أنا دائما أدرس إن سبب خلع الفك السفلي يمكن أن يكون السقوط، أو ضرب الفك والفم مفتوح.كسور الفِكاك أكثر ما يحدث في الحانات، وفي حانات البيرة بالتحديد. أريد بيرة ذات الجبال الثلاثة.

تجاذبا كلاهما حتى اقتربا من المقعد وجلسا. فرك عينيه براحتي يديه، ثم اتكأ بمرفقيه على ركبتيه وأطلق شخيرا. سقطت قبعته عن رأسه واستقرت على يديها. انحنت هي ونظرت في وجهه. سألت بهدوء:

- هل تعاني من شيء؟

- هذا لا يخصك، إنه ليس شأنك..لا أحد يملك الحق بالتدخل في أموري الخاصة..جميعهم مجانين..وأنت..مجنونة.

وبعد أن صمت قليلا، أضاف:

- وأنا مجنون..

سألت هي:

- هل تلقيت رسالة؟

- تلقيت.. من.. سونكا..من سونيا.. هل أنت سونيا؟ فليكن، ماذا في ذلك؟ غباء..عبارة «قلة الصبر»، كلمة «قلة» في العبارة.... نُحاة! فليأخذكم الشيطان إلى الأبد!

- هل أنت ثمل؟

- لا.. لكـني منصف! بـأي حـق أنــت.. لا يمكـن لأحد أن يـســكـر من البيرة..آه؟ أيهم؟

- لماذا أنت، يا عديم الضمير، إذاً، تهذر بالتوافه إذا كنت غير ثـمـل؟

- لا. مبتدأ- أنا، مفعول به- أنت، مفعول له، مبتدأ..processus

- condyloideus et musculus sterno-cleidomatoideus.

ضحك غفوزديكوف مدليا رأسه نحو ركبتيه.. سألته:

- هل أنت نائم؟

لم يجب. بكت قليلا ثم راحت تفرك يديها بشدة.كرّرت السؤال:

- هل أنت نائم، يا يغور أندريفيتش؟

وجوابا على هذا السؤال سمعت شخيرا قوياً أجش. نهضت، وتمتمت:

- حقير! قذر! هذا هو أنت؟ إذا خذ! خذ! خذ!

وبيدها الصغيرة مسـته خمس مرات على مؤخرة رأسه، وكيف مسّته! داست بقدميها على قبعته.نساء ناقمات!

في اليوم التالي أرسل غفوزديكوف لسونيا الرسالة التالية: «أرجو المعذرة. لم أتمكـن مـن الحضور بالأمس لأنني كنـت مريضاً جدا. حـددي موعداً آخر، حتى لو كان الموعد مساء اليوم، مثلا.

المحب يغور غفوزديكوف».

كان الرد على هذه الرسالة على النحو التالي: «قبعتك ملقاة قرب المقعد. يمكنك أخذها من هناك. شرب البيرة ألذ من الحب، لذلك اذهب واشرب البيرة. لا أود إزعاجك. لست حبيبتك (س) بعد الآن..»

لا تجبني. إني أكرهك»

شخصية مشرقة

قصة رجل «مثالي»

يقف في الجهة المقابلة لنوافذي منزل بني ضخم بطنفٍ متسخة وسقف صدئ، حاجبا الشمس عني. لكن هذه القشرة البشعة، ذات اللون الكئيب، كانت تحوي نواة رائعة لا تقدر بثمن!

كنت أرى، كل صباح، رأسا أنثويا يطل من النوافذ النائية للمنزل، وعليّ أن أعترف بأن ذلك الرأس كان يعوض عليّ الشمس التي حجبها المنزل! إنني أحب ذلك الرأس، لا لجماله، فلا شيء جميل في العينين الرماديتين الضيقتين، أو في حبات النمش الكبيرة على الوجه، أو في لفائف الشعر المصنوعة من ورق الجرائد. أحبها لبعض الصفات التي تميز ثقافتها العالية.

كنت أرى المرأة الشابة ذات «البلوزة» البيضاء، ولفائف الشعر على الرأس، تقترب من النافذة، كل صباح، تتناول الجرائد الملقاة على حافة النافذة بنهم. أراها يا سادتي، تفتح الجريدة، وأرى بريق عينيها وهي تتجاوز الصفحات المملة... أرجوكم أيها المحترمون أن تراقبوا تعابير وجهها. تختلف تلك التعابير، تبعا للظروف والمواقف.. تارة يشرق وجهها بابتسامة فرح، وتروح تتقافز في أرجاء الغرفة مشرقة، لامعة العينين، وتارة يكون الوجه مخيفا، وحالة اليأس التي لا يمكن وصفها تشوه وجهها، تمسك برأسها، وتروح تذرع الغرفة من طرف إلى آخر فاقدة صوابها... ولم يصادف أن رأيتها مرة غير مكترثة...

تمر الأيام وراء الأيام، تتناوب عليها السعادة مع اليأس... اليوم هي سعيدة بلا حدود، غدا ستمسك رأسها فوق لفائف الورق. لا يوجد نهاية لأحزانها وعذاباتها!

أنا طبيب نفسي إلى حد ما، وأعرف بشؤون القلوب. الظواهر النفسية التي أراها من خلال النافذة، تقع في حدود فهمي، مثل جدول الضرب. عندما ترتسم ابتسامة السعادة على وجه المرأة الشابة، تزدحم في رأسي مثل هذه الأفكار:

«آه... واضح تماما بأن أخبار الجريدة اليوم مفرحة... إنني سعيد جدا... إن ما يفرح سيدتي الغريبة، على ما أظن، هو سلوك تسانكوف[1] وخطاب غلادستون[2] الأخير. ومن الممكن، أن اللقاءات غير المتحققة بين بيسمارك[3] وكالكوني[4] تقلقها بشكل كبير... ومن المحتمل أيضا أنها اطلعت، في أعداد اليوم، على ولادة موهبة روسية جديدة.. في كل الأحوال أنا سعيد جدا... فقليل من النساء من يحظين بمثل هذه الصفات السامية!»

وأنا بدوري أروح أذرع الغرفة من زاوية إلى أخرى، أهتف فخورا:

مخلوقة ساحرة، نادرة! إنها الكلمة الأخيرة في تحرر المرأة! أوه، ليت مثيلاتها كثر! نحن بحاجة إلى مثل تلك النسوة!

وعندما يشوه الإحباط وجه الغريبة، أفكر: «آه، أصبح لزوماً أن لا تقترب من الجرائد! إنه أمر تافه! من المحتمل أن كارافيلوف[5] أو موتكوروف[6] قد

١ـ سانكوف دراغان (١٨٢٨- ١٩١١) سياسي بلغاري، قائد معارض.

٢ـ غلادستون وليم (١٨٠٩- ١٨٩٨) رئيس وزراء بريطانيا. زعيم حزب العمال. حكومته قمعت حركة التحرر في ايرلندا، وفي عهده تم استعمار مصر.

٣ـ بيسمارك (١٨١٥- ١٨٩٨) مستشار ألمانيا وموحدها.

٤ـ كالكوني. غ. (١٨٣٢- ١٨٩٨) رئيس وزراء هنغاريا – النمسا.

٥- كارافيلوف بيتكا (١٨٤٣- ١٩٠٣) رئيس وزراء بلغاريا، أحد مؤسسي حزب العمال البلغاري، أحد أقطاب المعارضة لحكم النبلاء.

٦- موتكوروف سافا (١٨٥٢- ١٨٩١) جنرال بلغاري.

استفز vis ـ à ـ vis»[1]... وأفكر أيضا، بأن سياسة النمسا المتقلّبة، وسلوك الملك ميلان[2] قد أهانا طبيعتها النقية... إنها تعاني، لكن، أي شرف تصنعه لها هذه المعاناة!» أمشي قلقا، مضطربا وأهتف: ها هي المرأة الحقيقية! إنها جديرة بنكد المدينة! يمكنها أن تعاني من أجل الإنسانية!.. إنني أفقد عقلي بسبب هذه المرأة النادرة... لا يكاد الفجر يطل، حتى أكون قد وقفت إزاء النافذة أنتظر ظهور المرأة الغريبة vis ـ a ـ vis في نافذتها. أظل أحلم وأنتظر قدوم الفجر ليلا. أما نهارا، فأظل أذرع الغرفة من ركن إلى آخر...نعم يا سادتي، إنها امرأة استثنائية!

عندما كانت نوافذي ونوافذها مشرعة في الصيف، سمعت بكاءها الهستيري، وضحكاتها السعيدة أكثر من مرة... حتى إنني سمعتها في إحدى المرات، تصرخ، ممسكة رأسها في حالة من اليأس والغضب:

إنه حقير! إنه يعذبني!.

ومزقت الجريدة إلى نتف صغيرة.

إنني آسف لأنه لا يسكن معي لا أورباخ[3] ولا شبيلغاغن[4]، ولا ذاك الروائي الآخر، الذي يبحث دوما عن «أناس جدد»... لأنهم كانوا سيستغلون غريبتي...

***

١- شبيهتي – بالفرنسية.
٢- ميلان أوبرينوفيتش (١٨٥٤- ١٩٠١) أمير صربي، أصبح ملكا، سعى لإقامة حكم استبدادي، اختط سياسة خارجية مغامرة. عزل عن العرش، وعاش بقية حياته خارج بلاده.
٣- بيرتولد أورباخ(١٨١٢- ١٨٨٢) كاتب ألماني، صور النظام البطريركي في القرية من خلال قصصه عن البيئة الشعبية، وفي رواية «بيت ريفي على الراين»، وروايته التاريخية «سبينوزا».
٤- فريديك شبيلغاغين(١٨٢٩- ١٩١١) روائي ألماني، من أهم رواياته: «واحد ليس مقاتلا بالتأكيد»، ورواياته ذات طابع سياسي – اجتماعي.

أشعر بأن تبجيلي يتحول شيئاً فشيئا إلى حب شديد. نعم، إنني أحبها! يا إلهي، أي هاوية تفصلني عنها! روحها مشبعة بنكد المدينة، لقد فقدت مبادئي منذ مدة طويلة ؛ أعيش في بيئة مسحت معالمها اهتمامات الغوغاء الدنيئة... لكني، لم أكن قادرا على كبح جماح نفسي، لذلك ذهبت إلى المنزل البني، نقرت عليه لألفت انتباه البواب إلي. قطعتان من فئة العشرين كوبيكا[1] كفيلتان بفك لسانه، وهو سيجيب على كافة أسئلتي: السيدة الغريبة تعيش في الشقة رقم (٥)، لديها زوج، وهو متقاعس في دفع أجرة الشقة. زوجها يهرب كل صباح إلى مكان ما ولا يعود إلا في ساعة متأخرة من الليل، حاملا ربعية فودكا تحت إبطه، وجعالة طعام في كيس... الزوج معرَّفٌ في جواز السفر أنه ابن سكرتير مقاطعة، أما الغريبة فهي زوجته.

***

بعد الليلة المؤرقة الثالثة أرسلت لها بطاقة بريدية. رأيتها اليوم تضرب حافة النافذة بقبضة يدها بعد أن قرأت الجريدة. أوه، أنتم أيها الكارافيلوفيون[2]، الموتكوروفيون[3]، الساليوسبيريون[4]، كمساري التذاكر في عربات سكك الخيل، وأنتم يا عمال مصانع السكر! لماذا أنا عاجز عن أن أجعلكم تدفعون ثمن المعاناة التي سببتموها لها؟

***

اليوم هو العاشر من أيلول، ألقى بي زوجها عن الدرج. أنا سعيد من أجلها، أنا مستعد لكل التضحيات!... أرجئ التفسير الحقيقي إلى الغد...

***

١- .أصغر وحدة في العملة الروسية .
٢- نسبة على رئيس وزراء بلغاريا المشار إليه .
٣- نسبة إلى الجنرال البلغاري موتكوروف المشار إليه .
٤- ساليوسبيري روبرت سيسيل. ١٨٣٠ – ١٩٠٣) سياسي إنجليزي.

الحادي عشر من أيلول. عندما آتيها اليوم، سأباغتها وهي خلف الجريدة. ما إن قلّبت جريدة أو جريدتين أو ثلاث، حتى وجدتها تسقط فجأة على الكرسي مولولة...

أناديها، مقبلا يدها

- عزيزتي، ماذا يقلقك؟ قاسميني أحزانك، وكوني واثقة من أنني سأكون قادرا على تقدير ثقتك! أرجوك أخبريني ما يبكيك الآن؟

تقول غريبتي:

- كيف لا أبكي؟ احكم بنفسك: اليوم علينا دفع أجرة الشقة، وزوجي البليد قدم للجريدة ستين سطراً فقط! هل يمكننا العيش هكذا؟ لقد كتب بالأمس بما يعادل(١١)أحد عشر روبلا و(٤٠) أربعين كوبيكا، أما اليوم فأنا لم أكد أقرأ ما يعادل ثلاثة روبلات! ألست تعيسة؟ لا، لا يمكن أن أتمنى لتترية شريرة أن تكون زوجة مراسل صحفي! إنه حقير! دنيء! وبدل أن يعمل لدى سافراسينكوف ها هو عاطل عن العمل! توقف، هل ستأتي أنت؟

***

قال شكسبير مرة: «أوه أيتها النسوة!»، وأنا أدرك، الآن، حالته الروحية.

شمبانيا

في ذلـك العـام، الذي بدأت فيه أحـداث قصتي، كـنت أعمـل مديرا لمحطة صغـيرة من محطات سـكة حديد الجنـوب الغربي. وبإمكانكـم تقدير ما إذا كنت سـعيدا أم تعسـا، إذا ما عرفتم أنه لم يكن يوجـد في المنطقة منزل واحـد حتى مسـافة عشـرين فرسـخا من المحطـة، أو امـرأة واحـدة، أو دكـان محترم. كنت شـابا قويا، حيويا، غريب الأطوار وأبله. كانت وسائل الترويح الوحيدة المتوفرة لدينا نوافذ عربات الركاب والفودكا المغشوشـة، التي كان اليهود يخلطونها بشـيء من المواد المخدرة. وإذا صادف وأن ظهر وراء إحدى نوافذ العربـات رأس أنثـوي، فإنك تقف متخشـبا، مقطوع النفس، وتظـل تحدّق بها حتى يختفي القطار عن الأنظار، أو تشـرب أكـبر قدر من الفودكا اللعينة، فتتحول إلى شـيطان، ولا تشعر كيف تمر السـاعات الطويلة والأيام. كان تأثير السهب عليّ، أنا ابن الشمال، مثل مقبرة تترية مهملة. في الصيـف كان يلقي عليّ حزناً مضجرا بسبب سكونه الطقسـي – صريف الحدادين متعدد النغمات، ضوء القمر الشفاف، الذي يفضحك في كل مكان، أما في الشتاء، فإن بياض السـهب النقـي، الباهر، وبرد مداه الشاسـع، ولياليـه الطويلة، وعواء الذئاب.. جميعها كانت تشكل كابوسا ثقيلا ينيخ عليّ بكلكله.

كان عدد من الأشـخاص يعيشـون في المحطة: أنا وزوجتي، وعامل البرق الأصـم، المصاب بداء الخنازير، وثلاثة حراس. مسـاعدي كان شـابا مسـلولا، يسـافر إلى المدينة لأشـهر متصلة للعـلاج، تاركا لـي مسـؤولياته، ومتخليا لـي عن حقه في الراتـب. لم يكن لدي أطفال. أما الضيوف فلا شـيء يغريهم للمجيء إلى هنا، ولا حتى الرغيف الساخن.

أما أنا فكان بمقدوري فقط أن أسـافر لأضيف بعض المسـتخدمين على طول خط سكة الحديد. حتى هذا لم يكن يحدث اكثر من مرة في الشهر. بشكل

عام، كانت الحياة في غاية السأم.

أذكر، أنني استقبلت العام الجديد مع زوجتي. جلسنا خلف المائدة، نمضغ الطعام بكسل، ونسمع نقر جارنا، عامل التلغراف الأصم، على جهازه في الغرفة المجاورة. كنت قد احتسيت خمسة أقداح من الفودكا المغشوشة، وألقيت رأسي على كتفي ورحت أفكر بالضجر القاتل، أما زوجتي فقد جلست قربي، ولم ترفع عينيها عن وجهي طيلة الجلسة. راحت تنظر إلّي كامرأة لا تملك شيئا في هذه الدنيا سوى زوجها الجميل. كانت تحبني بجنون وعبودية. لم تكن تحب جمالي وروحي وحسب، بل ورذائلي وغضبي وضجري، حتى قسوتي وأنا أعذبها بكثرة اللوم عندما أثمل ولا أدري على من أصب جام غضبي.

وبالرغم من الكآبة التي كانت تنهشني، فقد أعددنا أنفسنا لاستقبال العام الجديد بشيء من الاحتفاء غير العادي. انتظرنا انتصاف الليل بشيء من نفاد الصبر. المسألة أننا حصلنا على زجاجتين من الشمبانيا الأصلية، ماركة الأرملة كيلكو، لقد ربحت هذا الكنز في رهانٍ الخريف الماضي عند مدير المحطة أثناء حفلة تعميد. يحدث أحيانا، وأنت في درس الرياضيات، عندما يكون الهواء متجمدا من شدة الملل، أن تدخل فراشة من الساحة إلى الصف، فتتحرك الرؤوس الصامتة، لتتابع طيرانها بدرجة عالية من حب الاستطلاع، وهي في الحقيقة لا ترى فراشة، بل شيئا ما جديدا، غريبا، وكذلك هي الشمبانيا الاستثنائية، التي تظهر فجأة في محطتنا الصغيرة الكئيبة. جلسنا صامتين، ورحنا ننظر إلى الساعة تارة، وإلى الزجاجتين تارة أخرى. عندما أشارت عقارب الساعة إلى الثانية عشرة إلا خمس دقائق، رحت أفتح الزجاجة ببطء. ولا أدري فيما إذا كنت قد ارتخيت بفعل الفودكا، أم إن الزجاجة كانت رطبة بدرجة زائدة، لكني أتذكر فقط، أنه عندما طارت سدادة الزجاجة في فضاء الغرفة محدثة دويا قويا، انزلقت الزجاجة من بين يدي، وسقطت على الأرض، واندلق منها مقدار كأس، لكني تمكنت من التقاطها بسرعة واضعا إصبعي على

فوهتها الفوّارة. قلت وأنا أملأ كأسين بالشمبانيا:

هيه، كل عام وأنت بخير، كل عام وأنت سعيدة، فلنشرب!

تناولت زوجتي كأسها ورمتني بنظرات مرتعبة. شحب وجهها واكتسى بتعابير الخوف. سألت:

هل سقطت الزجاجة؟

نعم، سقطت، وماذا في ذلك؟

قالت وهي تضع كأسها، وقد ازدادت شحوبا:

هذه علامة سيئة. هذا يعني أن شيئا غير مرغوب فيه سيحدث لنا هذا العام.

أخذت نفسا عميقا وقلت:

أي امرأة أنت! امرأة ذكية، وتهذين مثل عجوز خرفة. اشربي.

إنني أدعو الله أن يكون هذا هذيانا، لكن... لا بد وأن يحدث شيء! وسترى!

لم تقرب الكأس من شفتيها، انتحت جانبا شاردة الذهن، وراحت تتمتم ببعض العبارات القديمة المتصلة بالمعتقدات الغيبية. أما أنا فقد شربت نصف الزجاجة، وذرعت الغرفة من زاوية لأخرى، ثم خرجت.

كان الليل الصقيعي الهادئ يطبق على الفناء وعلى جماله البارد الموحش. بدا القمر وسحابتان منفوشتان بيضاوان ساكنتان بالقرب من منه، ملتصقين بكبد السماء فوق المحطة نفسها في انتظار شيء ما. وقد تسلل من بين الغمامتين شعاع لطيف خفيف، كما لو كان حذرا من إهانة الخجل

نفسه، ومس الأرض البيضاء بحنان، منيرا كل شيء: ردمية سكة الحديد، والكثبان الثلجية...

أطبق السكون على المكان. تمشيت مع طول سكة الحديد. فكرت وأنا أنظر إلى السماء المليئة بالنجوم البرّاقة: «امرأة غبية. حتى لو سلّمنا جدلا بأن العلامات السيئة، التي تشير إليها، حقيقة، فماذا يمكن أن يحصل لنا؟ فالأشياء، غير المفرحة، التي عشناها، والتي نعيشها الآن، عظيمة لدرجة أنه يصعب أن يأتي أسوأ منها. أي سوء يمكن أن نسببه لسمكة اصطيدت وقليت وقُدّمت مع الصلصة على المائدة؟»

بدا شجر الحور العالي، المغطى بالندى الثلجي، في العتمة المزرقّة، ماردا يرتدي كفنا. كان الحور ينظر بقسوة وكآبة، كأنه قد أدرك وحدته مثلي تماما. تأملته طويلا، ثم واصلت تفكيري.

«لم يضع شبابي من أجل شيء تافه مثل شريحة من لحم الخنزير غير ذات حساب. توفي والدي وأنا طفل. طردت من المدرسة الداخلية. ورغم أنني أنتمي إلى عائلة نبيلة، لكنني لم أحصل على تربية أو تعليم، ولا يوجد لدي من المعرفة أكثر مما لدى عامل مشحمة. لم يكن لدي مأوى، أو أقارب، أو أصدقاء، أو عمل أحبه.لم تكن لدي مواهب، وعندما تفتح شبابي، لم أكن أصلح لشيء سوى أن يسد فمي بوظيفة مدير محطة صغيرة. لم أعرف في حياتي سوى الفشل والمصائب. فأي شيء يمكن أن يحدث أسوأ من ذلك؟»

بدت أنوار حمر تلمع في البعيد، أقبل قطار أيقظ بضوضائه السهب الغافية. كانت خواطري مريرة، لدرجة أنه هيء لي أنني كنت أفكر بصوت مرتفع، وأن رنين التلغراف وهدير القطار ينقلان أفكاري.

ساءلت نفسي: «أي سوء يمكن أن يحدث؟ ضياع الزوجة؟! حتى هذا لا يخيفني. لا يمكن التستر عمّا يجول في أعماقي: أنا لا أحب زوجتي! لقد تزوجتها صبيا، أما الآن فأنا شاب قوي في حين تجعد وجهها هي، هرمت،

وأصبحت بلهاء، وامتلأت بالخرافات من رأسها حتى أخمص قدمها. ما هو الشيء الحسَنُ في حبها الدبق، في صدرها الضامر، وفي نظراتها الذابلة؟ إنني أحتملها، لكني لا أحبها. ماذا يمكن أن يحدث؟ إن شبابي يضيع مثل استنشاق العطوس، كما يقال. أكاد لا ألمح نساء، سوى أولئك اللواتي يظهرن في نوافذ عربات القطار، مثل الشهب. لم يكن، ولا يوجد لدي حب. كل فحولتي تقتل، شجاعتي ورفقي.. يموتان. كل شيء يموت مثل القمامة. أما ثرواتي، في هذا السهب، فهي لا تعادل فلسا معدنيا واحدا».

مر القطار يهدر سريعا، وكشف عن نوافذه الحمراء بلا اكتراث. رأيته كيف توقف عند الأضواء الخضراء في المحطة. توقف دقيقة ثم واصل دحرجته. مشيت مسافة فرسخين، ثم عدت، ولم تفارقني الأفكار الحزينة. كم كانت مرارتي كبيرة، لكني أتذكر أنني تمنيت أن تكون أفكاري أكثر حزناً، وأكثر سوداوية. أتدرون، تمر لحظات بالأشخاص السخيفين الأنانيين، يمنحهم إدراكهم بأنهم حزانى شعورا بالمتعة، إلى درجة أنهم يستعرضون بمعاناتهم أمام أنفسهم. كثير من أفكاري كانت حقيقية، لكنها خرقاء، وفيها كثير من التبجح. إن شيئا صبيانيا ينبعث من تساؤلي: «ما الشيء السيء الذي يمكن أن يحدث؟».

«نعم، ماذا يمكن أن يحدث؟» سألت نفسي وأنا عائد: لقد مررت بكل الخطوب، مرضت، وأضعت أموالا، أتلقى إنذارات من الإدارة كل يوم، أجوع، واقتحم الذئب فناء المحطة.. ماذا بعد؟ أُهنت كثيرا، حُقّرت كثيرا... وأنا أهنت غيري بدوري. ولم يبق لي غير أن أصبح مجرما، لكني غير مؤهل لارتكاب جريمة على ما يبدو، رغم أني لا أخاف المحكمة»

الغمامتان ابتعدتا عن القمر، واستقرتا متجاورتين كما لو كانتا تتهامسان حول شيء ما لا تودّان أن يعرفه القمر. هب نسيم رقيق على السهب حاملا معه هديرا مكتوما منبعثا من القطار المغادر. استقبلتني زوجتي عند عتبة المنزل. ابتسمت عيناها بفرح، بل إن وجهها كله كان يشع بالسرور.

همست لي:

لدي مفاجأة! ادخل غرفتك وارتد سترتك الجديدة: عندنا ضيفة!

أية ضيفة؟

الخالة نتاليا بيتروفنا، وصلت للتو في القطار.

أية نتاليا بيتروفنا؟

زوجة العم سيمون فيدوروفيتش. أنت لا تعرفها، إنها طيبة جدا وحسناء.

من المحتمل أنني قطبت الجبين بسبب أن زوجتي أظهرت تعابير جادة على وجهها وهمست بسرعة:

غريب - طبعا - أنها جاءت. لكن أرجوك يا نيكولاي لا تغضب، ولا تنظر إليها باحتقار، فهي امرأة سيئة الحظ. فالعم سيمون فيدوروفيتش، في الحقيقة، مستبد وشرير يصعب العيش معه، تقول، إنها ستقيم عندنا ثلاثة أيام، حتى تتلقى رسالة من أخيها.

وهمست لي زوجتي كلاما فارغا كثيرا حول استبداد العم العجوز، والضعف الإنساني بشكل عام، وضعف النساء الفتيّات بشكل خاص، وحول واجباتنا في تقديم المأوى للجميع، حتى لكبار الخاطئين، وما شابه ذلك.. لم أفهم شيئا على التمام. ارتديت سترتي وذهبت للتعرف على«الخالة».

جلست خلف الطاولة امرأة فتية بعينين سوداوين واسعتين. وقد بدت أشياء المنزل أكثر شبابا وفرحا بحضور ذلك الكائن الجديد الشاب، بعطره العجيب، الكائن الجميل الفاجر..

أما أن الضيفة كانت فاجرة، فقد أدركته من الابتسامة، ومن الرائحة، ومن النظرات الخاصة، واللعب بالرموش، ومن نبرة صوتها وهي تتحدث مع زوجتي – المرأة المحتشمة - لم تكن محتاجة لأن تحدثني عن هربها من عند زوجها، وأن زوجها عجوز ومستبد، وأنها طيبة ومرحة. لقد فهمت كل ذلك من

النظـرة الأولى، نعم، فأنت تكاد لا تجد في أوروبا رجالا لا يسـتطيعون تمييز المرأة ذات المزاج الخاص من النظرة الأولى.

قالت الخالة مبتسمة ومقدمة يدها للمصافحة:

أما أنا فلم أكن أعرف أن لدي«ابن أخت» عظيم!

قلت:

وأنا لم أكن أعرف أن لدي«خالة» حسناء.

بدأ العشاء من جديد. طارت سدادة الزجاجة الثانية محدثة دويا، وكرعت الخالة نصف الكأس دفعة واحـدة. وعندما خرجت زوجتي لغرض ما للحظات، لم تنتظر الخالة إجراءً طقسـيا، وكرعت كأسا كاملة. وسكرت أنا أيضا، من النبيذ ومن وجود المرأة. هل تذكرون الأغنية:

العيون السود،

العيون الغريبة،

العيون الرائعة اللاهبة

كم أحبك أنا،

كم أخافك أنا.

لا أذكر ماذا حدث بعـد ذلك. على من يرغب بمعرفة كيف تبدأ قصص الغرام، أن يقرأ القصص والروايات، أما أنا فأود أن أقول لكم شيئا وبكلمات الأغنية السخيفة نفسها:

أعرف أني قد رأيتك،

في ساعة غير حميدة.

كل شـيء طار رأسـا على عقب إلى الشيطان. أتذكر فقط أن إعصارا شـديدا طوقني مثل ريشـة طائر صغير، حوّم طويلا وكنـس عن وجه الأرض

زوجتي، و«الخالة»، وقوتي، وألقى بي خارج المحطة السهبية إلى هذا الشارع المعتم، كما ترون.

والآن أخبروني

ما هو الشيء السيء الذي يمكن أن يحدث لي؟

١٨٨٦م

وجع أسنان

أصيب هاوي الفنون المسرحية سيرجي الكسييتش ديبكين بألم في الأسنان.

وباعتقاد السيدات صاحبات التجارب وأطباء الأسنان المسكوبيين[1]، فإن ألم الأسنان يكون على ثلاثة أنواع: ألم التهاب، وألم عصب، وألم نخر، لكن مجرد أن تنظروا إلى هيئة البائس ديبكين، سيبدوا واضحا تماما أن ألمه لا يشبه أيا من تلك الأنواع. وعلى ما يبدو، فالشيطان نفسه أقام مع صغار في سنّه مشتغلا بأظافره وأسنانه وقرونه. إن رأس المسكين تكاد تنفجر، والألم يخرق أذنيه، ويُنبِت الشجر في عينيه، ويُنشِب أظافره بأنفه.

يقبض الرجل على خده الأيمن بكلتا يديه، يركض من طرف إلى آخر في الغرفة. جائرا بالأنين، ثم يصرخ ضاربا الأرض بقدميه:

- ساعدوني! سأطلق النار على نفسي، ليأخذني الشيطان! سأشنق نفسي.

الطباخة تنصحه بالمضمضة بالفودكا، أمه العجوز – تضع على خده فجلا مبروشا مخلوطا بالكاز. الأخت تصف له الكالونيا مع الحبر، عمته دلكت له لثته باليود... لكنه أصبح ينضح بروائح الأدوية بسبب كل تلك الوصفات، وأصيب بالخبل، وصار يجأر بصوت عال. تبقى واسطة واحدة وحيدة غير مجربة – إطلاق رصاصتين على الجبين، أو جرع ثلاث زجاجات من الكونياك دفعة واحدة، سيشدَه ويستسلم منهارا للنوم... لكن يظهر، أخيرا، الشخص الذكي الذي سينصح ديبكين بالذهاب إلى جادة تفيرسكايا، إلى بناية زاغفوزدكين، حيث يعيش طبيب الأسنان كاركمان، الذي يقلع الأسنان

١- نسبة إلى موسكو عاصمة روسيا.

بلمح البصر، دون ألم، وبأجر رخيص. التقط ديبكين الفكرة، ومثل تاجر سكران خلف الدرابزين، يرتدي المعطف، وينطلق بالعربة إلى العنوان المحدد. هذا هو شارع سادوفايا، وهذه جادة تفيرسكايا.. ها هي محلات سيو، وفيليبوف، وآيي، وغاباي تلمع بالأضواء. وهذه أخيرا يافطة: «طبيب الأسنان يا. أ. كاركمان». قف! يقفز ديبكين من العربة، ويثب إلى الأعلى عبر الدرج الحجري دون أن ينفك عن التأوه. يضغط على زر الجرس بعنف لدرجة انه كسر أظفره الجميل.

يسأل البواب:

- هل المجال مفتوح للاستقبال لديكم؟

- تفضل...

- أوف!، انزع المعطف عني! أسرع!

دقيقة أخرى، وسينفجر رأس المسكين من الألم نهائيا. ويندفع إلى صالة الاستقبال مثل مجنون، أو بالأحرى مثل زوج دلقت عليه زوجته الغبية ماء مغلياً. أوه، شيء فضيع! القاعة تغصُّ بالخلق. يركض ديبكين باتجاه باب المكتب، لكنهم يشدّونه من طرف جاكيته قائلين، إن عليه أن ينتظر الدور.

رأسه تغلي، تفور بالغضب.

- لكني أعاني! فليأخذكم الشيطان، إني أمر بلحظات مرعبة!

يقولون له بلا اكتراث:

- وماذا يعني! نحن أيضا لسنا بأفضل حال.

يسقط ديبكين على الكنبة من الإعياء، يمسك بكلا خديه وينتظر. وبدا وجهه كأنه غُسل بالخل، وظهرت الدموع في عينيه...

وراح يتأوه:

- هذا فظيع! آخ، إنني أـ موـ ت!

تنهدت المرأة التي تجلس إلى جانبه:

- يا للشاب المسكين! إنني لست أقل منك معاناة: لقد طردني أبنائي من منزلي الخاص!

لا افتتاحية صحيفة في شأن مالي، ولا مسرحية ذات هدف خيري، يمكن أن تكون بمثل الملل المقزِّز، الذي يمثِّله الانتظار في قاعة الانتظار.

تمر ساعة من الزمن، وساعة أخرى، وثالثة، والمسكين ديبكين ما زال ينتظر على الكنبة ويئن. الأهل في البيت كانوا قد تناولوا غداءهم، وقريبا سيجلسون في جلسة المساء لاحتساء الشاي. أما هو فما زال ينتظر. السن يصبح مع مرور الدقائق أكثر شراسة...

لكن ها هو العذاب الأبدي يمر، و يحل دور ديبكين. ينزع نفسه من الكنبة ويطير إلى المكتب. يلقي نفسه على الكنبة في المكتب و يجأر فاغرا فاه:

- من أجل الرب! أرجوك!

سأله صاحب المكتب الأشقر، طويل القامة، ذو النظارات فوق أنفه.

- ماذا يا سيدي؟ ما خطبك؟

قال ديبكين لاهثا.

- اقلع! اقلع! استأصله!

- أقلع ماذا؟

- يا إلهي! السن.

ضم الأشقر طويل القامة كتفيه:

- غريب! لا وقت لدي أيها السيد للمزاح. أرجوك قل لي ماذا تريد؟

فتح ديبكين فمه على اتساعه مثل سمكة القرش، وقال وهو يئن:

- اقلع، اقلع! من يحتضر لا وقت لديه للمزاح! اقلع، من أجل الرب!

- أها. إذا كانت أسنانك تؤلمك فعليك التوجه إلى طبيب الأسنان.

ينهض ديبكين، وينظر إلى الرجل الأشقر فاغرا فاه. تابع الرجل الأشقر طويل القامة حديثه:

- نعم، أنا محام. إذا كنت تريد طبيب الأسنان، فتوجه إلى كاركمان. إن عيادته في الطابق الذي تحتنا مباشرة...

قال ديبكين دهشا:

- الطابق الأس – فل؟ فليأخذني الشيطان! آخ، أنا حيوان! آخ، أنا حقير!

صدقوني، أنه بعد هذه المفاجأة لا يبقى لدى ديبكين سوى خيار واحد: إما أن يطلق رصاصة على الجبين، وإذا لم يتوفر مسدس تحت الطلب، فعليه أن يشرب ثلاث زجاجات من الكونياك.

مسمار في الحائط

كانت مجموعة من زملاء القيد المدني وسكريتاريا الإدارة المحلية يسيرون متثاقلين على ضفاف نهر النيفا بعد انتهاء العمل. دعاهم السيد ستروتشكوف سعيداً إلى عيد الاسم. قال بصوت عالٍ بما يشبه الحلم:

والآن، سوف نأكل حتى التخمة، أيها الأخوة. يا لها من متعة! زوجتي أعدّت فطائر. لقد هدّني التعب، بالأمس، وأنا أبحث لها عن طحين. يوجد لدينا كونياك... ماركة فورونتسوف... لا بد أن تكون زوجتي قد ملّت الانتظار الآن.

كان ستروتشكوف يعيش في مكان بعيد. ساروا، وساروا، حتى وصلوا بيته أخيراً. ولجوا إلى مدخل البيت. أحست الأنوف برائحة الفطائر والإوزة المشويّة. سأل ستروتشكوف ضاحكاً من فرط سعادته:

هل شممتم؟ اخلعوا معاطفكم، أيها السادة! ضعوا فراءكم فوق الصندوق! لكن، أين كاتيا؟ هيه، كاتيا! لقد لملمت كلّ هذا الحشد! اقتربي يا أكولينا وساعدي السادة على نزع معاطفهم!

سأل أحد الأصدقاء، مشيراً إلى الحائط.

ما هذا؟

كان هناك مسمار كبير يظهر بارزاً في الجدار، وقد عُلّقت عليه قبعة «كاب» عسكرية جديدة لها حواف وشارة لامعة. راح الموظفون ينظر بعضهم في وجوه بعضهم الآخر، وقد شحبت وجوههم، وراحوا يتهامسون:

هذه قبعته! إنه... هنا؟!

قال ستروتشكوف مدمدماً:

نعم، إنه هنا، عند كاتيا... لنخرج أيها السادة! لنجلس في أي حانة، ولننتظر حتى يخرج.

أعاد فريق الأصدقاء تزرير معاطفهم، ثم خرجوا يتهادون في مشيهم إلى الحانة. قال مساعد أمين المخطوطات بودّ:

كان يفوح لديك الإوز المشوي؛ لأن «الإوز» جالس عندك! لقد جاءت به الشياطين! هل سيغادر عما قريب؟

عمّا قريب! إنه لا يمكث عادة أكثر من ساعتين. لكَم أرغب بالطعام! بداية سنشرب الفودكا ونأكل مازة سمك الإسبرط... ثمّ نعيد الكرّة، أيها الأخوة... بعد الثانية، سنتناول الفطائر مباشرة. بخلاف ذلك، فسوف نفقد الشهيّة... زوجتي تصنع فطائر جيدة. وسيكون هناك حساء الملفوف...

وهل اشتريت الساردين؟

نعم، اشتريت علبتين. وأربعة أنواع من النقانق... لا بدّ أن تكون زوجتي قد جاعت... لقد انهارت قواي، اللعنة!

أمضوا ساعة ونصف الساعة في الحانة، شرب كل منهم كوباً من الشاي عن العين، ثم ذهبوا مجدداً إلى بيت ستروتشكوف. ولجوا إلى مدخل البيت. كانت الروائح تفوح بشدة أكثر من السابق. رأى الموظفون عبر باب المطبخ نصف المفتوح إوزةً وصحناً مليئاً بمخلل الخيار. كانت أكولينا تُخرج شيئاً ما من الفرن.

مرة ثانية، نحن لسنا محظوظين، أيها الأخوة!

ما الأمر؟

كانت مِعَدُ الموظفين تنقبض من شدَّة الجوع، وكانت قبعة فرو السِنسار معلقة على المسمار اللعين. قال ستروتشكوف:

إن هذه قبعة بروكاتيلوف! لننتظر من جديد، أيها السادة! في مكان ما... إنه لا يمكث طويلا...

سُمع صوت أجش وعال من داخل صالة الضيافة:

ولدى هذا الشنيع مثل هذه الزوجة الرائعة!

قال صوت نسائي مؤيداً:

تُعطى اللحمة لمن لا أسنان له، يا صاحب السعادة!

قال ستروتشكوف بصوت ضعيف:

لنخرج!

ذهبوا مرة أخرى إلى الحانة. طلبوا جعّة. راح فريق الأصدقاء يواسون ستروتشكوف:

إن بروكاتيلوف- قوة! سوف يمكث ساعة عند زوجتك... لكن، مقابل ذلك ستحصل على عشر سنوات من السعادة. يا لِحظّك، أيها الأخ! لماذا تغضب؟ لا داعي للغضب.

إنّني أعرف أنه لا داعٍ للغضب، حتى من دون أن تتكلموا؛ لكن، القضية ليست هنا! فما يزعجني هو أنني جعت، وأريد أن آكل!

عاد الأصدقاء بعد ساعة ونصف الساعة عند ستروتشكوف. كانت قبعة فراء السِنسار ما زالت معلقة على المسمار. وكان عليهم أن يعودوا القهقرى.

لم يُصبح المسـمار خالياً من أي قبعة، إلا عند الساعة الثامنة مساء، وكان بالإمكان الجلوس لتناول الفطائر! الفطائر كانت قد جفت، والحساء كان قد برد، والإوزة احترقت - لقد أفسد منصب ستروتشكوف كل شيء! أكلوا، على أي حال، بشهية.

كائن ضعيف

رغم هجمة النقرس[1] ليلاً، وصريف الأعصاب إثرها، إلا أن كيستونوف توجّه إلى العمل، وبدأ باستقبال عملاء البنك فور وصوله. وقد بدا كئيبا، معذَّبا، لا يقوى على الكلام، متنفِساً بصعوبة كما لو كان ينازع الموت.

سأل إحدى المراجعات، وقد كانت ترتدي معطف سالوب[2] يعود إلى فترة ما قبل الطوفان، وتشبه خنفساء الروث الكبيرة:

- ما حاجتك؟

- من فضلك، يا صاحب المعالي، إن زوجي موظف الدرجة الرابعة عشرة[3] شوكين مرض لمدة خمسة شهور، وبينما هو طريح الفراش يتلقى العلاج، أحالوه على التقاعد دونما سبب، يا صاحب المعالي، وعندما ذهبت لأستلم راتبه، كانوا قد خصموا منه ٢٤ روبلا و٣٦ كوبيكا! سألت: لأي سبب؟ قالوا: «لقد استلف من صندوق الأسرة، وقد كفله رفاقه». كيف هذا؟ هل كان بإمكانه أن يستلف من دون إذني؟ هذا غير ممكن، يا صاحب المعالي. لماذا يحدث هذا؟ إنني امرأة فقيرة، أعيش من المستأجرين... أنا ضعيفة، ومستضعفة... أتحمّل إهانات الجميع، ولا أسمع من أحد كلمة طيبة...

رمشت المستعطفة بجفنيها، ثم مدت يدها في جيب المعطف بحثا عن منديل. استأذن منها كيستونوف، وراح يقرأ. رفع كتفيه وقال:

١ـ مرض يصيب المفاصل بسبب زيادة نسبة البروتين في الجسم.
٢ـ معطف قديم الطراز يتميز بسعة الكُمين.
٣ـ من أدنى الدرجات الوظيفية في روسيا القيصرية.

- المعـذرة، كـيـف ذلـك؟ إنني لا أفهم شـيـئا. مـن الواضح، أنـك، أيتها السـيدة، أتيت إلى العنوان الخطأ. إن طلبك، من حيث الجوهر، لا يمت لنا بصلة. حاولي أن تتوجهي إلى الدائرة التي خدم بها زوجك.

قالت شوكينا:

- إيه، يا سـيدي! لقد مررت على خمسـة أماكن، وما تسـلَّم أحد مني اسـتدعاءً في أي منها. كدت أفقد عقلي، الشـكر، كل الشكر، لصهـري بوريـس ماتفيتـش – أدعـو اللّه أن يمنحـه الصحـة – الذي نصحني بالمجيء إليك. قال«اذهبي، يا أماه، إلى السـيد كيستونوف: إنه شـخص ذو نفوذ، إنه قادر على القيام بكل شـيء من أجلك»... أرجوك ساعدني، يا صاحب المعالي!

- نحن لا نستطيع فعل شـيء من أجلك، يا سـيدة شوكينا،... أرجوك أن تفهمـي: إن زوجـك كان يخدم، كمـا فهمـت، في دائرة طبية عسكرية، في حين إن مؤسستنا مدنية خالصة، وخاصة، وتجارية، إنها بنك. كيف لا تفهمين هذا؟

رفع كيسـتونوف كتفيـه مجددا، والتفت نحو رجل بلباس عسـكري ولديه خرَّاج في خده. رّدت شوكينا بصوت مستعطف يشبه الغناء:

- لـدي، يا صاحب المعالي، تقارير طبيـة تفيد أن زوجي كان مريضا، ها هي، تفضل وانظر.

قال كيستونوف بصوت متهدج:

- رائـع جدا، إنني أُصدقـك، لكني أكرر، إن هذا لا يتصـل بعملنا. يا لـه من أمر غريب ومضحك! من غير المعقول أن لا يعرف زوجك إلى أين

عليك أن تتوجَّهي؟

- إنه، يا صاحب المعالي، لا يعرف شيئا. نطق بعبارة واحدة، فقط: «إن هذا ليس من شأنك. اغربي عن وجهي». هذا كلُّ شيء عنه.. شأن من هذا، إذا؟ إنهم متعلقون برقبتي. برقبتي أنا.

استدار كيستونوف مرة أخرى نحو السيدة شوكينا، وراح يشرح لها الفرق بين الدائرة الطبية العسكرية والبنك الخاص. أما هي فقد استمعت له بكل انتباه، وكانت تهز رأسها دلالة فهمها لما يقوله، ثم قالت:

- هكذا إذا! الآن فهمت، يا سيدي. في هذه الحالة، أوعز من فضلك، يا صاحب المعالي، كي يعطوني ٢٥ روبلا. إنني موافقة على أن لا تكون كلها دفعة واحدة.

تنهّد كيستونوف، ملقيا رأسه إلى الخلف، وقال:

- أووف! إنك لا تستوعبين شيئا. افهمي، إن الحضور إلينا بمثل هذه الطلبات غريب، مثل التقدم بطلب الطلاق إلى صيدلية أو إلى مصلحة الأختام. إنهم لم يدفعوا لك، لكن ما شأننا نحن.

بكت شوكينا:

- اجعلني أصلي للرب، يا صاحب المعالي، أبد الدهر، من أجلك، أشفق علي أنا اليتيمة. أنا امرأة ضعيفة، مستضعفة... تعذبت حتى الموت... أتوسط من أجل زوجي، وأتقاضى مع المستأجرين، وأركض هنا وهناك لأدبِّر أمري، وأصوم أيضا، وصهري بلا مكان؟... الخير الوحيد في هذه الدنيا، هو أنني آكل وأشرب، في حين تكاد قدماي تنهاران... إنني لم أنم طول الليل.

شعر كيستونوف بخفقان في قلبه. أظهر تعابير معاناة على وجهه، ثم راح يشرح مجددا لشوكينا، ضاغطا بيده على صدره، لكن صوته كان يتقطع... قال ملوحاً بيده:

- لا، لا أستطيع الحديث معك. حتى إن رأسي أصيبت بالدوار. إنك تعيقيننا، وتضيعين الوقت عبثا. أووف!

ثم توجه إلى أحد الموظفين قائلا:

- اليكسي نيكولايتش اشرح، من فضلك، للسيدة شوكينا!

تجاوز كيستونوف جميع المراجعين، وتوجه إلى مكتبه، وأمضى هناك على عشرات الأوراق، أما اليكسي نيكولايتش فقد انشغل مع شوكينا. وظل كيستونوف يسمع لمدة طويلة صوت اليكسي نيكولايتش الجهوري وصوت شوكينا الباكي، الذي يشبه الزعيق... كانت تقول:

- أنا امرأة ضعيفة، مستضعفة، ومريضة أيضا. قد أبدو في الظاهر امرأة قوية، لكن من أين لأحد أن يعرف أنه لا توجد في جسمي عضلة واحدة سليمة. إنني أكاد لا أقف على قدمي، فاقدة الشَّهية.. شربت اليوم قهوة، لكن دون أن أشعر بلذتها.

أما اليكسي نيكولايتش، فقد راح يشرح الفرق بين الدوائر، والنظام المعقد في تحويل المعاملات. وسرعان ما أصيب بالإعياء، فحل مكانه المحاسب. همس كيستونوف غاضبا، وهو ينقر على المكتب بأصابعه بعصبية، مقتربا من دورق الماء:

- إنها امرأة قذرة بشكل مدهش، وبلهاء، وبليدة! أوف... إن قلبي يخفق!

رن الجرس بعد نصف ساعة. ظهر اليكسي نيكولايتش. سأله كيستونوف مستفسراً:

- ما بك؟

- إنني لم أفلح معها، يا بيتر اليكسندريتش. لقد عذبتني. أنا أتكلم في الشرق وهي تتكلم في الغرب...

- إنني لن أحتمل سماع صوتها من جديد.. لقد مرضت.. لن أحتمل..

- يمكن استدعاء الخادم، يا بيتر اليكسندريتش، ودَعْه يخرجها.

- قال كيستونوف خائفا:

- لا، لا! سترفع عقيرتها بالصراخ. يوجد في البناية سكان كثر، الشيطان وحده يعلم ماذا يمكن أن يفكِّروا حولنا... حاولْ أن تشرح لها كيفما كان.

بعد دقيقة سُمع هدير اليكسي نيكولايتش. مرَّ ربع ساعة، وحل محل صوته الجهوري صوت المحاسب الحاد في عملية تبادل لطبقات الصوت. قال كيستونوف غاضبا، هازاً كتفيه بعصبية:

- إنها امرأة حقيرة بامتياز! إنها غبية مثل حصان مخصي، ليأخذها الشيطان! يهيأ لي أن نوبة النقرس هجمت علي... وصداع الشقيقة أيضا...

في المكتب المجاور، راح اليكسي نيكولايتش ينقر بأصابعه، منهار القوى، بداية على الطاولة، ثم على جبهته. قال موجها الكلام للمرأة:

- إن ما على كتفيك ليس رأسا، بل...

قالت المرأة العجوز مكسوفة:

- لا بأس، لا بأس. انقر لزوجتك... يا جلد التمساح! لا تلوّح كثيرا بيديك.

قال اليكسي نيكولايتش بصوت هادئ مخنوق، ناظرا إليها بغضب وحنق، متمنيا لو يبتلعها:

- اخرجي من هنا!

زعقت شوكينا فجأة، وقالت :

- ماذا؟ كيف تتجرأ؟ إنني امرأة ضعيفة، مستضعفة، إنني لا أسمح لك! إن زوجي موظف من الدرجة الرابعة عشرة! أي جلد تمساح أنت! سوف أذهب إلى المحامي دميتري كارليتش، سوف أُفقدُك منصبك! لقد سلّفت ثلاثة مستأجرين، أما أنت، فسوف ترتمي عند قدمي بسبب كلماتك الوقحة! سوف أصل إلى جنرالكم[1]! يا صاحب المعالي! يا صاحب المعالي!

همس اليكسي نيكولايتش:

- اخرجي من هنا، أيتها الأفعى السامة!

شق كيستونوف الباب قليلا، وقال بصوت يشبه البكاء:

- ما الأمر؟

كانت شوكينا محمرّة الوجه مثل سرطان البحر، تقف وسط الغرفة، تفرقع بأصابعها في الهواء مقلبة عينيها. أما الموظفون فقد اصطفوا على كلا الجانبين، وقد احمرت وجوههم أيضا، وراحوا يتبادلون النظرات، وقد ظهر عليهم القلق والعذاب. انقضت شوكينا على كيستونوف قائلة:

- يا صاحب المعالي! إن ذاك، ما اسمه... (وأشارت بإصبعها إلى اليكسي نيكولايتش) راح ينقر على جبهته بإصبعه، ثم على الطاولة... لقد طلبت منه أن يحل لي مشكلتي، لكنه يسخر مني! أنا امرأة ضعيفة، مستضعفة... زوجي موظف من الدرجة الرابعة عشرة، أما أنا فابنة رائد!

أطلق كيستونوف أنينا، وقال:

- حسنا، أيتها السيدة، سوف أتصرف.. سوف أتَّخذ إجراءاتي... انصرفي... الآن!

---

١ ـ المقصود مسؤولهم الأول.

- ومتى أستلم، يا صاحب المعالي؟ إنني بحاجة إلى النقود حالا!

- مرّر كيستونوف يده المرتجفة على جبينه، وأخذ نفسا عميقا، وراح يشرح مجددا:

- لقد قلت لك، أيتها السيدة. هنا يوجد بنك، مؤسسة خاصة، تجارية... ماذا تريدين منا؟ أرجو أن تفهمي للمرة الأخيرة، إنك هنا تعيقين عملنا...

- استمعت له شوكينا حتى النهاية، ثم تنهّدت، وقالت موافقة:

- هكذا!.. إنني أرجوك، إذا، يا صاحب المعالي، أن تعمل معروفا، ودعني أدعو لك اللّه مدى الحياة، كن أباً حنونا، احمني، دافع عني. إذا لم تكفِ الشهادة الطبية، أستطيع أن أقدم لك شهادة من القطاع الذي خدم به... أصدر أوامرك كي يعطوني النقود!

غامت عينا كيستونوف. أصدر زفيرا، مخرجا كل الهواء الذي في صدره، ثم انهار على الكرسي منهكا. سأل المرأة بصوت ضعيف:

- كم تريدين؟

- ٢٤ روبلا و٣٦ كوبيكا.

أخرج كيستونوف المحفظة من جيبه، ثم سحب منها ورقة من فئة الخمسة وعشرين روبلا، وناولها لشوكينا.

- خذي و... انصرفي!

لفت شوكينا النقود بالمنديل، ثم أخفته، ووجهت، بعد ذلك، سؤالا، ناشرة ابتسامة حلوة، رقيقة، لعوبا:

- ألا يمكن لزوجي، يا صاحب المعالي، أن يعود إلى وظيفته مرة أخرى؟

قال كيستونوف بصوت فاتر:

- أريد أن أخرج.. إنني مريض. لدى خفقان رهيب في القلب.

وأثناء غيابه، أرسل اليكسي نيكولايتش نيكيتا من أجل إحضار قطرة الغار والعناب، وبعد أن تناول كل منهم عشرين قطرة، انخرطوا في العمل، أما شوكينا فقد جلست بعد ذلك ساعتين إضافيتين في الردهة، وراحت تتحدث مع الخادم، منتظرة متى يعود كيستونوف.

وقد عادت في اليوم التالي.

الوسام

عـاش موظـف التسـجيل، ليـف بوسـتياكوف[1] المـدرِّس في المدرسـة العسـكرية مع رفيقـه الملازم ليدينتسـوف. قال بوسـتياكوف لصديقه في صبيحة العام الجديد، بعد أن ألقى تحية العام الجديد المعتادة:

- لـدي أمر، يا غريشـا[2]، وأنا محرج منك. لم أكن لأرغب في أن أُسـبِّبَ لـك القلـق، لولا حاجـتي المُلحّة. أريدك أن تعيرني وسـام ستانسـلاف خاصتك لهـذا اليوم. فأنا، كما ترى، مدعوٌ لتنـاول طعام الغداء عند التاجـر سبيتشـكين. وأنـت تعرف هـذا الحقير شبيتشـكين: إنه يُبجِّـل الأوسمة بشـكل فضيـع، وهو يـكاد يعتـبر كلَّ من لا تتأرجـحُ الأوسمـةُ علـى رقبته أو صدره سـافلاً. في حـين يوجد لديه ابنتان.. ناسـتيا، كما تعرف، وزينا. إنـني أُحدِّثُك بصفتك صديقاً، أنت تفهمني، أيها العزيز. أعرني إياه، اعمل معروفا!

لقد تحـدث بوسـتياكوف بكل هـذه الأشـياء متلعثماً، محمـرَّ الوجه وناظراً إلى الباب بتهيب.

انطلق في السـاعة الثانية مسـتقلاً عربة إلى عائلة شبيتشـكين، فتح معطـف الفـراء الذي كان يرتديه قليـلا، وراح ينظر إلى صدره. كان وسـام ستانيسـلاف المسـتعار يلمع بالذهب والطلاء. فكر المدرِّس بصوت مسـموع:

١ـ معانا بالسخرية اشتق الكاتب الاسم من كلمة بوستياك – أي الفارغ، السخيف. علما أن الروس يتخاطبون بشكل رسمي باسم الشخص وأبيه، أما أسلوب المخاطبة بين الأصدقاء فيتم بالاسم الأول، أو تصغيره.

٢ـ هو اسم صديقه، وهو تصغير لاسم غريغوري للتحبب.

«إنك لتشعرُ باحترام أكبر تجاه نفسك! أي نجاح يُثيره هذا الشيء الصغير، الذي لا يتجاوز سعرُه خمسة روبلات!».

ما أن اقترب من منزل سبيتشكين، حتى فتح معطف الفراء، وراح يحاسب الحوذي مبطئا. وكما هو متوقَّعُ، فقد تجمد الحوذي في مكانه، عندما رأى الكتَّافيَّة، وأزرار المعطف، ووسام ستانيسلاف. أصدر بوستياكوف سَعلات مقصودة قبل أن يدخل البيت. خلع معطف الفراء في الردهة الأمامية للبيت، ثم ألقى نظرة إلى داخل الصالة. كان يجلس على مائدة الغداء خمسة عشر شخصا يتناولون غداءهم. وكان حديثُهم، ورنينُ أواني الطعام مسموعين. قال المضيف:

- من يقرع الجرس هناك؟ أوه، ليف نيكولايفيتش! أرجو المعذرة. لقد تأخرتَ قليلا. لكن، لا بأس، فهذا ليس بالمصيبة، لقد جلسنا للتو.

دفع بوستياكوف صدره إلى الأمام، ورفع رأسه، ثم دخل إلى القاعة فاركا يديه ببعضهما. لكنه رأى هناك شيئاً مخيفا. كان رفيقُه بالخدمة العسكرية، مدرِّسُ اللغة الفرنسية ترامبليان، يجلس هناك إلى جانب زينا. إن عرض الوسام على مدرس الفرنسية، كان يعني خزياً وعاراً أبديين. كانت أول فكرة تخطر على بال بوستياكوف هي نزع الوسام، أو التراجع إلى الخلف: لكنَّ الوسام كان مثبتاً بشكل قوي، وكان التراجع أمراً مستحيلا. غطى الوسام بيده اليمنى بسرعة، وانحنى مؤدِّيا تحيةً للجميع بشكل أخرق، دون أن يصافح أحدا، ثم هبط جالسا بصعوبة على كرسي فارغ مقابل رفيق الخدمة – مدرس الفرنسية.

فكَّر سبيتشكين عندما رأى وجه الضيف الخجل المرتبك «يبدو أنه ثمل!»

وضعوا أمام بوستياكوف طبقَ حساء. تناول الملعقة بيده اليسرى، ثم تذكَّر، أنه من غير اللائق تناول الطعام باليد اليسرى أمام مجتمع راقٍ ومحترم، لذلك أعلنَ أنه قد تناول غداءَه للتو، ولا يرغب بالطعام. وقال متلجلجا بالكلام:

- لقد تغدَّيت... ميرسي... كنت في زيارة عند عمي القمُص[1] يلييف، وقد ألحَّ علي بالغداء.

امتلأت روح بوستياكوف بشوق معذب وضجر قاتل: كان الحساء يُصدر رائحة ذكية، ومن سمك الزجر المشوي كان ينبعث دخانٌ شهيٌ غير عادي. جرَّب المدرِّس أن يحرِّر يده اليمنى أن يغطي الوسام باليد اليسرى، لكنه اتضح أن ذلك لن يكون مريحا!

«سوف يلاحظون... ستمتد يدي عبر صدري، وسأبدو كما لو أنني أستعدُّ للغناء. يا إلهي! ليتهم يُنهون طعامهم بسرعة! لأذهب وأتناول غدائي في الحانة».

بعد الطبق الثالث نظر بعين واحدةٍ نحو مدرِّس الفرنسية متهيباً. ولسبب ما كان ترامبليان ينظرُ إليه أيضاً بارتباك، ولم يتناول شيئاً بدوره. لقد ازداد ارتباكهما وهما يتبادلان النظرات، إلى أن أنزلا نظراتهما إلى الأطباق الفارغة التي أمامهما.

فكر بوستياكوف «لقد لاحظ السافل الوسام! لقد ظهر ذلك في تعابير وجهه. إنه سافل، واشٍ. سوف ينقل الخبر غدا إلى المدير!».

التهم المضيفون والضيوف الطبقَ الرابع من الطعام بهمة عالية. ثم أتبعوه بالخامس...

نهض سيدٌ طويلُ القامة ذو أنف محدودب، فتحتاه واسعتان مليئتان بالشعر، وعينين ضيقتين بطبيعتهما. مسح على رأسه وأعلن:

- أقـ أقـ.. أقترح أن نشرب بصحة السيدات الجالسات معنا.

نهض الضيوف محدِثين جلبة، ومتناولين كؤوسهم. وانتشرت صرخة «هورا» العالية في كل الغرف. ابتسمت النسوة رافعاتٍ كؤوسهن. نهض بوستياكوف متناولا كأسه بيده اليسرى.

---

١ ـ رتبة كنسية عالية في الكنيسة الأرثوذكسية.

توجه رجل إلى بوستياكوف، ناوله كأساً، وقال:

- أرجوك، يا ليف نيكولايفيتش، حاول أن توصل هذه الكأس إلى ناستاسيا تيموفيفنا، واجعلها تشرب.

هذه المرة، كان بوستياكوف مضطراً (ويا للهول!) إلى أن يستخدم يده اليمنى. لقد أُتيح، أخيرا، لوسام ستانيسلاف، المثبت بالشريط الأحمر أن يُصدِر لمعانَه بفعل النور. شحب لونُ المدرِّس، الذي ألقى برأسه إلى الأسفل، ناظرا ناحية مدرِّس الفرنسية بكلّ خجلٍ. تطلّع إليه الآخرُ بعينين مندهشتين متسائلتين. وافترَّتْ شفتاه عن ابتسامة خبيثة، وانزاح عن وجهه الحرج..

توجه المضيف إلى مدرِّس الفرنسية قائلا:

- أوصل، يا يولي أفغوستوفيتش الزجاجة لمن يرغب!

مد ترامبليان يده اليمنى بتردد نحو الزجاجة و..يا للسعادة! رأى بوستياكوف وساما على صدره. لم يكن وسام ستانيسلاف، بل وسام آنّا[1] بأكمله! يعني أن مدرِّس الفرنسية كان ينصِبُ، أيضا. ضحك بوستياكوف من فرط السعادة، واسترخى، أخيرا، بجلسته على الكرسي.. لم يعد بعد الآن بحاجة إلى إخفاء وسام ستانيسلاف! كلاهما اقترفا نفس الذنب، ولا أحد يستطيع أن يشي بالآخر، أو أن يصمه بالعار...

تمتم سبيتشكين عندما رأى الوسام على صدر مدرِّس الفرنسية: أوه!

قال بوستياكوف:

- نعم، إنه لأمر مدهش، يا يولي أفغوستوفيتش! كان لدينا، أنا وأنت، القليل من الاستعراضات قبيل الأعياد! كم من الناس كانوا هناك، لكن، أنا وأنت فقط من ناله! إنه لأمر مدهش!

---

١ ـ وسام من الدرجة الثالثة كان يستخدم في روسيا القيصرية.

هز ترامبليان رأسه بسعادة وكشف القلبة اليسرى للسترة التي كانت مزينة بوسام آنّا من الدرجة الثالثة.

تجول بوستياكوف بعد الغداء في الغرف كلِّها عارضا وسامه على السيدات جميعهُن. شعر براحة وبَراحٍ في روحه، رغم أن الجوع كان قد قرص معدته.

فكَّر، ناظرا بعين الحسد نحو ترامبليان، الذي كان يتحدث مع سبيتشكين حول الأوسمة: «لو أنني عرفت بالأمر، لكنت علَّقت وسام فلاديمر[١]. أوي، إنني لم أكن أعرف!»

هذه هي الفكرة التي كانت تعذِّبُه وحسب. ما عدا ذلك، فقد كان سعيداً جداً.

---

١ ـ وسام كان يستخدم في روسيا القيصرية.

إعلان طبيب الأسنان غفالتير

حان موعدي! إن مُراجعيَّ المرضى يتعاملون مع طبيب الأسنان غفالتير الذي قدم إلى هنا على أنه أنا، لذلك أتشرف بالإعلان، أنني أسكن في موسكو، وأدعو مُراجعيَّ إلى أن لا يخلطوا بيني وبين غفالتير، ليس هو غفالتير، بل أنا غفالتير. أُركّب الأسنان، أبيع مسحوق الطباشير الذي أصنعه لتبييض الأسنان، وأمتلك أكبر آرمة. أستقبل مواعيد الزيارة بربطة عنق بيضاء.

طبيب الأسنان المعتمد لدى حديقة الحيوان فينكلير- غفالتير.

تباع الكتب الفظيعة التالية في محل«ليؤخين» لبيع الكتب:

المعلم الذاتي للحب المتأجج، أو، آخ، أنت، أيها الحيوان! تأليف إيديوتوفا[1] السعر روبل و(٨٠) كوبيك.

الرسائل الكاملة. تأليف أستاذ تحريف اللغة ميرزافتسيف(سلطان). السعر(٤) روبل.

الأسرار السرية للحب السري، أو حقيقة متع الغرام، السعر، (٥) روبل.

قاموس المفردات غير اللائقة، المستخدمة في كافة لغات العالم. السعر (٧) روبل.

١ـ الأسماء الواردة هنا ليست أسماء شخصيات حقيقية بالضرورة، معظمها من تأليف الكاتب، وهي تحمل دلالات ساخرة. إيديتوفا-من البله-الأبله، ميرزافتسيف-من الحقارة- الحقير، النذل، مولتشانوف-من الصمت، الصامت، الساكت. كوزيولسكي-من التيس، سميرنوف-من المسالم، سوخوروفسكايا- من خندق المشاة الحربية، سليبيتس- من العمى- الأعمى، أفاركييف، من الحادثة- مسبب الحوادث، الكوارث.

مذكرات كلسات نسائية، أو، أوي، لا ذنب لي! السعر روبل و(٥) كوبيك.

طرق الكذب والإغواء والتخريب وتأجيج النيران، وغيرها. كتاب المكتب للشباب. السعر(٦) روبل للمجلدات الأربعة.

أسرار الطبيعة، أو ما هو الحب؟ كتاب لأبناء النبلاء الصغار. السعر (٣) روبل و(٥٠) كوبيكا.

خصم يصل إلى (٢٥٪) للذين يحجزون نسخهم مسبقا، و يحصل الذين يشترون بأكثر من(٥٠) روبلا على (٥٠) صورة فوتوغرافية مجانا وكستك ساعة مع لوحة.

الحجز مفتوح لعام ١٨٨٢، مع الجريدة اليومية- السياسية- الأدبية- التجارية- المدهشة، الأكبر بين الصحف«الأخبار وجريدة البورصة»، التي تصدر عن التعاونية المساهمة التي يصل رأسمالها إلى(٣٠٠٠٠٠) مارك فنلندي، أو ما يقارب (١٢٠٠٠٠) روبل، مقسّمة إلى ٣٠٠٠ سهم بألف مارك فنلندي. كل جريدة من «الأخبار» تمتلك: مصنعين خاصين للورق، محرر ذكي جدا، ومطبعة، ومحل لبيع الكتب، وبدءاً من عام ١٨٨٢، ستمتلك: مبنى خاصا، وإسطبلا لحمير الجريدة، ومبنى للمخبولين، وقسماً للقروض، وباراً للبيرة. تطبع الجريدة على حساب التعاونية المشار إليها آنفاً

هرب المكتتبون:

على من يجدهم أن يقدم«دقائق» لهيئة التحرير. الجائزة- مصافحة رئيس التحرير.

لقد طُرحت للبيع مؤلفات المحامي سميرنوف: حق الكولاك[1]. ترجمة عن التترية، لطلبة الحقوق. السعر روبل.

فيزيولوجيا الكولاك. السعر روبل. خصم لباعة الكتب والمحامين.

١ـ اسم للفلاح الروسي من الطبقة المتوسطة في روسيا القيصرية.

وصل إلى موسكو: نانا سوخوروفسكايا من بطرسبرغ صاحبة الجنسية الفرنسية. توقفت على خطوط قطار بيتروف.

رحل من موسكو: المراسل الصحفي مولتشانوف إلى القطب الجنوبي. ومئة وخمسة وأربعون محاميا إلى تاغانروغ.

يقام حفل موسيقي- غنائي- أدبي- راقص بمشاركة السيدة نانا سوخوروفسكايا لصالح ضحايا زلزال بيزوفيل في هيركولانوم وبومباي، في السوق السلافي بتاريخ ٢٩/ شباط. البرنامج:

- رقصة «برد، أيتها الجوّالات، برد» يؤديها السيد إيفانوف- كوزيولسكي.
- أين الذكاء لديكم؟ ليأخذكم الشيطان! يلقيها السيد أفيركييف.
- الرأس للراسي، صدمت الرأس الرأسية. يهمس بها رئيس التحرير لانين.
- «هل أنا مذنبة» تغنيها الأنسة برينكو.
- «الحاجة تقفز، الحاجة ترقص... » رقصة غجرية، يؤديها فنانو مسرح بوشكين.
- هذا هو المرحوم نيكولاي وأنا... «موشح، يؤديه السيد شوستيكوفسكي.
- «ليس كل واحد هنا فقير، مَن الحقير!» يغنيها، مع الرقص- السيدة نانا سوخوروفسكايا.
- «لماذا يتواضعون؟ بوشكين[١]، أولا، ليرمنتوف[٢]، ثانيا، أنا فيلتشكوف، ثالثا...» سيقرأها عن السيد فيلتشكوف الأمي، أصدقاؤه.

١ـ بوشكين من أبرز الشعراء الروس من القرن التاسع عشر.

٢ـ بوشكين من أبرز الشعراء الروس من القرن التاسع عشر.

- «غـدا، غدا، وليس اليـوم- هـكذا يقول الكسـالى» يغنِّيها رئيس تحريـر «سليبتس».

- بداية الحفل الساعة ٧١/٢

- لحالات فقدان الوعي بسـبب الاختناق (٤٥ درجة مئوية) يوجد طبيب ونشادر مجاني.

مسائل رياضي مجنون[1]

طاردني (٣٠) ثلاثون كلباً، سبعة منها كانت بيضاء اللون، وثمانية رمادية، أما البقية فسوداء، السؤال: أياً من قدميَّ نهشت الكلاب: اليمنى أم اليسرى؟

ولد أتوليد عام ٢٢٣، وتوفي بعد أن عاش ٨٤ عاماً. أمضى نصف حياته في الترحال، وأضاع ثلث حياته في المتع. كم ثمن رطل المسامير؟ وهل كان أوتوليد متزوجاً؟

أُخرج (٢٠٠) مائتا شخص، في رأس السنة، من الحفل التنكري الذي أقيم في مسرح البولشوي، بسبب الشجار. إذا كان عدد المتشاجرين (٢٠٠)، فكم كان عدد المتشاتمين والسكارى والثملين، ومن كانت لديهم الرغبة بالشراب، إلا أنهم لم يجدوا سبباً للتشاجر؟

ماذا ينتج عن جمع تلك الأرقام؟

اشتري (٢٠) عشرون صندوق شاي. في كل صندوق كان يوجد (٥) خمسة بودات[2]، وكل بود كان يحوي (٤٠) رطلا. وسقطتْ فرسان من الخيول التي حملت الشاي، ومرض أحد الحوذيّين، وانسكب (١٨) ثمانية عشر رطلا، كل رطل يحوي (٩٨) ثمانية وتسعين زوليتينيك[3] من الشاي. السؤال: ما الفرق بين مخلل الخيار وسوء الفهم؟

---

١ ـ مثل هذه النصوص تنتمي إلى المرحلة الأولى من إبداع تشيخوف.

٢ ـ البود وحدة وزن زنتها ١٦. ٣٨ كيلوغرام.

٣ ـ الزولتينيك: وحدة وزن تساوي ٤. ٢٥ غرام.

تمتلك اللغة الإنجليزية ١٣٧٨٥٦٧٣٨ كلمة، واللغة الفرنسية أكثر بـ..٧ مرة. تآلف الإنجليز والفرنسيون، وجمعوا اللغتين في لغة واحدة، السؤال: كم سعر الببغاء الثالث، وكم الزمن الذي نحتاجه كي نُخضع تلك الشعوب؟

كان من المفترض أن يغادر القطار محطة سكة الحديد يوم الأربعاء في السابع عشر من حزيران ١٨٨١م في تمام الساعة الثالثة ليلاً، ليصل بالأمس في الحادية عشرة إلى محطة(ب)، لكن، وعند انطلاق القطار، تلقَّى أمرا كي يصل إلى المحطة(ب) في الساعة السابعة من الأمس. من أكثر ديمومة في الحب: الرجل أم المرأة؟

عمر حماتي(٧٥) عاماً، وعمر زوجتي(٤٢) عاماً. ما هي الساعة الآن؟

١٨:٨٢

برقيات ورسائل

أسبوع كامل وأنا أشرب نخب سارا. شيء بديع! إنها تموت واقفة. لا زال جماعتنا بعيدين عن مستوى حياة أهل باريس. أنت تغطس في الكنبة لكأنك في الجنة. انحناءة تقدير لمانكا.

بيتروف.

***

برقية

إلى الملازم يغوروف. تعال وخذ مني التذكرة. لن أذهب مرة أخرى. هذا هراء. لا شيء ذا قيمة. أضعنا فقط النقود.

***

من الطبيب كلوبزون إلى الطبيب فيرفلوختيرشفين. أيها الرفيق! رأيت بالأمس(س. ب). الصدر منبسط، ومشلول. الهيكل العظمي والعضلي نميا بشكل غير مقبول. رقبتُها طويلةٌ و نحيلةٌ لدرجة أنه لا يظهر فقط لديها venae jugulars (الوريد الترقوي. لاتينية)، بل وحتى arteria carotids (الشريان السباتي) وMusculi sterno-mastoideik (العضلة الصدرية الرئيسية) تكاد لا تُرى. كنت أسمع، وأنا جالس في الصف الثاني، ضجيجَ فقر الدم في أوردتها. ليس لديها سعال. لقد دثّروها كثيرا على خشبة المسرح، لدرجة أنني توصلت إلى نتيجة مفادها أنها مصابة بالحمّى. الملخص أنها مصابة بـ anemia (فقر الدم) وmuculorumatrophia (ضمور العضلات). الغددُ الدمعيةُ لديها تستجيبُ إراديا، رائع! كانت الدموع تقطُرُ من عينيها، ولوحِظ انتفاخُ أنفها، عندما يتطلب منها الأمر البكاء، وِفق قوانين المسرح.

***

من ناديا N إلى كاتيا X

عزيزتي كاتيا! كنت بالأمس في المســرح وقد رأيت هناك ســارا بارنار. أوي، يــا كاتنكا، كم لديها من المجوهرات! لقد بكيت طول الليل بسبب خاطر أنني لا يمكن أن أمتلك، في أي وقت من الأوقات، ذلك القدر من المجوهرات. سأنقل إليك بالكلمات وصف ثوبها... كم تمنيت أن أكون سارا بارنار. لقد كانوا يشربون شامبانيا حقيقية على المسرح! من الغرابة، يا كاتيا، أنني، وبالرغم من إجادتي للفرنسية، إلا أنني لم أفهم أي شــيء مما كانوا يتكلمون بــه، كما لو كان الممثلون يتكلمون على الخشــبة بطريقة أخرى. كنت أجلس... في شرفةٍ جانبيَّةٍ صغيرة، زوجي المسخُ لم يتمكن من الحصول على تذاكر أخرى. يا له من مســخ! إنني نادمة جدا لأني كنت باردة مع(س)، فذاك لربما وفّر تذاكر في الصالة. (س) مســتعدٌ لكل شيءٍ مقابل قُبلة. ونكايةً بالمسخِ، سيوفّر لنا، أنا وأنت، تذاكر.

صديقتك (ن).

من المحرر إلى المراسل الصحفي.

يا إيفان ميخايلوفيتش! إنك تتسكع كلَّ ليلةٍ في المســرح بتذكرة صحفيّة، ولكنك، بالمقابل، لا تكتب سطرا واحدا. إن هذا يسمى دناءة! ماذا تنتظر إذا؟ ســارا بارنار ســتكون موضوع الســاعة هذا اليوم، لا بد أن يُكتبَ عنها. أسرع، بربك!

جــواب: إنني لا أعرف مــاذا أكتب إليك. هل أُشــيد بهــا؟ إذاً، لننتظر حتى يكتبَ الآخرون. الوقت لن يهرب.

سأكون اليــوم في الإدارة. جهّزْ النقود. إذا كنتَ آسـفا بشـأن التذاكر، فأرسل بطلبها.

صديقك X .

***

رسالة السيدة N إلى المراسل ذاته. شكرا لك، يا روحي، يا إيفان ميخايليتش، على التذاكر. لقد متعت نظري برؤية سارا، وآمُرك أن تُشيد بها. سَلْ لي في مجلس الإدارة، هل تستطيع أختي الذهاب إلى المسرح بتذاكر صحفية؟! ضروري جدا. وتقبَّلْ احتراماتي.

صديقتك N.

جواب: ممكن.... مقابل الدفع، بالتأكيد. الدفع ليس عظيما: فقط، أن تسمحي لي بزيارتك يوم السبت.

***

من الزوجة إلى المحرر.

إذا لم ترسل لي بطاقةً إلى سارا بارنار، فلا تَعُدْ إلى البيت. هل العاملون معك، بالنسبة إليك، أهم من زوجتك؟ يجب أن أذهب إلى المسرح هذا اليوم.

***

من المحرر إلى الزوجة.

يا أميمة! لا تحشري نفسك! رأسي من دونك يكاد ينفجر بسبب سارا!

***

من مفكرة محصِّل تذاكر المسرح.

هذه الليلة أدخلتُ أربعة أشخاص إلى المسرح. أربعة عشر روبلا.

هذه الليلة أدخلت خمسةً. خمسة عشر روبلا.

هذه الليلة أدخلت ثلاثةً وسيدة. خمسة عشر روبلا.

***

... حسنا فعلت إذ لم أذهب إلى المسرح وبعت تذكرتي. يقولون، أن سارار بارنار مثَّلتْ باللغة الفرنسية. وعلى أي حال، فأنا لم أكن لأفهم شيئا...

الرائد كوفالوف.

***

ميتيا! اعمل معروفاً من فضلك، اطلب من زوجتك وبلطف، أن تَخْفض من صوتها قليلا، وهي تجلس معنا في الشرفة عندما تمتدح ثوب سارا بارنار. لقد كانت في المسرحية السابقة تهمس بصوت عال، لدرجة أنني لم أسمع شيئا مما كان يدور على الخشبة. اطلب منها ذلك، لكن بلطف. لا تُغضبها كثيرا.

صديقك Y

***

من عالم اللغة السلافية X إلى ابنه.

يا بني!... لقد فتحت عيني ورأيت نبوءة التقهقر... آلاف من الروس الأرثوذكس، الذين يتحدثون عن الالتحام بالشعب، كانوا يَمضون زرافاتٍ إلى المسرح، يَدلِقون ذهبهم تحت قدمي امرأةٍ يهودية... يا لهم من ليبراليين، رجعيين.....!!

***

روحي!

حتى لو نثرت السُكرَ على الضفدع، لن آكله، بأيَّ حال من الأحوال.....

ساباكيفيتش.

فلاديمير نابوكوف

(١٨٩٩-١٩٧٧)

- الكلمة.
- الجميلة.
- الموسى.
- عِفريت الغابة .

فلاديمير نابوكوف

عرف أيضا باسم مستعار فلاديمير سيرين. هو كاتب روسي أمريكي، وشاعر، ومترجم، وناقد، وعالم بالحشرات. ولد في بيتربورغ في روسيا لعائلة نبيلة غنية، والده محام وسياسي، أحد قادة الحزب الدستوري الديمقراطي اليميني. والدته ابنة صائغ ثري، تعلّم اللغتين الإنجليزية والفرنسية، وكانتا لغة التحادث في العائلة، ودرس الأدب وعلم الحشرات اللذين كانا اهتمامه الأساسي حتى نهاية حياته. غادرت عائلته روسيا إلى الأبد بعد سيطرة الشيوعيين على البلاد سنة ١٩١٩. عاش في برلين، ودرس في كامبردج. اغتيل والده في برلين سنة ١٩٢٢. عاش في برلين يعلّم اللغة الروسية لكسب العيش، ونشر قصصه في الصحف التي كان يصدرها المهاجرون الروس. انتقل للعيش في فرنسا سنة ١٩٣٧، ثم هرب مع عائلته من وجه النازية إلى أمريكا. عمل في إلقاء المحاضرات حول الأدب الروسي في الجامعات الأمريكية. كتب أول رواية باللغة الإنجليزية «الحياة الحقيقية لسيباستيان نايت». عاد إلى أوروبا سنة ١٩٥٨، وعاش في سويسرا وفيها أصدر آخر رواياته. من أشهر أعماله: «الشعلة الشاحبة»، و«آدا»، و«الهدية»-١٩٣٧، و«دعوة إلى الإعدام» ١٩٣٥، و«لوليتا» ١٩٥٥. رُشِّح عدة مرات لجائزة نوبل للآداب. تَرجم العديد من الأعمال الكلاسيكية الروسية إلى اللغة الإنجليزية، منها رائعة بوشكين الشعرية «يفجيني أنيجين». قال عن نفسه: أنا كاتبٌ أمريكي، وُلدتُ في روسيا، تلقيت تعليمي في بريطانيا، حيث درست الأدب الفرنسي قبل أن أنتقل للعيش في ألمانيا. رأسي يتحدث بالإنجليزية، قلبي بالروسية، وأذني بالفرنسية. تميَّز أسلوبه بالمزاوجة بين الواقعية التقليدية والحداثة الشعرية. كتب العديد من سيناريوهات الأفلام، منها: لوليتا، ضحك في العتمة، الشيخ والبنت والشاب، اليأس، ماشينكا، حادثة. توفي سنة ١٩٧٧. كُتبت عنه عشرات الكتب بمختلف اللغات.

الكلمة

كنت أقف على حافة الطريق تحت سماء صافية، ذهبية تماماً، في بلد جبلي غير عادي، قادماً من أغوار الليل على أجنحة ريحِ الحلمِ الملهِمة. لقد شعرت، دون أن أنظر، بلمعان الأسطح النظيفة وبالزوايا والحواف العظيمة للصخور الفسيفسائية، والهاويات، التي تغشي البصر، وبريق العديد من البحيرات التي تقع خلفي في مكان ما في الأسفل، ذلك البريق الذي يشبه لمعان المرايا. كانت الروح محاطةً بالإحساسِ بغنى الطيف الإلهي، والإرادة والسُّمو: كنتُ أعلم أنني في الجنَّة. لكن في نفسي الدنيوية كانت توجد فكرة دنيوية واحدة متأججة بحدَّة... كنت أحميها بحميَّة، وغِيرة، وأحرَصُ عليها من أنفاس الجَمال العظيم الذي كان يطوِّقني... تلك الفكرة – شعلةُ العذاب العارية – كانت فكرةً عن وطني الدنيوي: كنت حافياً، مغبرّاً، أنتظر على حافة الطريق أهلَ السماء المتسامحين، كنبوؤة بالمعجزة، وكانت الريح تداعب خصلات شعري بصخبٍ كريستالي ملأ الشقوق، وأزعج شرانقَ القزِّ الخرافيّة على الأشجار، التي تفتحت بين الصخور على طول الطريق، وقد تسلقتْ جذوعَها أعشابٌ طويلة، كأنها ألسنةُ لهب، أما الأزهار الكبيرة فقد انفصلت بسلاسة عن الأغصان اللامعة وانزلقت مع الهواء، كأنها كؤوسٌ طائرة ممتلئة بنور الشمس حتى حوافِّها، نافخة البتلات النافرة الشفَّافة الغضّةَ حلوة الرائحة، مذكرةً بكلِّ ما هو رائعٌ عرفته في حياتي.

وفجأة، اختنقتْ الطريق التي كنت أقف عليها بسبب البريق، وامتلأتْ بعاصفة من الأجنحة... وسارت الملائكة المنتظرةُ بتزاحم، منبثّة من أغوارٍ سحيقةٍ تَغشي الأبصار، بدا قدومُهم ناعماً، تماما مثَل حركة سُحُبٍ

من الأزهار، لم يكن في الوجوه النقيَّة أي حركة، فقط كانت رموشُهم الشعاعيَّة تهتزُ باعتزاز. وكانت تحوم بينهم طيورُ الجنة، مطلقين ضحكات أنثويةً مرحة، وتقافزت، كذلك، وحوشٌ طرية، برتقالية، مرقطة ببقع سوداءَ ساحرة. كانت الوحوش تتلوى في الهواءِ مادةً أقدامها الملساء، ملتقطةً الأزهارَ الطائرة... وكانت تمر من أمامي مستديرة، متثنية، والبرقُ يلمعُ في عيونها.

أجنحة، أجنحة، أجنحة! كيف يمكنني تصوير ثناياهم، تفاصيلَهم. كانوا جميعاً ضخاماً وناعمين وشقراً وأرجوانيين وزرقاً قاتمين وسوداً مخمليّين مع غبار ناريّ على أطراف أرياشهم المنحنية. وقد استقرت هذه السحب شديدة الانحدار فوق أكتاف الملائكة المضيئة. أحدهم، لم يحتمل، على ما يبدو، الغبطةَ الهائلة، فبثّ فجأةً جماله المجنّح بلمح البصر، بنفحةٍ أنثوية، وقد حدث ذلك كأنه وهج شمسي، أو كأنه لمعان ملايين النجوم.

كانت جموعهم تمرُّ متأملةً الأعالي. رأيتُ بهجة عارمة في عيونهم... طيران ساكن.. كانوا يمرون كما لو كانوا يسبحون، مكلَّلين بالأزهار. الأزهار كانت تسكبُ في الجوِّ بريقَها الندي: كانت الوحوش الناعمة اللامعة تلهو، تتثنّى وتتمطى، أمّا الطيور فكانت تحلِّق للأعلى مصدرةً أصواتاً سعيدة، ثم تنقضُّ للأسفل. أمّا أنا، المبهورُ المرتجفُ والمعدمُ، فقد كنت أقف على حافة الطريق، وكانت نفسي تُتمتم بنفس الفكرة: أن انهضْ وصلِّ، وتوجَّه بالدعاء لها، اقصص عليها، آخ، أخبرْها، أنه يوجد على أجمل الكواكب التي خلقها الله، بلد... هو بلدي أنا... يحتضر في متاهات ضيقة. فكّرت لو اختطفتُ حفنةً من البريق المتوهج، وأحضرتُ إلى بلدي مثل ذلك الفرح، لكان أشرق للتو، ولكانت أرواح الناس قد دارت تحت بريق وأنفاس الربيع المنبعث إلى الحياة مجدداً، وتحت الهدير الذهبي للمعابد المستيقظة.

مددتُ يديَّ المرتجفتين محاولاً أن أقطع الطريق على الملائكة، ورحتُ أتمسك بأطراف حبرياتهم (لباسهم) ساطعة الأنوار، بأهداب أرياشهم المنحنية، الدافئة، لكنها كانت تنزلق من بين أصابعي مثل أزهار زغباء، مصدرةً أنيناً. تقلّبتُ، أنا في نشوة، ألتمسُ عطاءً، لكنَّ الملائكة استمرت في مسيرها إلى

الأمـام دون أن تلاحظـني، مولّية وجهها إلى الأعلى. جموعُهـم توجهت نحو عيد الجنـة، بإشـراقٍ سـاطع لا يُحتمل، حيـث الألوهيَّة كانت تتنفـس متضافرة وصاعـدة إلى الأعلى: لمْ أجرؤ على التفكير بها. رأيت شـباكاً عنكبوتية ناريـة، ورذاذاً، وزخـارفَ على أجنحـة هائلة متـوردة، وحمـراءَ، وقرمزيةٍ، ومن فوقـي كانت تمرُّ أمواج السـندس الأزغب، وطيورُ الجنّة متقافزة بسـرعة في أكاليـل قُزحيـة، والأزهار كانت تسـبح منفصلـة عن الأغصـان اللامعة... «قِفْ، اسمعني»... صمتُّ، محاولا احتضان الأقدام الملائكية الخفيفة... لكن أقدامهم كانت غير محسوسـةٍ، ولا يمكن الإمسـاك بهـا... انزلقت الملائكة من بين يديّ المشـرعتين، أما أطراف الأجنحة الواسـعة، الـتي كانت تمر أمامي فقد لفحتْ شـفتي فقط. وفي البعيد كان النور الذهبي المنبثق من بين الصخور الرملية المزهرة يمتلئ بعواصفهم اللافحـة. غادروا، غادروا، توقفت ضحكات طيور الجنة العالية المتوترة، وتوقفت الأزهار عن التطاير عن الأشجار: ضعفتْ، خمدتْ.

عندها حدثت معجزة: اسـتدار أحد الملائكة المتأخرين، مقترباً مني بهدوء. رأيت عينيه الماسـيتين الثاقبتين أسـفل قوسـي الحاجبـين الجامحين. وعلى أضلـعِ الجناحـين المشـرعين على اتساعهما سـطع ما يشـبه قطـرات الندى المتجمـدة، وكانت الأجنحـة بدرجة من اللون الرمـادي يصعب وصفه، وكل ريشـة كانـت تنتهي بمنجل فضـي. وجهه، وتعابـير الجبين الوضـاء النقية ذكرتـني بملامح رأيتها علـى الأرض... وبدا لي أن الغضـونَ، والأنوار، وروعةَ جميـع الوجوه الـتي أحببتها انصهـرت في وجه واحد رائـع... وجوه النـاس الذين غادروا منذ زمن بعيد، بدا لي أن كلَّ تلك الأصوات التي لامست جزئياً سمعي، اجتمعت الآن في غناء واحد متكامل.

اقـتربَ مني، ابتسـم، لم أسـتطع النظر في وجهـه. لكنْ، مـا أن نظرتُ إلى قدميـه حتى لاحظت شـبكةً مـن العروق الزرقـاء على أخمص قدمه، وشـامةً وحيدةً، شـاحبة... ومن خلال هذه العروق، وتلك الشـامة، فهمت أنه لم ينفصل عن الأرض، وأنه يمكنه أن يفهمَ دعائي.

عندما رحتُ أقصُّ عليه أحزاني خافضاً رأسي، ضاماً الكفين المتوسلتين، الملطختين بالوحل الساطع إلى عيني. كنت أرغب بالتوضيح له كم هو بلدي رائع، وكم هو الغسقُ الأسودُ مخيف، لكني لم أجد الكلمات اللازمة.

رحت أتمتم، متعجلاً ومكرراً ما أقول، تحدثت عن بعض التوافه، عن منزل احترق، حيث لم ينعكس بريق أرضيته في أي مرآة مائلة، وعن الكتب القديمة، وأشجارِ الزيزفون القديمةِ، حكيت عن ألعابِنا، عن أشعاري الأولى في الدفتر المدرسي، عن جلمودِ صخرٍ رمادي ما، أخرجته شجرة توت العليق الضخمة من الأرض، وسط الحقل المليء بأزهار الأقحوان... لكنَّ أهمّ شيء، هو أنني لم أتمكن من البوح بأي شكل من الأشكال... تهتُ، تلعثمت، وعدت مجدداً للهمس، عاجزاً، متعجلاً بالكلام، تحدثت عن الغرف الضيقة، الباردة، التي تصرفُ فيها الريح، في القرية، عن الزيزفون، عن الحبّ الأول، عن النحلات الكبيرة الّتي كانت تغفو على أفواف الورد... بدا لي أنني سأصل حالاً إلى أهم شيء، أن أشرح كلَّ أحزانِ وطني، لكنْ، لسبب ما، تمكنت من تذكّر الأشياء الصغيرة فقط، الأشياءِ الدنيوية، التي لا تملك أن تتحدث أو تبكي بدموع كبيرة، حارة، فضيعة، الأشياء التي كنت أود الحديث عنها ولم أتمكن.

صمتُّ، رفعت رأسي. نظر الملاك إلي بابتسامة فاحصة، ألقى عليَّ نظرة جامدة بعينيه الماسيتين المستطيلتين.. شعرت أنه لم يفهمْ كل شيء...

هتفت، مقبّلاً بضعفٍ الشامة على قدمه المضيئة.

سامحني، سامحني، لأني لا أملك الحديث إلا عن الأشياء الصغيرة، العابرة. لكنك تدرك بالتأكيد.. أيها الملاك الطيب الرمادي، أجبني، ساعدني، قل لي ماذا ينقذ وطني؟

وفي لحظةٍ نطقَ الملاك بكلمة وحيدة محتضناً كتفيّ بجناحيه الزرقاوين، وقد عرفتُ في صوته كل الأصوات الحبيبة الساكنة. كانت الكلمة التي نطق بها رائعة، لدرجة أنني أغلقت عيني، وأخذت نفساً عميقاً، وألقيتُ رأسي إلى الأسفل. انسكبت الكلمةُ عطراً ورنيناً في كلّ عروقي، واستيقظت الشمسُ في رأسي، والتقطَتْ ثقوب ذاكرتي، التي لا تعدّ ولا تحصى، صوتَ الجنة الساطع مردّدته. لقد ملأتني الكلمة، خفقت عقدةً صغيرة في صدغي، وارتجفت ندىً على أهدابي، وهبّت نسيماً بارداً منعشاً خلال شعري، ولفّت قلبي بحرارة إلهية.

صحت بها، مستمتعاً بكل حرف، وألقيت عيني بشكل عاصف في الأشعة القزحية للدموع السعيدة...

إلهي! النور الأرضي يخضر في النافذة، ولا أتذكّر، أنني صرخت...

الجميلة

ولـدِتْ أولغـا بيتروفنا، التي سـيدور عنهـا الحديث، سـنة ١٩٠٠، في عائلة ثرية، نبيلة، خالية من الهموم. فتاةٌ شـاحبة ببلوزة بحرية بيضاء، ومفرقٍ مائلٍ في شـعرها الكسـتنائي، وعينين مرحتين، جعلتا كلَّ مـن حولَها يحرصون علـى تقبيلهمـا. كانت جميلـةً منذ الطفولـة: نقـاءُ وجهها، تعبيرُ شـفتيها المكتنزتـين، جديلةُ الحرير، التي تصل حتى نهايـة ظهرها... كل هذا كان في حقيقة الأمر رائعاً.

مـرّت طفولتهـا، كمـا كان يقـال لدينا قديمـا، بهدوء وسـعادة، ريّانةً، شـبعانةً، مكسـوةً. أشعةُ الشـمس على غلاف سلسـلة«الكتب الوردية»، النـدى المتجمِّـدُ التقليديُّ في حدائـقِ بيتروغراد... ذخـيرةُ الذكرياتتلك، هي كل مـا تبقى لديهـا عند خروجها من روسـيا ربيعَ ١٩١٩. كلُّ شـيءٍ كان متوافقاً بشـكل تام مـع العصـر: الوالدةُ توفيت بمـرض التوفئيد، أخوها قُتل، معـادلاتٌ جاهـزةٌ، طبعـا، حديثٌ مملٌ... لكن هـذا كلّه حـدث، كان، ولا يمكن قول غير ذلك،... لا داعٍ للأنفة...

وهكـذا، كانـت أمامنا سـنة ١٩١٩سـيدة نبيلة ناضجـة، بوجهٍ كبير شـاحب، مفرطٍ في الشـحوب، بالمعنـى الصحي، لكنه، مع ذلـك، جميل جدا، وقوام ممشوق، وصدر طري، مرتدية جرزة صوفيَّة سوداء، بشكلٍ دائم، وشالاً حـولَ العنـقِ الأبيضِ، وسـيجارةً إنجليزيةً باليـدِ نحيلةَ الأنامـل، ونواة ثمرة متميزة علـى المعصم؛

مرت بحياتها لحظاتٌ مثيرة،... في مقتبل السادسـة عشـرة، عندما كان أهلهـا يقيمون، صـيفـاً، في بيت ريفي بالقرب من القريـة التي يملكونها، لم

يبـقَ هنـاك طالبُ كليَّةٍ لم يعتزم إطلاق النارَ على نفســه بسـببها، ولم يبقَ طالبٌ جامعي لم...

بكلمـة واحدة، الجاذبيةُ الخاصة التي كانت تمتلكها، كانت لبعض الزمن، يمكن أن تتسـبب بـ.. وتخلق... لكن، لسـبب ما لم يحدثْ شــيءٌ من هذا القبيل،... كلُّ شــيءٍ خلافَ ذلك كان سـيبدو عبثاً: الزهورُ التي توضع بكسـلٍ في الماءِ، المشـاويرُ في غسـق الليل، تارة مع هذا، وتارة مع ذاك، مآزقُ القُبَل...

كانت تتكلم الفرنسـية بطلاقة، تلفظ (jance) يانس، و(ay)، مترجمةً كلمةَ «سـرقة» بطريقة سـاذجة، إلى كلمـة (grabuges)؛ مسـتخدمة في حديثها تعابير دينيةً قديمة، مما استقر لدى العائلات الروسـية القديمة، لكنها تلثغُ بالفرنسـية بطريـقة مقْنِعة، رغم أنها لم تزر يوما فرنسا.

فوق(الكوميدينـا) في غرفتها البرلينيّة، كانت بطاقةٌ مثبَّتةٌ بدبُوس ذي رأسٍ من الفيروز.. وصورةُ سـيدٍ مثقفٍ، أشـهب الشـعر. كانت مؤمنةً؛ لكنْ، كان يصادف أن تتعرض للضحك في الكنيسـة. وبخفة فظيعة، تميّز كل النبيلات الروسـيات مـن أبناء جيلها، كتبت أشـعاراً وطنية مثيرة للضحك... كيفما اتفق.

بعد سـت سـنوات، أي قبـل عـام ١٩٢٦، عاشـت في فندق صغير في شـارل أُوغسبورغير شتراس(حيث توجد الساحة) مع والدها العجوزِ عريضِ المنكبين، كثِّ الحاجبين، أصفر الشـاربين، نحيلِ الساقين، ذي السـروال الضيق. لقد خدم في مؤسسة ناجحة، واشتهر بالانضباط، والطيبة؛ ولم يكن مجنونا حتى يشـرب.

لقد تجمَّع لدى أولغا الكسـيفنا كثير من الأصدقاء، كلُّهم من الشباب الروس. تشكَّلت تعبيرات شبابية: «ذهبنا إلى السـينما». «شاهدنا بالأمس....» كان الطلـب على كل أنواع الـكلام المنمَّق، الـكلامِ الفكاهي، تقليدِ

التقليد. «ليس كفتة، بل شيئاً غير معروف»، «أحدٌ ما غير موجود، أحدهم يثير الحزن» (أو بالصوت المكبوح، مع جهد استثنائي: «السادة الضُّباط...»)

كانت تؤدي رقصة الفوكستروت[1]، بكسل، عند عائلة زوني في الغرف المدفَّأة بشكل جيد، على موسيقى الغرامافون، ناقلةً مقدمةِ رجلِها الطويلةِ بحركةٍ لا تخلو من الجمال، ممسكةً بالسيجارةِ بيدها الممدودة، وعندما تجدُ بعينيها منفضةَ السجائرِ التي تدور مع الموسيقى، تنفض فيها سيجارتها، دون أن تتوقف. كم كان ذلك رائعا، ومدهشا! كانت ترفع القدح إلى شفتيها، تعلن نخباً سريّاً بصحةِ شخصٍ غير موجود... ناظرةً من خلال رموش عينيها إلى ذاك الذي أولاها الثقة. كم كانت تحب أن تناقش مع هذا أو ذاك، في الركن على الأريكة المواضيعَ الوجدانيةَ، وتقلُّبَ الحظوظ، والتوقعات، وكثيراً من الشرح،.. كل ذلك من خلال كلماتٍ مقتضبةٍ، وكانت عيناها النقيتان الواسعتان، اللتان ينتشر النمشُ الأحمرُ، الذي يكاد لا يلاحظُ على بشرتها الرطبةِ الرقيقة، تحتهما وحولهما، تبتسمان تعاطفا في مثل تلك الحالات... إلا أنه، لم يقع أحدٌ في غرامها، وتتذكر ذلك الرجلَ الفظَّ، الذي خطفها بيده في حفلِ رقص «بالBal»[2] خيري، وراح يبكي على كتفها العاري، وقد دعاه، بسبب ذلك، البارون (ر) للمبارزة، لكنَّه رفض. (بالمناسبة، كانت أولغا ألكسييفنا كثيراً ما تستخدم كلمة «فظ»، وفي كل مناسبة: «فظّون»، كانت تملأ صدرها، وتقول بدلع وكسل: «أيُّ فظٍ».. إنه لفَظٌّ!.. »).

لكنْ ها هي الحياةُ تغربُ: شيءٌ ما انتهى، ها هم ينهضون كي يخرجوا.. كم كان ذلك سريعا! توفي الأب؛ انتقلت إلى شارع آخر؛ توقفتْ عن زيارة الأصدقاء؛ صارت تعمل في حياكة القبعات، وإعطاء الدروس الرخيصة في اللغة الفرنسية في نادٍ نسائي؛ وهكذا استمرت حتى عمر الثلاثين.

١ـ رقص زوجي يؤدى على موسيقى تحمل نفس الاسم.
٢ـ رقص جماعي زوجي، انتشر في الأوساط الأرستقراطية.

هـي جميلـة الآن، كـمـا كـانت، بمقطـع العينين الواسـعتين السـاحر، وبخـطّ الشـفتين الذي تكمُنُ فيه هندسـة الابتسـامة كلها. لكنَّ شـعرها فقدَ بريقه، وكان يُسـرح بشـكل سـيئ، أمّا بِزتها السـوداء فقد مر عليها أربـع سـنوات، ويداها الرائعتان اتسـخت أظافرهما، ونفـرت عروقهما، وصارتا ترتجفان من التوتر، حيث كانت تدخن بجنون مثل الزعران، أمّا بخصوص حال الكلسات، فالصمت أفضل.

الآن، عندمـا اهترأت بطانة حقيبتها الحريريَّة.. (على أضعف الآمال كانت تأمـل أن تجد فيهـا حلَقاً شـاردا): الآن عندما يـكون كل هـذا التعب؛ وعندما تنتعل الحذاء الوحيد لديها- فقد أجبرت نفسها على أن لا تفكر بكعب الحذاء المتهرئ تماما، كما كانت تمنع نفسـها من التفكير بكَم تسـتدين عندما تُعرِّج على الكشـك لتشتري السـجائر- والآن عندما لم يبقَ أدنى أمل بالعودة إلى روسـيا..، إلا أن الكراهية أصبحت معتـادة لدرجة أنها لم تعد خطيئة؛ الآن، عندما تغيب الشمس خلف المدخنة،...

كانـت أولغـا ألكسـييفنا تتعذب، أحيانا مـن رؤية الإعلانـات المترفة المكتوبة بلعاب تانتال[1]، التي تصور ثرية، برداء مزيّن بواسـطة ثلاثة أو أربعة خطوط فاضحة، على سطح السفينة، أو تحت نخلة، أو عند (دَرابزين- حاجز) الشـرفة البيضاء. وهي لا تسـتطيع أن توفر شـيئاً من كل هذا.

في أحد الأيام، كادت ساقاها تنهاران، عندما لوّحت لها صديقتها القديمة فيروتشـكا من قُمرة التلفون مثل إعصار، وهي التي اعتادت السـير بسـرعة حاملـة ملفـات، وتقود كلبا من نوع التيرير، يغطي الشـعر عينيه، وقد أفلت رباطه والتفّ حول تنورتها مرتين. ألقت نفسها على أولغا ألكسـييفنا، راجية إيّاهـا زيارتهـم في البيت الريفـي، قالت: هذا هـو النصيب، وإنه لشـيء رائع. وسـألتها كيف تعيش، وهل لديها معجبون. أجابت أولغا ألكسـييفنا: «لا،

١ـ تانتال: العذاب المتأتي بسبب القرب من الشـيء مع الامتناع من الحصول عليه. من الأسطورة اليونانية عن الإله تانتال، الذي كان قريبا من الماء، لكنه لم يكن يرتوي منه.

يا أمي، السـنون لم تعد هي ذاتها السنون، عدا.. »، ثم أضافت تفصـيلاً صغيراً، جعـل فيروتشـكا تـدور ضاحكةً مميلـة الملفات حتـى الأرض. قالـت أولغا ألكسـييفنا مبتسـمة: «نعم، بجد»، واصلت فيروتشـكا محاولة إقناعها، محركة الكلب، مسـتديـرة حول نفسها. أخيرا تكلمتْ أولغا ألكسـييفنا مباشـرة، وطلبت منها مبلغاً من المال».

كانت فيروتشكا حِرفيّة، تجهّز أشياء مختلفة، سواء أكان ذلك عرساً، أو تأشيرات سفر، أو.... وهي الآن منشغلة بسرور بمصير أولغا ألكسـييفنا. قال زوجها الثرثار، ذو الرأس الحليق والنظارة ممازحاً:

ها قد استيقظتْ فيك الخاطبة.

حضـرت أولغا ألكسـييفنا في يوم صحو من أيام آب، وخلال ومضة أُلبست رداء فيروتشكا، وسـرح شعرها، وزُيّنت. كانت تقاوم على استحياء، لكنها سـرعان ما استسـلمت... كيف احتفلت اللوحات الأرضيـة في المنزل الريفي السعيد، وكيف سطعت كل أنواع المرايا في الحديقة الغناء، الموجودة هناك من أجل إخافة الطيور؟.

جاء لزيارتهم، لمدة أسـبوع، شـخص يدعى فورسمان، وهو روسـي من أصل ألماني، وقد كان أرملَ، ورياضـياً، ومؤلفَ كتب في الصـيد. ومنذ مدة طويلة كان قـد طلب من فيروتشـكا أن تبحث لـه عن زوجة... «ذات جمال روسـي حقيقـي». كان له أنف كبير وقـوي، وتويجٌ ورديٌ صغيرٌ علـى حَدبة أنفه. كان لطيفاً، صموتاً، وعبوساً في بعض الأحيان... لكن كانت لديه القدرة في الوقت ذاته، وبقليل من الصخب، أن ينسج علاقة صداقة أبدية مع أي كلب أو طفل. وقد وقعت أولغا ألكسـييفنا مع مجيئه في حالة من الجنون؛ أصبحت ذاويةً، غاضبة، كانت تقوم بكل شـيء عكس ما هو متوقع،.. وقد شعرت أن هناك شـيئاً غير صحيح،.. وعندما راح الحديث يدور عن روسـيا الماضـي، (حاولت فيروتشـكا أن تجعلها تشـرق مع الحديث عن الماضـي)، بدا لها، أنها

تكـذب، وأن الجميع يعرفون أنها تكـذب... وبشــكـل عام لم تتِح لأي واحد أن يـرتاح لكلامها.

لعبوا الورق على الشــرفة، وتمشّــوا في الغابة،.. لكـن فورسمان ظل طول الوقت يتحدث مع زوج فيروتشكا مستذكراً بعض مشاغبات مرحلة الشباب، وكـان كلاهـمــا يضحك حتى يتوردَّ وجهاهما، ثم يسـقطان على ظهريهما على العشب.

وقبيــل ســفر فورسمان لعبوا الـورق كما جرت العادة في المساءات، على الشــرفة؛ وفجـأة أحسـت أولغـا ألكـسـيفنا بشـيء يضغـط علـى حلْقها بشــكـل غـير محتمــل،.. لكنهـا تمكـنت مـن أن تبتسـم من دون الشـعـور بالحاجــة الســريعة للمغــادرة. دقـت عليها فيروتشـكا الباب، لكـن أولغا أليكسـييفنا لم تفتحه.

وسطَ الليل، وبسبب معاناتها من كـثرة الذباب في الغرفة الواطئة، وكـانت قد دخّنت كـثيراً، لم تستطع أن تغفو. خرجت أولغا ألكسـييفنا إلى الحديقـة مضطربـة، شــاعرة بالشـوق، والكـراهيــة لنفســها وللجميــع؛ هنــاك كـان البعـوض يطنُّ أيضــا، والأغصان تهتزُّ، وكـانت تسـقط بـين الفينة والأخرى ثمـرة تفاح محدثةً صوتا مكـتوما، وكـان ضـوء القمر يتقافز فوق جدار كُنِّ الدجـاجِ الأبيض. خرجت مرة أخرى، في الصباح الباكـر، وجلسـت على الدرجة الـتي كـانت قد سـخَّنتها الشــمس. جلـس فورسمان الـذي كـان يرتـدي روب الحمام الأزرق إلى جانبها، وسـألها بعد أن سعل، فيما إذا كـانت توافق على أن تتزوجه، «هل توافقين أن تـكـوني زوجة لي؟»، هـكـذا قال.

عندمــا جــاءوا إلى الإفطــار، كـانــت فيروتشــكـا وزوجهــا وابنــة عمــه، يــؤدون بصمت رقصات غير موجودة، في زوايا مختلفة مـن البيت. رفعت أولغا ألكـســييفنا كـأسـها قائلة: «يا لكـم من فطِّين!»،... وقد ماتت أثناء الولادة في الصيـف التالي.

هــذا كل شـــيء. قد تكــون هناك تتمــة مــا، لكنها بالنســبة لي غير معروفــة، وفي مثــل هذه الحــالات، وبــدل التيــه في التخمينات، أكــرّر ما قاله الملك المرح من إحدى حكاياتي المحببة: أي الســهام تطير أبدا؟ إنه الســهم، الذي يصــيب الهدف.

الموسى

لم يأتِ لقبه «الموسى» في السرية من فراغ؛ إذ ليس لوجه ذلك الشخص أيّ معالمَ تشكِّلُ واجهة. عندما فكّر معارفه به، لم يتمكنوا من تخيُّله إلا وهو في صورته الجانبية، وقد كانت تلك الصورة رائعة: أنفٌ حادٌ، كأنه زاوية مثلث، وقويٌ، مثل مرفق، وذقنٌ، ورموشٌ طويلة على جفنه السفلي، كما هي لدى الأشخاص العنيدين والقساة. كان اسمه إيفانوف.

لقد كان في ذلك اللَّقب، الذي أُعطي له، بعضُ الرؤية، فيحدث أحيانا أن يكون للإنسان من اسمه نصيب.

لقد أصبح شتين عالمَ تعدين لا يضاهى. أما القبطان إيفانوف فقد وجد نفسه بعد هروب أسطوري، وكثير من أشكال المعاناة العذبة، في برلين، واشتغل هناك بالمهنة التي كان يوحي بها لقبه القديم الموسى– مهنة التزيين. لقد عمل في محل حلاقة لم يكن كبيرا، لكنه كان نظيفا، وكان يعمل في المحل شخصان آخران غيره يساعداه في قص الشعر والحلاقة، وكانا ينظران إلى«القبطان الروسي» باحترام وسعادة، وكان صاحب المحل رجلاً سميناً كئيباً، يظل يدير ذراع ماكنة الحساب محدثاً دوياً معدنيّاً، وفتاة تزيين شاحبةً بجسد شفّاف، وقد بدت كما لو أنها جفَّت من كثرة لمسها لعدد لا نهائي من أنامل أولئك البشر، الذين كانوا يجلسون على الوسائد المخملية أمامها، كل خمسة دفعة واحدة. كان عمل إيفانوف ممتازاً، لولا عائق بسيط، ألا وهو، أنه لم يكن يجيد اللغة الألمانية. علما أنه سرعان ما أدرك كيف عليه أن يتصرف، وبالتحديد: أن يضع بعد عبارة اسم الاستفهام«نيخت؟»(لا بالألمانية)، أما بعد الاستفهام التالي«فاس؟»(ماذا

بالألمانيـة).. ومـرة أخرى«نيخـت؟»، وهـكذا، وبالتنـاوب. الشـيء الرائع الذي تعلّمـه إيفانـوف، رغم أنـه تعلم تصفيف الشعر في برلين، أنـه كان يقص الشـعر على الطريقة الروسـية، فكانت طريقة قصِّه للشعر كما هي لدى الحلاقين الـروس، إذ أنهـم كانوا يمسـكون بخصلـة من الشـعر، ويأخذون منهـا قليلا بالمقص، محركين المقص كثيراً في الفراغ، وهكذا، سـريعا... سـريعا، ويواصلـون الطقطقة بالمقص في الهواء بلا وعـي. وقد كان زملاؤه يحترمونه لأجل تلك الأصوات الأنيقة.

إن المقـص والموسـى، يعتـبران، بالتأكيد، أسـلحة بيضـاء، وكان ذلك الارتعاش المعدني الدائم قريبا من روح إيفانوف. لقد كان شـخصاً حقوداً وغير غـبي. لقد ضيعتْ مزحةٌ بائسـة إباءه العظيـم، والشـريف، والكبير من أجل فكاهـة، وهو لم يسـتطع غفران ذلك. لقـد اعتملت الرغبة بالثأر في نفسـه، كلولب لُفَّ بشدة، في كل لحظة، وكل وقت.

وفي صبيحة أحد أيام الصيف الحارة جدا، حيث تكونُ السـماء شـديدة الزرقة، قرّر زميلا إيفانوف أن يرتاحا لساعة من الزمن، خاصة أنه، في ذلك الوقت من اليوم، لم يكن هناك زبائن تقريبا، أما صاحب العمل، الذي كاد يموت من شـدَّة الحر، ومن الرغبة الناضجة منذ مدة، قاد فتاة التزيين الشاحبة، المستعدةَ لكل شـيء، بصمـت إلى الغرفة الخلفيـة. وعندما بقي إيفانـوف وحيدا في المحل المضـيء، قلّب الجريدة، ثم، وبعد أن دخَّن سيجارة، خرجَ إلى عتبة المحل، أبيضَ، وراح يراقب المارة.

كان الناس يَلُوحون من حين لآخر مع ظلالهم الزرقاء الداكنة، التي كانت تتكسـر على أطراف الرصيـف، وتنزلـق بجرأة تحـت عجلات السـيارات اللامعـة، تاركة على الإسـفلت الحـار خطوطا، تشـبه جلد الأفعـى المرقطة. وفجأة اسـتدار رجل ممتلئ الجسـم، قصـير القامة، ببزة سوداء، وقبعة، يحمل حقيبة سوداء تحت إبطه، من على الرصيـف. أفسح إيفانوف، وهو يصر عينيه بسبب الشمس، الطريق للرجل ليدخل إلى محل الحلاقة.

عندهـا انعكـس الرجـل القـادم في كل المرايـا دفعة واحـدة.. بالوضع الجانـبي، وبالوضع النصفـي، ثم بانت صلعته الشـمعيّة، عندمـا وقف ليضع قبعته السـوداء على الشَّمّاعة. وعندما اسـتدار بوجهه نحو المرايا اللامعة فوق البسـطات المرمرية، التي لونتها زجاجات العطر الصغيرة بألوان ذهبية وخضـراء، عرف إيفانـوف من توّه ذلك الوجهَ المنتفخ الأوداج، والمتغـير، ذا النظرات الثاقبة، والحبَّةِ الخَلقيَّة عند الجانب الأيمن من الأنف.

جلـس الرجل صامتا أمام المرآة، وراح ينقـر نقرات مكتومة على خده غير الحليـق، ثـم تمتم بكلام مـا، فُهِمَ منه أنـه يريد أن يحلـق. راح إيفانوف، وقد كان في ضـرب من ضباب الدهشة، يلفّ الرجل بملاءة، وصنع رغوة دافئة في فنجان خزفي، وراح يطلي وجنتي الرجل وذقنه الدائري وشفته العليا بالفرشاة، ومـرّ عن الحبة بحذر، وراح يزيـل الرغوة بسـبابته... وكان يقوم بكل تلك الحركات بشكل آلي... فقد اهتز كيانُه كلُّه بمجرد لقائه بذلك الشخص مرة أخرى.

الآن أصبـح وجـه الرجـل كلُّه حتـى عينيه مغطـىً بكتلة مـن الرغوة البيضاء الرخوة، تلكما العينين الصغيرتين اللامعتين مثل عجلاتِ السـاعة المسنَّنة. فتح إيفانوف الموسـى، وعندما صار يشحذها على الحزام الجلدي، عاد إلى رشـده مـن حالة الدهشـة التي أصابته، وشـعر أن ذلك الشـخص يقع ضمن حدود سلطته.

قـال بصوت هادئ، وهـو يميل عبر الصلعة الشَّـمعيَّة، مقرِّباً حد الموسـى الأزرق إلى القناع الصابوني:

- احتراماتـي، أيهـا الرفيق! هل أنت من سـكان منطقتنا هذه منذ أمد بعيد؟ لا، أرجوك، لا تتحرك، إذ أنني يمكن أن أجرحَك فورا.

عجلات مسـننات السـاعة المتلألئة راحت تتحرك بشـكل سـريع، تُلقي نظرة على جانب وجه إيفانوف الحاد، ثمَّ تتوقف.

أزال إيفانوف الرغوة القطنية الزائدة بواسطة الطرف غير الحاد للموسى، وتابع كلامه:

- أنـا أعرفك جيـدا، أيهـا الرفيـق...، عـذراً، إذ أنه لا يريحني لفظ اسـم عائلتـك. أذكر تمامـا كيف حققت معي في خاركوف، منذ سـت سنوات. أذكر توقيعك، يا عزيزي... لكن، كما ترى، ما زلت حيا.

عندها حدث ما يلي: راحت العينان الصغيرتان تتحركان بسرعة، وفجأة أُغلِقتـا بإحـكام. أغمض الرجـل عينيه، تماما مثـل الإنسـان البدائي، الذي كان يعتقد أنه لا يعود مرئيّاً فيما لو أغمض عينيه.

كان إيفانـوف يجر الموسـى بلطف على الخد البـارد، الذي كان يُصدر خشخشـة، واسـتطرد: «نحن وحدنا، تمامـا، أيها الرفيق. هل تفهم؟ الموسـى لا تنزلق هكذا، وسـتكون هناك دمـاء كثيرة. هنا ينبـض الأورطي. كثيرٌ من الـدم، حتى إنه كثيرٌ جدا. لكن، قبل هذا، أريـد أن يكون وجهك حليقاً علـى أفضل ما يكون، إضافة إلى ذلك، أريد أن أُحدِّثك بشـيء...»، ومع ذلك رفع إيفانوف بإصبعين شحمة أنفه وراح يحلق المساحة فوق شفة الرجل العليا بلطف.

- الأمـر على النحو التالي، أيها الرفيق! إنني أذكر كلَّ شـيء، أذكر بشكل ممتاز، وأريدك أن تتذكرَ أنت...

وراح إيفانـوف يتحـدث بصـوت هـادئ، وهو، غير متسـرع، يحلـق الوجه السـاكن، المرتدَ إلى الخلف. لا بد أن الحديثَ كان مخيفا جدا، إذ أنَّ يدَه نادرا ما كانت تتوقف، وكان قد انحنى قريبا جدا فوق السـيد الذي كان يجلس كالميـت، مكفّناً بالملاءة البيضاء، مغمضاً جفونه المنتفخـة. تنهّد إيفانوف

وهو يقول:

- هذا كل شـيء، هذه هـي القصة كلها. مـا رأيك، كيف يمكن غفـران ذلك؟ مع ماذا يمكن مقارنة السـيف الحـاد؟ وفكّر أيضا: نحن وحدنا، وحدنا تماما.

استطرد إيفانوف وهو يمرّر الموسى على رقبته المشدودة من الأعلى إلى الأسفل:

- إنهم عـادة يحلقـون للمتوفى. ويحلقـون أيضـا للمحكومين بالإعدام. لذلك أنا أحلق لك. هل تدرك ما سوف يحصل الآن؟

كان الرجل جالسا لا ينبس بشيء، ولا يفتح عينيه. أُزيلَ، الآن، عن وجهه قناعُ الصابون، لم يبقَ للرغوة آثار سوى على الوجنتين، وقرب الأذنين. كان ذلك الوجه المتوتر، الخالي من العيون، الممتلئ، شاحباً، لدرجة أن إيفانوف اعتقد أنه قد يكون أُصيبَ بالشلل، لكن عندما وضع جانب الموسى على وجنته، راح بدن الرجل يرتجفُ. ولم يفتح عينيه وكما سبق.

مسح إيفانوف الوجه بالمنشفة بعجلة، ونفخ عليه البودرة من زجاجة النفخ. وقال بهدوء:

- سأكون مسرورا منك، يمكنك الرحيل.

فك الملاءة عن كتفيه بسرعة واشمئزاز. لكنَّ الرجلَ ظل جالسا. صاح إيفانوف رافعا إياه من كمه:

- انهض، أيها الغبي!.

جمد الأخير بعينيه محكمتي الإغلاق، وسط الصالة. وضع إيفانوف على رأسه القبعة، ودس الحقيبة تحت ذراعه... وأداره باتجاه الباب. عندها، فقط، تحرك الرجل، لمع وجهه بعينيه المغمضتين في جميع المرايا؛ ومثلَ

بندقية رشـاش اجتاز عتبة الباب، الذي تركه إيفانوف مفتوحا، ومضى بنفس الخطـوات الميكانيكية، ضاما الحقيبة بيده المتخشـبة، كتمثال يوناني، ناظرا بعينيه نحو الهباء في الشارع الذي صنعته أشعة الشّمس.

عِفريت الغابة

لقد دوّرتُ ظلّ الحبر المرتجف بالريشة شارد الذهن. دقت الساعة في الغرفة البعيدة، هيئ لي أنا الحالم، أن أحداً ما يطرق الباب... في البداية كان الطرق خفيفاً، ثم أخذ يتعالى، دق اثنتا عشرة دقّةً متتالية، ثم توقَّف في اللحظة المناسبة.

- نعم، أنا هنا، ادخل...

أصدر مقبض الباب صريراً على استحياء، وتمايلت ذؤابة الشمعة الباكية. لاح فجأة من مثلث العتمة – مقوَّسَ الظهر، رمادياً، خالط البياضُ رأسه، الذي كان يغطّيه، في الليل الصقيعيّ المليء بالنجوم، غبارُ الطلع مثل الثلج... عرفت وجهه... آخ، لقد عرفته منذ أمدٍ بعيد:

نهضتُ.. تقدّم هو إلى الأمام.

كان مِعطفه الرديء مزرَّرا بطريقة نسائية، غير صحيحة، كان يحمل بيده قبعة فراء.. لا، بل كان يحمل لفة قاتمة، ورديئة.. لم تكن قبعةً على أي حال...

نعم، طبعاً، فقد عرفته.. بل، يمكن القول، إنني أحببته... لكنني لا أستطيع بأي حال من الأحوال تذكر متى وأين التقيته، لكنّنا بالتأكيد، التقينا كثيراً، بخلاف ذلك لم يكن باستطاعتي تذكر هاتيك الشفتين اللتين تشبهان عنب البقر بشكل مؤكد، والأذنين المستدقتين، و«تفاحةَ آدم» المثيرةَ للضحك...

شـددت على يده الخفيفة، الباردة متمتماً بعبارات الترحيب، ولمست ظهر الكرسـي الهرم. جلس، مثل غراب على جيفة، تكلّم بعجلة:

- الوضـع في الشـارع مخيف، لذلـك عرّجت عليـك لأراك. هل عرفتني؟ لقد رتعنا سـوية أياماً ليسـت قليلـة، تداعينا... هنـاك... على أرض الوطن... هل حقيقة نسيت؟.

لقـد أعماني صوته بمعنى الكلمة، عيناي غامتا بالألوان، رأسـي دارت، تذكَّرت السعادة المدوية المفرطة، السعادة التي ذهبت بلا عودة...

لا.. لا يمكـن ذلـك: أنا – وحيـد... كل هذا مجرد هذيـان متقلب: لكن إلى جانبي كان يجلس حقيقة شـخص ما... عظامه ناتئة، أخرق، يرتدي جزمة ألمانيـة لها آذان كبيرة، وصوته له رنين وحفيـف، صوتٌ ذهبيٌّ، غضٌ – أخضـر، أليفٌ، أما كلماته فكانت بسيطةً، بشـريّة...

- لقد تذكَّرت....

- نعم، أنا عِفريت زمان، شـيطنةٌ متحمسـة... لكـن حتى أنا كنت مضطرا للهرب...

تنفس عميقا، وقد أذهلتني مجددا السـحبُ المضطربة، وأمواج أوراق الشجر العالية، ولمعانُ جذوعِ (البتولا) التي تشبه رذاذ الزبد، وهدير القطار الأزلي المحبب... انحنى فوقي، نظر في عيني بلطف.

- أتذكـر غابتنـا، غابـة السـرو الأسـود، والبتـولا البيضـاء؟ لقـد احتطبوهـا... من المؤسـف أنني لم أحتمـل رؤية البتـولا تذبل وتجفّ، بمـاذا يمكـنـي المسـاعدة؟ لقـد سـاقوني إلى المسـتنقع، بكيت، وأعولت، وسـقطت سـقوطاً مدوياً، وقفـزةً فقفـزةٍ، وإذ أنا في أجمة الصنوبر.

لقد اشتقت هناك، لم يكن بإمكاني أن أوقف النشيج... فقط استطعت أن أعتاد الأشياء... انظر، لم تعد توجد أجمة صنوبر.. قارٌ رمادي مزرقٌ، وحسب. كنت مضطراً للتجوال مجدداً. لقد بحثت لنفسي عن غابة صغيرة... كانت هناك غابة جميلة، ونظيفة، وكثيفة، ومعتمة، ونضرة... لكنْ ظلَّ هناك شيءٌ مفقود... كان يحدث أن ألعب من شروق الشمس حتى غروبها، أصفُرُ بجنون، أصفِّق بكفيَّ، أُخيف المارَّة... أنت تذكر: لقد تهت مرةً في أجمتي الكثيفة.. كنت برداء أبيض... أما أنا فقد ربطت على وسطي حزاماً، وغطيته بالأغصان، وزينته بأوراق الشجر... طول الليل ضللتني... لكني قمت بذلك فقط من أجل الدعابة، عبثا كانوا قد سوَّدوني... في تلك اللحظة استسلمت، كان الأمر لا يبعث على السرور.. نهاراً وليلاً كانت أشياء تتصدع من حولي. فكَّرت بداية.. أخي العفريت يتلهى، يُسلِّي نفسه هناك؛ ينادي، يجيب. يصرخ، ينفجر... لا، لا تخرج على طريقتنا. مرة، قبيل المساء، قفزت إلى الممر في الحرج... أرى، ناسا مستلقين.. بعضهم على ظهره، وبعضهم على بطنه. لكنْ، أفكّر، فلأوقظهم، فلأهزهم: رحت أوقظهم بواسطة الأغصان، أداعبهم بأكواز الصنوبر، أُصدر حفيفاً، أزعق مثل قطار.. مرت ساعة كاملة.. انتهى كل ذلك إلى لا شيء، وعندما أمعنت النظر، توقف نفسي، أحدهم كان رأسه معلقاً بخيط أحمر، آخر كان بطنه... كومة من الديدان السمينة... لم أستطع احتمال ذلك. صرخت، قفزت، ورحت أركض...

تهت طويلا في غابات مختلفة، لكن لم تواتني الحياة، تارة هدوء، وقفار، وضجر قاتل. الرعب كان فظيعاً لدرجة يمكن تذكره: أخيراً حسمت أمري: تحوَّلت إلى فلاح صغير، إلى جوّال بحقيبة على الظهر، وخرجت نهائياً. وداعاً روسيا: لكن حتى هناك، كما قال، أي لحظات مرّت بي، أيها الأخ... مصيبة، باختصار. وهنا يقال: رغم أنه كان في سالف الأزمان لاهياً، وكان يستدرج الناس(فقد كان مضيافاً جداً)، إلا أنه كان يدلّلهم، ويلاطفهم بضيافته في اليوم الذهبي، وبأي أغانٍ سَحرهم. أما الآن، يقول، فقط حيث جثث الموتى كانت تعوم، بعدد لا يحصى، أما الرطوبة النهرية فقد كانت مثل خام كثيف، دافئة، ودبقة، لم يكن مجال للتنفس... لقد أخذني معه. جاب

هـو أنحاءِ العالم في البحـر البعيد، وأنزلـني في طريقه على شـاطئ ضبابي... أذهبُ، أيها الأخ، لأجد لنفسـي جِذعاً. لم أجد شـيئاً، ووجدت نفسـي هنا، في هذه المدينة الحجرية، المخيفة، الغريبة... وها أنا أصبح إنسـانا، قمصان بياقات منشاة، أحذية، كما يجب... حتى إنني تعلمت الكلام بلغتهم.

صمـتَ. لمعت عيناه، مثـل أوراق مبللة، وكانت يـداه متصالبتين، وتحت ضوء الشـمعة الذائبة المتمايل، لمع شعره الشـاحب المفروق إلى اليسار بشكل غريب.

- أعرفُ، أنت أيضا تحنُّ.. مـرة أخرى صدر صوت واضح.. لكن حنينك، بالمقارنـة مـع حنيني المتأجّـج، المدوِّي مثـل ريح، ليس إلا نفسـاً هادئاً، نائماً. فكِّرْ فقط: لم يتبق أحد من قبيلتنا على أرض روسـيا. بعضهم حلَّق بالضبـاب، آخرون هاموا في العالم. أنهارنا حزينة، النهر الرشـيق لم يعـد يعكس ضوء القمـر، الأجراسُ الصغيرة المتهشـمة الحواف... السـناطير[1] الزرقُ السـابقة عند بوليفوي[2] المرح، منافسـي. بوستين الأشـعثُ، المدلل، غادر منزلَك المخزي، المتهتـك باكِياً، وذوت الأجمات الساحرة، المشـرقة برقة...

نحن إلهامُك، يا روسـيا، و نحن جمالُك العصـي على الإدراك، نحن فتنتُك الأزليةُ... غادرنا جميعاً، المطرودون من الأرض والبحر المجنونين.

صديقي، سـوف أموت قريباً، قل لي شـيئاً، قل لي إنك تحبني، أنا الشـبح المشـرد، اجلسْ قريباً مني، أعطني يدك...

انطفأت الشـمعة مصدرة خشخشـة. لامسـت الأنامل الباردة كفَّ يدي، دوى ضحِـكٌ معـروف، حزينٌ ثم خبا. عندما أعدت إشـعال النـور، لم يكـن أحد هناك على الكنبة.. فقط كانت الغرفة تعبق برائحة البتولا والوطبِ الرطب.

---

١ ـ آلات موسـيقية.

٢ ـ كاتب روسـي.

ناديجدا لوخفيتسكايا (تيفي)

(١٨٨٩-١٩٢٤)

- المرأة الجنية.
- خروف غير حي.
- زمن الكلاب.
- عندما يصفر السلطعون.
- يافدوخا.
- الفتاة السعيدة.
- سحر الشرق.
- نحو نظرية الحب.
- أُنجِزَ العمل.

ناديجدا لوخفيتسكايا (تيفي)

اسم الشهرة لها تيفي. ولدت في روسيا قبل الثورة الاشتراكية. وحسب أقوال المعاصرين لها، فإنها كانت تفاخر بكل شيء، بدءاً من موظفي البريد والتلغراف وانتهاء بالإمبراطور نيكولاي الثاني.

هاجرت بعد الثورة، وواصلت مسيرتها الإبداعية في الخارج بنفس النجاح. مقالاتها وقصصها الساخرة كانت تظهر أسبوعيا حادة الذكاء، قاسية، وكان القراء ينتظرونها. إن نظرات الكاتبة الثاقبة كانت تلاحظ كل تفاصيل حياة المهاجرين. وكما أوضحت تيفي: «أن تعطي الإنسان فرصة الضحك أو الابتسام لا تقل أهمية عن تقديم الحنان للمعدم الفقير. عندما تضحك، فإن الجوع لا يعود معذبا. من ينام يكون قد تعشّى، وباعتقادي فإن من يضحك يكون قد شبع حد التخمة»

لم يصبح هذا الشعار شعاراً أدبياً، وحسب، بل وعقيدة حياة، لأن الكاتبة كانت تعيش ظروفاً مادية صعبة. وفي كل الأحوال، فإنها كانت تحوّل أي لقاء إلى عيد. وقد قدّمت صورا لأكثر الناس كسلا، وإثارة للملل والضجر.

وبصرف النظر عن شهرتها الواسعة، إلا أن فكرة أن ترحل عن هذا العالم دون أن تترك أثرا ظلت تؤرقها. لقد اعتبرت قصصها الساخرة الرائعة قصص «الحياة اليومية»، لذلك يرى النقاد أن قصص تيفي مادة صالحة لأن تكون شاهدا على العصر.

المرأة الجنية

تختلف المرأة الجنية عن المرأة العادية، قبل كل شـيء، بأسلوبها باللباس. إنها تلبس غفارة مخملية، وسلسلة على جبينها، وسِوارا على ساقها، وخاتما بفتحة «من أجل سيانيد البوتاسيوم الذي سيرسلونه لها يوم الثلاثاء القادم»، وخنجرا دقيقا خلف الياقة، وسبحة على المرفق، وصورة أوسكار وايلد على مشد الخصر من جهة الشمال.

وتحمل، كذلك، بعض أدوات التجميل النسائية العادية، لكن، ليس في المكان المخصص لها في العادة. فتسمح المرأة الجنية لنفسها، على سبيل المثال، بارتداء الحزام على الرأس، والحَلَق على الجبهة أو على العنق، والسِوار على الإصبع الكبير، والساعة على الساق.

لا تأكل المرأة الجنية شيئا على الطاولة. إنها، بشكل عام، لا تأكل شيئا على الإطلاق.

- من أجل ماذا؟

يمكن للمرأة الجنية أن تشغل أي مكان في الوضع الاجتماعي، لكنها على الأغلب تكون – فنانة، وأحيانا تكون، ببساطة، امرأة مطلقة.

لكنّ لديها دائماً سراً ما، وهو ليس خَوْرا، ولا انفجارا لا يمكن الحديث عنه، ولا يعرف به أحد، ولا يجدر بأحد أن يعرفه.

- من أجل ماذا؟

الحاجبان لديها مرفوعان ببقع مأساوية، والعينان جاحظتان حتى نصفهما.

تقول فجأة لشريكها الذي يوصلها إلى منزلها بعد حفلة الرقص، فاتحا حديثا غامضا حول جماليات الشهوة الجنسية من وجهة نظر عالم جمال الشهوات:

- لنذهب إلى الكنيسة، يا عزيزي، لنذهب، وبسرعة، بسرعة. أريد أن أصلّي وأبكي، قبل أن ينبلج الفجر.

الكنسية تكون مغلقة ليلا.

يقترح عليها شريك الرقص اللطيف أن تبكي عند أطناف الكنيسة، لكنها «هي» تكون قد خمدت. إنها تعرف بأنها ملعونة، وان لا منجد لها، فتنكِّس رأسها، غامرة أنفها في فرو الشال.

- من أجل ماذا؟

المرأة الجنية تشعر دوما بانشداد نحو الأدب. وهي كثيرا ما تكتب القصص في السر والشعر المنثور كذلك. وهي لا تقرأها لأحد.

- من أجل ماذا؟

لكنها تقول بشكل موارب، إن الناقد المعروف الكسندر الكسيفيتش قرأ مخطوطها، بعد أن حصل عليه مغامرا بحياته، ثم راح يبكي طوال الليل، حتى إنه، على ما يبدو، صلّى - الفكرة الأخيرة، غير مؤكدة، على أي حال. في حين تنبأ كاتبان لها بمستقبل عظيم، إذا ما وافقت هي أخيرا على نشر مؤلفاتها. لكن الجمهور لا يمكنه فهم تلك المؤلفات، وهي لن تكشفها للجمهور.

- من أجل ماذا؟

ليلا، عندما تبقى وحيدة، تفتح طاولة المكتب، تستخرج الأوراق المطبوعة على الآلة الكاتبة باهتمام، وتروح تمحو بالممحاة الكلمات المرسومة..

«ورا...»، «نحو الورا...».

- لقد رأيت نورا في نافذتك في الخامسة فجرا.

- نعم، لقد كنت أعمل.

- إنك تُودين بنفسك إلى التهلكة، يا عزيزتي! حافظي على نفسك، من أجلنا!

- من أجل ماذا؟

خلف الطاولة، المصنوعة من أشياء لذيذة، تلقي بنظرات مشدودة بقوة لا تقهر، نحو الخنوص المذاب.

تقول جارتها البسيطة، غير الجنية، التي حلقها على أذنها، وسوارها على معصمها، لا في مكان آخر:

- ماريا نيكولايفنا، ماريا نيكولايفنا، أعطني، من فضلك، نبيذا.

تغطي المرأة الجنية عينيها بيديها وتتحدث بصوت هستيري:

- نبيذ! نبيذ! أعطيني نبيذا، أريد أن أشرب! سأشرب! لقد شربت بالأمس! أنا أشرب لليوم الثالث... نعم، وغدا سأشرب! أريد، أريد، أريد نبيذا!

ما المأساة في أن تشرب سيدة حقيقة، شيئا قليلا لمدة ثلاثة أيام متتالية؟ لكن المرأة الجنية لديها المقدرة على طرح المسالة، بحيث تجعل الشَعر على الرؤوس جميعها يقف.

- تشرب.

- يا لها من امرأة مثيرة غامضة!

- وتقول، إنها غدا ستشرب...

وستقول، تبدأ المرأة البسيطة باحتساء النبيذ!

- من فضلك يا ماريا نيكولايفنا، أعطني قطعة من الفْسيخ. أحب البصل.

تفتح السيدة الجنية عينيها على اتساعهما، وتصيح ناظرة إلى الأفق البعيد:

- فْسيخ؟ نعم، نعم، اعطني فسيخا، أريد أن آكل الفسيخ. هل هذا بصل؟ نعم، نعم، اعطني بصلا، أعطني كثيرا من كل شيء، فسيخ، بصل، أريد أن آكل، أريد قاذورات، بسرعة... أكثر... أكثر، انظروا جميعا.. إنني آكل الفسيخ!

ماذا حدث في الحقيقة؟

لقد تحركت الشّهية، وحدث انشداد إلى الموالح! وأي تأثير!

- هل سمعتم؟ هل سمعتم؟

- لا يجوز تركها وحيدة هذه الليلة.

- إنها، على الأغلب، ستنتحر بواسطة سيانيد البوتاسيوم، الذي سيحضرونه لها يوم الثلاثاء...

تصادف لحظات غير ممتعة وغير جميلة، عندما تغرز المرأة العادية نظراتها بغباء في الأرفف، وتتوهم وجود منديل بيدها، وتقول وشفتاها ترتجفان:

- إنني، في الحقيقة، لا أريدها لمدة طويلة... أريد خمسة وعشرين روبلا، فقط. آمل أنني سأتمكن في الأسبوع القادم، أو في كانون الثاني من...

الجنية تلقي بصدرها على الطاولة، ممسكة ذقنها بقبضتي يديها، ناظرة إلى روحك مباشرة بعينين غامضتين نصف مغمضتين:

- لماذا أنا أنظر إليك؟ سأخبرك. اسمعني، انظر إلي... أريد... أتسمعني؟ أريد أن تعطيني الآن، هل تسمع؟ الآن خمسة وعشرين روبلا. أريد هذا. هل تسمعني؟ أريد أن تمنحني، أنا بالتحديد، خمسة وعشرين روبلا. أنا مخلوووق!... والآن اذهب.. اذهب...، اخرج بسرعة، لا تستدر، بسرعة... هههههههههه!

يجب أن يهز الضحك الهستيري كل كيانها، بل كيانيهما معا – هو وهي.

- بسرعة.. بسرعة، دون أن تستدير... اخرج إلى الأبد، مدى الحياة، مدى الحياة... ههههههه!

أما هو، فإنه «سيهتز» بكيانه، دون أن يدرك أنها بكل بساطة اختطفت منه الربعية[1] دون أن تعيدها.

- أتعرف، لقد كانت اليوم غريبة، غامضة. طلبت أن لا أستدير.

- نعم. يوجد هنا سر ما.

- يمكن أن تكون... أحبتني..

- !

- إنه سر!...

١- خمسة وعشرون روبلاً [المترجم] .

خروف غير حي

كان الوضع مفرحا عند شجرة عيد الميلاد. لقد وصل الكثير من الضيوف، الكبار منهم والصغار. كان بينهم طفل، همست بشأنه الحاضنة لكاتيا بأنه جُلِدَ هذا اليوم. كان ذلك مثيرا بالنسبة لكاتيا، بحيث أنها لم تبتعد عنه تقريبا طول المساء؛ وكانت تنتظر طول الوقت، أن يقول شيئا ما، شيئاً مميزا، وكانت تنظر إليه بكل احترام ورهبة. لكن الولد المجلود تصرف بشكل اعتيادي تماما، ألحّ على طلب الكعك، ونفخ بالبوق، وصفق بيديه، مما جعل كاتيا تشعر بالإحباط، وتبتعد عنه.

شارف المساء على الانتهاء، راحوا يجهّزون الصغار الصاخبين من أجل العودة، عندما تسلمت كاتيا هديتها الأهم – خروف الفرو الكبير. كان طريا، برأس مستطيل وديع، وعينين مثل عيون البشر، وكان يفوح برائحة الصوف المحمض، وإذا ما شُدّ رأسه إلى الأسفل، فإنه يثغو بوداعة: ماع! لقد أدهش الخروف كاتيا بمنظره، ورائحته، والبقع الداكنة على فروته، لدرجة أنها سألت والدتها حتى تريح ضميرها:

- أهو حي، يا ترى؟

أشاحت الأم بوجهها، الذي يشبه وجه العصفور ولم تقل شيئا؛ إنها منذ زمن بعيد لا تجيب على أسئلة كاتيا. دوما، لا وقت لديها لأي شيء. تنهدت كاتيا وذهبت إلى المطبخ لتسقي الخروف لبناً. دست إناء الحليب في وجهه مباشرة، بحيث أنه بلله حتى عينيه. اقتربت منها سيدة غريبة، هزّت رأسها وقالت:

- أوي – أوي، ماذا تفعلين! هل يجوز إطعام خروف غير حي لبناً

حقيقيا! إنه يحتاج إلى إناء فارغ، هكذا.

وغرفت الهواء بكوب فارغ، وقدمت الكوب للخروف متمتمة بشفتيها.

- فهمت؟

- فهمت، لكن لماذا نقدم للقطة لبناً طازجا؟

- لأن ذلك ضروري. لكل حيوان عاداته. للحيوان الحي لبن حقيقي، ولغير الحي لبن غير حقيقي.

سكن خروف الفرو في غرفة الأطفال، في الركن، خلف صندوق الحاضنة. كانت كاتيا تحبه، وبسبب ذاك الحب، صار الخروف كل يوم أكثر اتساخاً، ولم تكن الأم تسمح لها بإجلاسه على مائدة الطعام.

لم يعد الوضع على مائدة الطعام مفرحا. الأب كان يصمت، وكذلك الأم. لم يكن أحد يلتفت إلى كاتيا وهي تؤدي التحية، بعد تناول الفطائر، منحنية قائلة بصوت رقيق من فتاة ذكية:

- ميرسي، بابا، ميرسي، ماما!

جلسوا مرة لتناول الغداء من دون الأم. عادت الأم إلى البيت بعد تناول الحساء وصاحت، وهي ما تزال في مدخل المنزل، قائلة: إن خلقا كثيرين كانوا في ملعب التزلج. وعندما اقتربت من المائدة، رمقها الأب بنظراته، وفجأة أسقط إبريق الماء على الأرض. صاحت الأم:

- ما بك؟

- إن «بلوزتك» مفتوقة من الخلف.

وارتفع صوته وهو يهذر بأشياء أخرى، لكن الحاضنة خطفت كاتيا من على الكرسي وأخذتها إلى غرفة الأطفال.

بعـد ذلك لم تر كـاتيـا لا أمها ولا أبيهـا لأيام طويلة، والحيـاة كلها مرت هكذا، غير حقيقية. أحضـر لها الخدم طعام الغداء من المطبخ، دخلت الطباخة، تهامست مع الحاضنة:

- تقـول لـه... أما عينـاه... إنها تقـول...! تقـول لـه.. يقـول لها...

تهامسن، أصدرن حفيفا بملابسهن.

نسـاء بوجوه ثعلبيـة رحن يدخلن مـن المطبخ، يلقين نظـرة على كـاتيا، يسألن الحاضنة، يتهامسن معها، يتُصدر ملابسهن حفيفاً:

- يقـول لها... اخرج... تقـول لـه...!

كانت الحاضنـة تخرج عادة من الحـوش. عندها تغلق النسـاء الثعلبيات غرفـة الأطفال على أنفسـهن، يفتشـن في الزوايـا، ويهددن كـاتيـا بالأصبع المعوجة.

إن الحال من دون تلك النسوة لن يكون أفضل، بل سيكون مخيفا.

لم يكن مسـموحا المشـي في الغرف الكبيرة: صمت مدو. الستائر على الأبواب يطيّرها الهواء، والساعة على الحجر تتُك بشدة. وفي كل مكان كان «هذا»:

- تقـول لـه.. يقـول لها...

في غرفـة الأطفال أعتمت الزوايا قبيل الغداء، بل راحت تتحرك. في الزاويـة فرقعـت نـار الموقد – ابنـة صانع المواقـد كـانت تنقـر على باب الموقـد، تصـرف أسنانها الحمراء ملتهمة الحطب.

ما عادت الأشياء هادئة، كما كانت من قبل.

كانت الحياة هادئة فقـط خلف الصندوق، حيث كان يسـكن خروف الفرو. كان يتغذى على الأقلام، وشـريط زينة قديم، ونظارات الحاضنة... وما

يبعث به الله، وكان ينظر إلى كاتيا بطيبة، بعينين وادعتين، لا يعارضها بشيء، ويفهم كل شيء تقوله.

استرسلت، مرة، باللعب والضجيج، أما هو فإنه.. أدار رأسه إلى هناك، وواضح أنه كان يضحك. وعندما ربطت كاتيا رقبته بخرقة فوق حلقه، فإنه اعتلّ بشكل محزن، لدرجة أنها بكت بهدوء.

كانت الأمور أسوأ ليلا. كان العويل والثغاء يرتفعان في أرجاء البيت،. كانت كاتيا تستفيق، وتنادي على الحاضنة، التي بدورها تحاول إنامتها:

- كش! نامي! الجراذين تتراكض، ها هي ستقضم أنفك!

تشد كاتيا الغطاء على رأسها، تفكر بخروف الفرو، وعندما تشعر كما لو أنه أحد أقاربها، وأنه إلى جوارها، فإنها تغفو بهدوء.

كانا، مرة، هي والخروف، ينظران من النافذة الصغيرة. شاهدا، فجأة، شيئاً بنّياً يمشي خببا في الحوش، حالِت الشعر، يشبه القط، ما عدا ذيله الطويل.

- نانا، نانا[1]! انظري، أي قط قذر!

اقتربت الحاضنة، مدت عنقها من النافذة:

- إنه جرذ، وليس قطا! جرذ. يا له من جرذ معافى! مثله يستطيع عض أي قط! جرذ!

لقد قالت تلك الكلمة بطريقة مقززة، ماطة شدقها، وكما القطة الهرمة، صرفت أسنانها لدرجة أن باب المعدة عند كاتيا راح يؤلمها من التقزز.

أما الجرذ، فقد تمرغ على بطنه، ثم خطى خببا إلى العنبر المجاور بخبرة عملية، وبعد أن جلس قليلا، تسلل من تحت درفة الباب إلى القبو.

١- نانا: اسم تنادى به الحاضنة المنزلية [المترجم].

جاءت الحاضنة، وتحدثت قائلة، إن الجراذين تكاثرت لدرجة أنها قريبا ستأكل رؤوس الناس.

لقد قرضت كل الزوايا في مستودع المؤن عند صندوق الخروف. يا ـ لها من وقحة! أدخل، أجده جالسا لا يلبط!

النسوة الثعلبيات جئن مساء، أحضرن زجاجة وسمكا عفنا. احتسين النبيذ، وضيفن الحاضنة، وبعد ذلك أخذن بالضحك من شيء ما. قالت أسمنُهِنّ:

- أما زلت مع الخروف؟ لقد حان وقت إرساله إلى المسلخ. انظري إلى رجله المتأرجحة، وفروه الذي نسل صوفه. وقريبا....

قاطعتها الحاضنة قائلة:

- توقفي عن تحرشك، ما بك تسيئين إلى اليتيمة.

- إني لا أضايقها، لقد قلت شيئاً واحداً فقط، قلت إن حشوته الليفيّة تخرج منه، و.... النهاية. الجسم الحي يأكل ويشرب، لذلك هو يعيش، أما الخرقة، مهما حاولت إرضاعها، ستبلى في كل الأحوال. على أي حال هي ليست يتيمة، فأمها، يمكن أن تمر مسافرة من أمام البيت، وقد تضحك مغلقة فمها بقبضة يدها. هههههههه!

غشيت النسوة من الضحك، أما الحاضنة، فقد غمست قطعة من السكر في قدحها، وقدمته لكاتيا حتى تمصه. علق شيء ما في حلق كاتيا من قطعة السكر، صوت راح يرن في أذنيها، شدّت الخروف من رأسه.

- إنه ليس عاديا، إنه يثغو، أتسمعين؟

قهقهت السمينة مرة أخرى وقالت:

- هاـ ها! يا لك من غبية! اسحبي الباب وسيصدر صوتا. لو كان حيا، لثغا بنفسه.

النسوة شربن المزيد، ورحن يتبادلن كلمات عتيقة همسا:

- إنه يقول لها... اخرجي... وهي تقول...

أما كاتيا فقد اختفت مع خروفها خلف الصندوق وصارت تتعذب.

الخروف غير حي. سيموت. حشوته ستخرج، و... النهاية، لو أنه يستطيع أن يأكل شيئاً كيفما كان!

تناولت كاتيا قطعة خبز مجفف عن حافة النافذة، دستها في فم الخروف، وأدارت وجهها حتى لا تُخجله. قد يقضم منها قليلا... انتظرت، ثم استدارت ـ لا، الخبز لم يمس.. «علي أن آكلها أنا، لعل ضميره يؤنبه».

قضمت قليلا من طرفها، ثم دستها في فمه مجددا، استدارت، انتظرت. للمرة الثانية لم يقترب الخروف من الخبز.

- ماذا؟ ألا تستطيع؟ أنت غير حي، لا تستطيع!

أجاب خروف الفرو، غير الحي، برأسه الوديع الحزين:

- أنا لا أقدر، أنا غير حي، لا أستطيع!

- ها، ناديني بنفسك! قل: ماع! ماع! ألا تستطيع؟ لا تستطيع!

- وقد تعذبت روحها، وشدها الحنين بسبب حبها للخروف المسكين، غير الحي وحزنها عليه. غفت على وسادتها التي ابتلت بالدموع، وذهبت فورا للتمشي على الطريق العشبية الخضراء، وكان الخروف يركض إلى جانبها، يرعى العشب، ويثغو بنفسه «ماع، ماع» ويضحك. آخ، كم هو معافى، إنه سوف يعيش أكثر من الجميع.

كان الصباح كئيبا، كدرا، مقلقا. ومن دون انتظار، أُعلن عن ظهور الأب. جاء مبتلا كله، غاضبا، كثّ اللحية. ألقى من تحت حاجبيه نظرات

تيس على الجميع. مد يده لكاتيا حتى تقبلها، وأمر الحاضنة بإعداد كل شيء، لأن المُدرسة ستأتي، ثم خرج.

في اليوم التالي سمعت صلصلة في المدخل الأمامي، أسرعت الحاضنة، ثم عادت مرتبكة:

- جاءت مدرستك، وجهها مثل وجه كلبة، سترينها بنفسك!

جاءت المدرّسة، عُرفت من طقطقة كعب حذائها، مدّت يدها لكاتيا حتى تقبلها. لقد كانت فعلا تشبه كلب حراسة عجوزا وذكيا، حتى إن بقعا صفراء كانت قرب عينيها مثلما عند الكلاب، أما رأسها فقد كان يتحرك بسرعة، وكانت أسنانها تصرف، كما لو كانت تصطاد ذبابة. عاينت غرفة الأطفال وقالت للحاضنة:

- هل أنت الحاضنة؟ من فضلك، اجمعي كل هذه الألعاب وأخرجيها بعيدا، حتى لا تراها الطفلة. أخرجي جميع تلك الحمير والخراف! يجب التعامل مع الدمى بعقلانية ومنطق، خلاف ذلك سنواجه اعتلال الخيال والضرر الناجم عن ذلك. كاتيا، اقتربي مني!

أخرجت كرة مطاطية صغيرة من جيبها، وراحت تدوّر الكرة وتغني مطقطقة بأسنانها: اقفزي، نطي، إلى هناك، إلى هنا، من فوق، من تحت، من الجانب، إلى الأمام. أعيدي بعدي: اقفزي، نطي، آخ، يا لها من طفلة غير نامية!

كانت كاتيا صامتة تبتسم بذلٍ حتى لا تطفر دموعها. أخرجت الحاضنة الألعاب.الخروف راح يصيح عند الباب «ماع».

- انتبهي إلى سطح الكرة. ماذا ترين؟ إنك ترين أنها بلونين. أحد وجهيها أزرق، والآخر أبيض. أرني الوجه الأزرق. حاولي التركيز.

خرجت، مادةً يدها لكاتيا مرة أخرى.

- غدا سنجدل سلالا!

كانت كاتيا ترتجف طول الليل، ولم تستطع تناول أي طعام. كانت تفكر طول الوقت بالخروف، لكنها كانت خائفة أن تسأل عنه.

«الوضع سيئ بالنسبة للخروف غير الحي! أنه لا يقدر على شيء: لا يتكلم، لا ينادي. أما هي قالت له: اخرج!»

وبسبب هذه الكلمة المخيفة بردت الروح وصارت كلّها تتألم.

جاءت النسوة عند المساء، احتسين النبيذ، وتهامسن:

- إنه يحبها... إنها تحبه... ومن جديد:

- اخرج! اخرج!

استيقظت كاتيا فجرا من خوف مريع وغير عادي، ومن الشوق الشديد. لقد ناداها أحد ما، بالتحديد. نهضت، وراحت تستمع:

- ماع! ماع!

إنه ينادي من مكان ما في الردهة. هذا يعني، أنه هناك...

فتحت الباب.

ماع!

إنه من مستودع المؤن.

تحركت إلى هناك. لم يكن المستودع مغلقا. كان الفجر معتما وكدرا، لكن الأشياء كانت واضحة. هناك بعض الصناديق، والحبال.

- ماع! ماع!

البقع المعتمة تحركت عند النافذة، وظهر الخروف هناك. الشيء الأسود قفز، أمسك به من رأسه، وراح يجره.

- ماع ! ماع !

ها هما جرذان يمزقان الجنبين، ويشقان الفرو.

«الجراذين! الجراذين!»

تذكرت كاتيا أسنان الحاضنة وهي تصرف. ارتجف بدنها كله، شدت على قبضتها بقوة. لكنه لم يعد يصيح. لم يعد موجودا. كان الجرذ السمين يسحب القطع الرمادية الصغيرة، والقطع الطرية، نتفت الأحشاء.

دفنت كاتيا نفسها في الفراش، غطت رأسها، صمتت ولم تبك. كانت تخاف أن تستيقظ الحاضنة، وأسنانها تصرف مثل قط، وتروح تضحك ملء فيها على موت خروف الفرو، غير الحي، مع النساء الثعلبيات.

خمدت، وكومت نفسها في كتلة صغيرة. ستعيش بهدوء، بهدوء، حتى لا يعرف أحد شيئا مما حدث.

زمن الكلاب

تدور الأرض ببطء، لكن، مهما أبطأت، مهما أرجأت، فإنك في كل الأحوال لن تفلِتي من مصيرك، فكل عام يتأتّى على الكوكب التعس الدخول، في وقت محدد، في برج الكلب الأكبر.

باعتقادي، كان يكفي الدخول في برج الكلب الأصغر، لكن، وأكرر القول، إنك لا تستطيعين الفكاك من مصيرك.

وعندها تحل على البشرية المسكينة أكثر الأيام جنونا من أيام السنة، التي تسمى «العطلة»، من كلمة «caniculi»، أو، مترجمة، تعني ببساطة «زمن الكلاب».

تأثير الكلب الأكبر يظهر على كل شيء تقريبا: على الريبيرتوار[1] المسرحي، وقائمة الوجبات في المطعم، واللوحات، وسكك الحديد، ومشاغل الصيانة المنزلية، والحوذيين، والنمش، والنواطير، وعلى العافية، والقبعات النسائية. يترك الكلب أثره على كل شيء. إذا ما شاهدتم على رأس إحدى السيدات مساحة واسعة للدواجن والخضراوات المنزلية مكان القبعة، لا تدينوها كثيرا. إنها غير مذنبة. إن ذلك الديك مع فصيلة الدواجن، والخضراوات الأربعة عشرة، بما فيها الطماطم بنوعيه، والمزكّى من عشبة الجزر... (قدمها لها) الكلب. إنها غير مذنبة، صدقوني!

أما «دكنجي» العطلات! لو أنكم تطلبون منه بَكرة خيوط سوداء، أبسط البكرات السوداء، سيظهر تعابير وجه متفكر، ويتسلق إلى مكان

١- يبرتوار: برنامج العروض المسرحية الثابت على مدى الأسبوع أو الشهر أو العام.

ما في الأعلى، سـيـنهض العملاق رودسـكـي واضعا قدماً علـى رف البضائع، وأخرى على البسطة، وسيدوس على إصبعك(أبعد يدك!)، وسيعرض عليك بكل احترام قطعة من المخمل الأزرق، في حين يكون قد شـج رأسك بصندوق الكرتون الذي أسقطه عليك. ستقولين كسيفة:

- لست بحاجة للمخمل الأزرق. لقد طلبت بكرة سوداء وحسب. بكرةً بسيطة من نوع أي (٦٠).

- مذنب، سيدتي! هذا فعلا أزرق.

يعتذر«الدكنجي»، ويندس في مكان ما تحت البسطة، يتسلل عميقا، لمدة دقائق، بحيث لا يُرى منه سوى طرف «جاكيته». عندما تتحركين بفعل الفضول الطبيعي، وتنحنين كي ترين ماذا يفعل هناك، ينهض فجأة دافعاً صندوقاً في وجهك مباشرة.

سيكون في الصندوق أشرطة مختلفة، سيعرض عليك اختيار ما تشائين عن طيب خاطر، مقترحا تقديم خصم خاص.

وما إن يعرف أنك تصرين تماما على تحقيق رغبتك بالحصول على بكرة سوداء وحسب، فإنه سوف يغضب جدا، ويغوص تحت البسطة في الخلية المجاورة. أنت تلمحينه وحسب، لكنك مهما تنتظرين، فإنه لن يعود أبدا.

اذهبي إلى دكان آخر واسألي عن ستائر شفافة باللون الوردي، على سبيل المثال، سيتوّهك الكلب، وستحصلين، عن طريق الخطأ، على بكرة خيوط سوداء أيضا. لا يوجد خيار آخر.

إن سلطة الكلب تتضح تعبيراتها على سكك الحديد في قطارات الضواحي والقطارات الإضافية، التي ليس لها أي نظام، أو قوة إرادة وتظل تترنح كما يتفق، دون مواعيد، أو سرعة أو اتجاه محدد. تستقلين ذلك القطار وتفكرين: «إلى أين تراك تحملني، أيها الأب؟» شيء مخيف أن تسألي: ما

الغاية من ذلك؟ إنك فقط تضعين مراقب التذاكر في وضع حرج.

لكن الشيء المثير للاستغراب في هذه القطارات هو حماسها المزاجي. تتوقف فجأة عند «محطة عابرة» من دون لأي! يتوقف ساعتين

- لماذا توقف؟ من المؤكد، أنه دهس امرأة ما.

- بل عِجلة، وليس امرأة. كان قد دهس امرأة بالأمس، لكنه اليوم، بالتأكيد، دهس عِجلة، لا يمكن أن يدهس امرأة كل يوم.

- وهل سيتوقفون من أجل عِجلة؟

- نعم بالتأكيد. إنهم مضطرون لإخراج العجلات عنها.

يتدخل أحد المتشككين:

- كل ما في الأمر أن مراقب التذاكر ذهب ليشرب الشاي، لذلك توقفنا.

- يشرب الشاي! إنهم يريدون سرقتنا، هذا ما في الأمر. الآن هم ينظفون القاطرة الأولى، بالتأكيد، وسيصلنا الدور. الأمر واضح – إنهم يسرقوننا.

لكن القطار تحرك فجأة ثم توقف. أُسقط في يد الجميع، لأنه لم يحدث شيء سيئ. لأي سبب توقفوا؟

لا يمكن لمراقب التذاكر، قليل الثقافة، الذي لا تربطه أية صلة بمرصد بولكوفسكي، أن يشرح لكم، أن كل تلك الأشياء تحدث بسبب الكلب الأكبر سيئ الذكر.

الصلع الطارئ يحدث بتأثير هذا الكلب، نفسه، على الناس. يسافر الناس، دون أن يعرفوا أنفسهم إلى أين ولماذا. ليس لأنهم يبحثون عن مكان بارد، فالكثيرون، على سبيل المثال، يحبون التواجد في برلين في الصيف، حيث

يكون الجو حارا هناك، كما هو معروف، لدرجة أن الخيل تسير دون قبعات، ولا تكشف وجهها مهما دفعوا لها، وحيث يتوفر لدى كل بقرة محترمة مظلة.

كل واحد يهرب من المكان الذي زُرع فيه، تاركا حراسة الشقة لإحدى «قريبات الطباخة». نهارا، تقوم تلك النسوة بتهوية غرف الشقة، ويعلقن أنوفهن المجدورة على النوافذ. تتناهى أصواتهن الحيوية، الآسرة بشكل مدوٍّ في الحوش الخالي، مرتدة عن الجدران العالية.

ينعق أنف من «طاقة» في الطابق الرابع:

- مارفاااا ! مارفاااا!

يدوي صوت مرتداً عن جميع الجدران:

- آه – آه – آه!

يصأصئ أنف مندس في طاقة الطابق الثاني:

- ماذااا؟

يجيب الحوش:

- أُوه. أُوه. أُوه.

- برميل تصدع لدى بوتابوفنا !

- إي. إي. إي!

يصأصئ أنف من الطابق الثاني:

- نرمين؟

- برميل، برميل!

- أوه. أوه. أوه!

- لدى بروتاسوفيه؟

- لدى بوتابوفنا ! برميل لدى...

تغلقين النافذة، تختنقين، مثل ذبابة عند ا نحباس الهواء، المهم أن لا تسمعي كيف تتحاور النسوة. إنهن تحت مظلة الكلب الأكبر. وعلى أي حال، فإن تلك النسوة يمارسن القتل ونهب المنازل، ليلا.

لصوص الليل متأكدون تماما، أنهم يتركون تلك الحارسات خصيصاً من أجل راحتهم. بخلاف ذلك لا توجد حاجة لفتح الأبواب لأي كان. إن خلع خطاطيف مداخل الشقق والأقفال، والمزاليج عمل كبير ومتعب جدا، بالنسبة لهم، وأهم شيء، إنه من الصعب أن لا تصدر إزعاجا. مثل هذه العجوز الربانية هي ذهبٌ، لا إنسان. إنها تفتح الأبواب، وتسمح بالدخول. أما الكلب الأكبر فيفرح وحسب. هذا ما يريده! من بين السياط الكلبية، تعتبر الشمس، بالطبع، أسوأها. لا أجادل في ذلك، فقد كانت الشمس منذ سنوات خلت موضة كبيرة. كان اسمها يكتب بحرف تاجي، وقد ألّف لها الشعراء أشعارا، تغنوا فيها بصفاتها الجميلة العديدة، وكذلك بأفعالها الجيدة.

أعترف أنه لم يسبق أن غمرني هذا الشعور في أي وقت من الأوقات.

- «سنكون مثل الشمس!»

- إنني أنحني احتراما لك! هذا يعني- أن أنهض في الخامسة صباحا، أيها الخادم المحترم!

إذا ما أردت الحديث عن الشمس بهدوء ودون حماس، فهي إحدى البدائع التي لا تبلى من بين كل بدائع الكون. شيء جيد، طبعا، أنها تُنبت الخِيار وغيره. لكن، حقيقة، كان أفضل للإنسانية، لو أنها وجدت وسيلة تمكنها من تدفئة كوكبها، وإنارته، وإكثار ما تشاء دون مساعدة خارجية. الشمس خالدة!

تخيلوا وجود كائن مستدير أحمر وردي، ينهض كل يوم لا يعطي ضوءا ولا فجرا، وطول النهار يهزأ منكم.

إنهـا تولِّد حولك بخارا، يسـتحيل معـه الاختناق. سـتُلصق على وجنتيك بقعا بنية، ويتقشـر الجلد عن أنفك. ويتكاثر الذباب والبعوض حولك، أينما نظرت. ماذا يوجد أسوأ من ذلك؟ أما الناس فلن تكتمل فرحتهم:

- آه، شـروق، غروب!
- آه، مغيب، طلوع!

تفكريـن: شـيء مدهش، أن تسـتريح الشـمس! أي إنسـان قـد ينهض ويجلس مئتي مرة في اليوم، ولا أحد يهتم بذلك.

يتزلـف الناس لمصلحة أو منفعة. يتملقون للشـمس لأنهـا تنبت الخيار. يا للخجل!

تعيشـين ولا تلاحظين شـيئا. وما إن يحل زمن الكلب، حتى يشـويك، ويقليـك، ويقلّبك علـى الجنبين حتى تشـيطين، وهنا سـتفكرين بكل شـيء بجدية أكبر.

أوه، صدقيـني، أنا لا أتزلف، ولا أقف ضد الشـمس بسـبب النمش! لا، نحن أرقى من ذلك، نعم، وتوجد في الدنيا سـتائر شفافة. الأمر ببساطة أنني لا أريد أن أتملق أمام الكائن الأحمر التافه المعلق فوق رؤوسـنا هناك، في الأعلى! بسـبب المنفعة المادية (الخِيار).

أفيقوا، أيها السادة! انظروا إلى أنفسكم! إنه عار! أليس كذلك!

عندما يصفر السلطعون[١]

تلألأت شجرة العيد، وتفرق الضيوف.

كان الصغير بيتيا جابوتكين[٢] يقصقص ذيل فرسه الليفي بشكل حثيث، متنصتا على حديث والديه، اللذين كانا ينزعان النجمات وخرز الزينة عن الشجرة كي يحفظاها للعام القادم.الحديث كان مثيرا. قال الأب:

- هذه آخر مرة أعمل فيها شجرة، إنها مجرد هدر للمال، ولا توجد فيها أية متعة.

- قالت الأم، غامزة من جانب الأب:

- كنت أظن أن والدك سيرسل لنا شيئا ما للعيد؟!

- يوه! ربما يحدث ذلك عندما يصفر السلطعون.

جلس الأب مباعدا ما بين رجليه، مدليا رأسه، وقد تهدّل شاربه، وبدا كما لو كان مبلولا. وثبّت نظرات عينيه اللتين تشبهان عيني الخروف بتراخ في نقطة واحدة.

ألقى بيتيا نظرة على والده وقرر أنه من الممكن الحديث في تلك اللحظة معه بأمان.

- أبي، لماذا السلطعون؟

- هَمْ!

١- السلطعون أو السرطان أو الروبيان. [المترجم]

٢ـ جابوتكين: لقد صاغت الكاتبة أسماء الأبطال في القصة صياغة ساخرة. فهذا الاسم مشتق من جابا – وهي الضفدعة البرية. [المترجم]

- أيعني ذلك، أن كل شيء يتحقق عندما يصفر السلطعون؟

- هم!

- ومتى يصفر؟

كان الأب قد عزم على الإجابة على سؤال ولده بشكل صريح، لكنه تذكّر، أن الواجب يحتّم عليه أن يكون متشدّدا، فضرب بيتيا ضربة خفيفة على قذاله، وقال:

- اذهب للنوم أيها الخنوص.

ذهب بيتيا إلى النوم، لكنه لم يتوقف عن التفكير بالسلطعون. وعلى عكس ما هو متوقع، فقد استقرت تلك الفكرة في رأسه وفقدت كل أمور الحياة أمامها أي أهمية. وقفت الخيول بذيولها غير المقصوصة، وبقي زنبرك غير منزوع، واستقر العليق في مكانه مع المهرّج تحت الملعقة الصغيرة... باختصار، كان الإهمال في كل مكان حد القرف. وبما أن بيتيا كان منشغلا عن هذه السخافات، فقد راح يتمشى ويفكّر: كيف يمكن أن نجعل السلطعون يصفر بأسرع ما يمكن.

ذهب إلى المطبخ واستمع إلى نصيحة الطاهية سكيليتينا [1]، التي قالت له:

- لن يصفر، لأنه لا شفاه له. عندما تنمو لديه شفتان، سيصفر.

ولم تتمكن هي أو غيرها أن تقدم أي تفسير.

صار بيتيا يكبر، وصار يفكّر أكثر.

- لسبب ما يقولون، إنه بمجرد أن يصفر، فإن جميع الأمنيات تتحقق.

إذا كان صفير السلطعون مجرد رمز للاستحالة، فلماذا لا يقولون: «عندما يطير الفيل»، أو «عندما تغرد البقرة»، لا، لدي شعور أن في الموضوع حكمة

---

١ ـ سكيليتنا: أيضا إمعانا في السخرية من الطباخة. فقد اشتقت الكاتبة اسمها من كلمة سكيليت— وهو الهيكل العظمي. [المترجم]

شعبية عميقة. لا يجوز التسليم بالمحال ببساطة. السلطعون لا يصفر لأنه لا توجد لديه رئتان أيضا. فليكن ذلك! لكن ألا يمكن للعلم التأثير على جسم السلطعون، بواسطة الانتخاب الطبيعي، أو التأثيرات المختلفة، بحيث تصبح له رئتان؟

كرس بيتيا كل حياته لهذه الغاية. درس علوم الغيب، ليفسر لنفسه العلاقة بين صفير السلطعون والسعادة الإنسانية. درس تركيب جسم السلطعون، وحياته، وطباعه، ونشأته، وقدراته.

تزوج، لكنه لم يكن سعيدا. كان يكره زوجته لأن لديها رئتان، حرم منهما السلطعون. طلق زوجته ليكرس بقية حياته للفكرة.

قال لابنه وهو على فراش الموت:

- ولدي! استمع إلى وصيتي. اعمل من أجل سعادة البشرية. ادرس جسم السلطعون، تابعه، اجعل ذاك الوضيع يغيّر طبيعته. لقد كشفت علوم الغيب حقيقة، أنه مع كل صفرة سلطعون ستتحقق أمنية إنسانية حقيقية. فهل يمكنك أن تفكر الآن بشيء آخر غير صفير السلطعون، ما لم تكن حقيرا؟ قصار النظر من الناس يشيدون المستشفيات، معتقدين أنهم بذلك يتفضلون على البشرية. إن ذلك أسهل عليهم، طبعا، من تغيير طبيعة السلطعون. لكنّا نحن الجابوتكنيين سنبقى نعمل من جيل لجيل حتى نحقق ما نصبو إليه.

بعد موته، أخذ الابن على عاتقه مواصلة قضية والده، واشتغل بهذه القضية ابن الحفيد أيضا، وحفيد الحفيد، وعندما اكتشف أنه من الصعب في روسيا الاشتغال بقضية علمية جدّية، انتقل إلى أمريكيا. الأمريكان لا يحبون الأسماء الطويلة، لذلك سرعان ما تم اختصار اسم جابوتكين إلى السيد جيب. وهكذا فإن السلالة الماجدة ضاعت، وابتعد أبناؤها عن اهتمام أقاربهم الروس.

مرت سنوات كثيرة. تغيرت أشياء كثيرة في هذه الدنيا، لكن مستوى السعادة البشرية بقي في الوضع الذي كان فيه يوم سأل بيتيا جابوتكين والده، وهو يقص ذيل الفرس الليفي:

- أبي، لماذا السلطعون؟

وكالعادة، فقد كان الناس يمارسون التمني كثيراً ولا يتحقق شيء من أمنياتهم تلك، وكان الناس يتحرقون ويتعذبون بسبب عدم تحقق أمنياتهم.

دعوات غريبة بدأت تظهر في الصحف.

«أيها الناس! كونوا مستعدّين! إن تعب الأجيال العديدة يصل إلى نهايته! إن الشركة المساهمة «السيد جيب وشركاه» تعلن، أنه في الخامس والعشرين من كانون الأول من هذا العام سوف يصفر السلطعون لأول مرة، وستتحقق أغلى أمنية لواحد من كل مائة شخص. فكونوا مستعدّين!».

وكان الموعد، كلما اقترب، أصبح الناس أكثر تفكيرا بمشروع التسلية الأمريكي، يتبادلون الحديث فيما بينهم، هازين رؤوسهم.

وعندما التقطت الصحف الخبر ونشرت صورا للمخترع العظيم وأخرى لمختبره من كافة الزوايا، لم يعد أحد يخشى من الاعتراف بتصديق المعجزة المقبلة.

بعد ذلك مباشرة ظهرت صورة السلطعون، الذي وعد بالصفير. لقد كان شكله أقرب إلى شكل رئيس مركز شرطة من الحي الجنوبي- الغربي منه إلى حيوان من ذوات الدم البارد: عينان مبحلقتان، شاربان مندفعان، تعابير وجه مقدام، يرتدي سترة محاكة برباط. أما الذيل، فإنه إما كان مخفياً بالقطن، أو أنه لم يكن موجوداً أصلا.

حظيت الصورة تلك على شعبية كبيرة. فقد نسخت منها صور كثيرة على شكل بطاقات تهنئة بريدية، ملونة بألوان زاهية: أخضر بعينين زرقاوين، ليلكي ببروق ذهبية.. الخ. الفودكا الجديدة المصنوعة من الغبيراء

حملت علامة بصورته، المنطاد الروسي الجديد، ذو المحرك، أخذ شكل السلطعون ناكصا على عقبيه ولم تكن توجد امرأة تحترم نفسها، ترتدي قبعة من دون أن تثبّت على إطارها دبوس السلطعون.

أصدرت شركة «السيد جيب» في الخريف أسهمها الأولى، وسرعان ما صارت الأسهم بحجم الجبل، مما دفع حتى «قطط» البورصة المحترمين للحديث عنها باحترام.

الزمن يمشي، يركض، يطير. في بداية تشرين الأول، أرسلت اثنتان وأربعون شركة تسجيلات ممثليها إلى أمريكا، كي تسجّل وتبث بطريقتها أول صفير للسلطعون ليسمعه الجمهور في كل مكان.

لم يتأخر أحد في نومه صباح الخامس والعشرين من كانون الأول. كثيرون لم يذهبوا إلى النوم، وبقوا يتجادلون عادّين الدقائق والثواني المتبقية على دخول الصفير المنطلق من أمريكا إلى خط الطول عندنا. بعضهم قال، إن الزمن اللازم لذلك لن يتجاوز الزمن اللازم لوصول تيار كهربائي. صاح آخرون، إن البث الإذاعي ينتقل بسرعة أكبر من التيار الكهربائي. فالحديث يدور هنا عن البث الإذاعي، وليس عن أي تيار آخر..الخ.

غصت الشوارع بالناس منذ الساعة الثامنة صباحا. وقد جعل شرطة الخيالة جيادهم تُلقي بمؤخراتها على الجمهور بدماثة، وظل الجمهور ينتظر هادراً، فرحا.

أُعلن أن المدفعية ستطلق طلقة واحدة بمجرد أن تتلقى أول برقية.

انتظروا، قلقوا، أعرب الشبان المتحمسون عن بهجتهم بصوت عال، مكوّنين تشكيلات متألقة. تأوه المتشائمون ونصحوا غيرهم بالعودة إلى منازلهم لتناول الإفطار، لأنه لن يحدث شيء مهم على الإطلاق، وكفى حماقات وغباء.

في تمام الساعة الثانية سُمع دوي مدفع واضح. فغرت الأفواه، وتوقفت الأنفاس السعيدة لألوف البشر. لقد حدث شيء غريب، غير منتظر، وغير عادي، شيء لم يكن أحد يقدّر أو يرغب في أن يرى حلقات السلسلة، التي تربط الجميع: ضابط برتبة مقدّم، طويل وسمين، أخذ فجأة بالانتفاخ بشكل غريب، وقد انتفخ كلّه، كما لو كان ذلك مفتعلا، وتحول إلى كرة متطاولة. تشقق معطفه، وانفرط المخيط على طول ظهره، ثم انفجر بصوت مدو، فرحا لأنه ذلل العقبات المزعجة، وتطاير الرذاذ منه في جميع الاتجاهات.

أجفل الحشد. كثيرون رفعوا عقيرتهم بالزعيق، ثم ولوا هاربين.

- ما هذا؟

عسكري شاحب الوجه، رسم ابتسامة مواربة على شفتيه المرتجفتين، حك رأسه خلف أذنه ولوح بيده:

- يا للدهشة! هذه هي خطيئتي! لقد دعوت عليه «أن ينفجر».

لم يستمع له أحد، ولم يمسه أحد بسوء، لأن الجميع راحوا ينظرون برعب إلى العجوز طويلة القامة، التي راحت تولول بشكل وحشي تحت قبة صلعاء، دارت فجأة حول نفسها، ثم اختفت تماما في الأرض على مرأى الجميع. غمغمت بعض الشفاه بشكل عابر:

- اختفت! الحقيرة!

أحاطت بالحشد فوضى مجنونة. ركض الناس في جميع الاتجاهات، طارحين بعضهم بعضا على الأرض، ودائسين على أجساد بعضهم بعضا. سُمعت امرأتان تشهقان شهقة الموت، امرأتان جنى عليهما لساناهما، ومن فوقهما كان رجل عجوز يعوي بصوت عال:

- اضربوني أيها الأخوة المؤمنون! إرادتي ضعيفة، تختنق أمام نتانة هاتين المرأتين!

كنس الليل المعتم كابوس المساء. لم ينَمْ أحد. كانوا جميعا يتذكرون أمنياتهم الخاصة السوداء، منتظرين تحقق أمنيات غيرهم بهم.

كان الناس يموتون مثل الذباب. ولم يربح من صفير السلطعون في جميع أنحاء العالم، سوى فتاة إفريقية من غينيا الشمالية: لقد أصيبت بالرشح بسبب دعوة خالتها، التي ضاقت بها ذرعا، بسبب من عطاسها المتواصل. واتضح أن جميع الأمنيات الأخرى الخيّرة (هذا إذا كانت مثل تلك الأمنيات موجودة) ذابلة جدا، وباردة، لا يستطيع السلطعون الصفير من أجل تحققها.

كادت البشرية تسعى إلى حتفها بخطوات سريعة، وكانت في انتظاره حتما لولا طمع «السيد جيب وشركاه»، الذين أرادوا أن ينفخوا أكثر في أسهمهم، وأغرقوا سلطعونهم، عندما أرغموه على الصفير بالقوة، بواسطة الإثارة الكهربائية والحبوب الخاصة.

نفق السلطعون.

كتب على نُصبه التذكاري، الذي أقيم عند قبره (النصب كان من أعمال نحات مشهور، صمّمه بموجب موديل حائز على جائزة) العبارة التالية:

«هنا يرقد نموذج السلطعون الصافر، الذي يعود لـ«السيد جيب وشركاه»، والذي رطّب أرواح البشرية، وأروى أمنياتهم المتأججة.

- نم قرير العين! ١٩١١

يافدوخا [1]

عرج تريفون ميلنيكوف، العامل، العائد من القرية، على كوخ الفلاحة يافدوخا، وناولها رسالة:

- إنها من ابنك في العسكرية.

وقفت العجوز العجفاء، طويلة القامة، محنية الظهر. حملقت بعينيها، ورمشت، لكنها لم تتناول الرسالة.

صر ساعي البريد عينيه وقال ليافدوخا ليسنيكوفايا :

- تناولي! إنها من ابنك في العسكرية.

عندئذ تناولت العجوز الرسالة وقلّبتها طويلا، ثم تحسّستها بأصابعها الخشنة وأظافرها المتكسرة.

- اقرأها! ساعدني!

تحسّس تريفون، أيضا، الرسالة، ثم أعادها مرة أخرى، وقال:

- لكنّي أميّ! يمكنك أن تذهبي إلى القرية، هناك سيقرؤونها لك.

ورحل بعد ذلك.

توقفت يافدوخا قليلا قرب المنزل، رمشت.

---

١ ـ هذه القصة من الأدب الساخر، استخدمت فيها اللهجة المحكية، لذلك آثرنا أن تكون الترجمة بنفس الأسلوب تقريبا. الفارق في لفظ الأسماء وكتابتها هو في الأصل، وهو ما يؤكد على محلية اللهجة [المترجم]

كان الكوخ صغيرا، ثُبّت في الأرض حتى آخر حد لها، مع شظايا زجاجية تشع بألوان قزحية. أما العجوز، فقد كانت طويلة، والكوخ لا يناسبها، وقد انعكس ذلك على مصيرها كما يظهر، لقد قوّس المنزل ظهرها – لا يمكنها، على أي حال، العيش في الشارع.

رمشت يفدوخوفا، دخلت المنزل ودست الرسالة خلف التمثال الأسود، ثم ذهبت، بعد ذلك، إلى الحلوف[1].

كان الحلوف يعيش في حظيرة مليئة بالثقوب، لصيقة بالكوخ، لذلك كانت يافدوخا تسمعه وهو يحك جنبه بالحائط. وكانت تفكر بحب: «حك، حك! إنك ستلتهم في عيد الميلاد، عندها لن تتمكن من حك جسمك».

كانت تنهض باكراً من أجل الحلوف، ترتدي ردنا غليظا من الخيش على يدها اليسرى، وتحصد نبات القرّاص الليفي القوي، الذي ينبت على جانبي الطريق، بواسطة منجل استدق من كثرة الشحذ حتى أصبح مثل الخيط.

في النهار كانت ترعى الحلوف في الوهدة، وعند المساء تقوده إلى الزريبة، شاتمة بصوت عال مثل فلاحة حقيقية، أكثر ما يهمها أن يكون عملها متقناً وحسب، وعلى ذلك الحمد لله.

إنها لم تر ابنها منذ مدة طويلة. كان الابن يعمل في المدينة، بعيدا. وها هو يرسل الآن رسالة «من العسكرية». يعني، أنهم أخذوه، يعني أنه في الحرب. يعني، أنه لن يرسِل النقود حتى العيد. يعني، لن يكون لدي خبز.

ذهبت يافدوخا إلى الحلوف، رمشت، وقالت:

- ابني باناس. أرسل رسالة من العسكرية.

بعد ذلك صارت أكثر هدوءاً، لكنها عند المساء لم تستطع النوم، عند الفجر كانت الطريق تهدر تحت وقع خطواتها الثقيلة.

١ـ الحلوف – الخنزير البري. [المترجم]

نهضت العجوز، نظرت من خلال شق الباب. إنهم جنود يمشون - جنود كثر ..كثر، رماديون، صامتون، هادئون. «إلى أين؟ ماذا؟ لماذا يصمتون؟ لماذا هم هادئون؟..»

أصبح حالها كئيبا. نامت، وغطّت رأسها، وما إن أشرقت الشمس، حتى أعدت عدتها للمسير إلى القرية.

خرجت، طويلة، عجفاء، تلفتت حولها، رمشت. ها هنا كان الجنود يسيرون ليلة الأمس. الطريق كله كان موحلا ولزجا، وكان كما لو أنه دق بهاون، والعشب عليه انهرس مع الوحل.

«لقد داسوا قراص الحلوف!»

ذهبت. سارت في طريق موحل بقدمين ناحلتين، وبعكاز من جذوع الأشجار، لمسافة ثمانية فراسخ[1].

في القرية كان عيد: الفتيات كن يجدلن إكليلا من أجل غانكا العوراء، المخطوبة لنيكانور، ابن خرومينكوف. نيكانور نفسه ذهب إلى الحرب، في حين أن والديه يحتاجان إلى من يعمل في البيت. إذا ما قتل نيكانور فلن يستطيعا إيجاد عامل. وها هن الفتيات يجدلن إكليلا لغانكا العوراء.

كان الجو في بيت غانكا خانقا. يفوح برائحة الخبز، وجواعد الخراف المحمضّة. الفتيات جلسن على البسطة حول الطاولة متزاحمات، حمر الوجوه، متعرقات، دون حواجب، دائبات الحركة، ينتقين أزهارا قماشية وأشرطة، ويزعقن مغنيات بشكل وحشي، بكل ما يستطيع العامل صحيح البدن من قوة.

وجوههن قاسية، مناخيرهن منتفخة، يغنين، تماما كما لو كن يؤدين عملا. أما الأغنية، فقد كانت فلاحية، رحبة، من الحقل إلى الحقل، تُسمع من بعيد. المكان هنا مكتظ، هرج ومرج في المنزل الضيق، زعيق، صغار

١- الفرسخ : وحدة قياس طول تساوي ١٠٦٠ مترا.

يتعاركون، يرشقون النوافذ بالوحل، ولا يوجد مخرج. أما الفلاحات والشبان المتجمعون، فيضيقون عيونهم وحسب، كما لو أن الريح تذر الغبار فيها.

- غوي! غيي!غو- و- و! غوي! غيي!غو- و- و.

يهدرون بصوت عميق، وأيّا كانت الكلمات التي ينطقونها، كانت تخرج، كلها، وكأنها «غوي – غيي – غو – و- و». إنهم يهدرون بقوة.

حشرت يافدوخا في المدخل.استدارت نحوها امرأة. قالت يافدوخا:

- لدي ولد، باناس، أرسل إليّ رسالة من العسكرية.

لم ترد المرأة بشيء، وربما لم تسمعها: فالفتيات كن يهدرن بشدة.

راحت يافدوخا تنتظر. واستقرت في إحدى الزوايا.

توقفت الفتيات فجأة عن الغناء ورحن يتزاحمن، فورا، وعند المدخل ذاته، صدح كمان بصوت ديك مصاب بالتهاب القصبات الهوائية، وتبعته نقرات على دف. تحرك الحشد نحو الباب، أما في الوسط فقد خرجت فتاتان، صدراهما مستويان، وبطناهما منتفخان، عليهما مشدان مستقيمان لا يشدان خصريهما. حضنت بعضهن بعضا ثم تحركتا، تخطوان تارة، وتقفزان أخرى. بالأحرى، كانتا تتعثران. وقد دارتا حول الحلقة مرتين. برز شاب، دفع الحشد، مبعدا خصلات شعره الفاتح اللون، المدهون بالزيت، قرفص ودار حول نفسه، جاذبا تارة، وتارة مجذفا برجلين معوجتين تشبهان أرجل الحيوانات. بدا كما لو أنه لا يرقص، بل يزحف بشكل أخرق ومثير للشفقة، مثل كسيح، متمنيا لو ينهض، لكنه لا يستطيع. دار حول الحلقة، ثم نهض والتحم بالحشد. وفجأة راح الجميع يطلبون:

- الفلاحة ساخفيا، إلى الحلبة! الفلاحة ساخفيا، اقفزي!

لوّحت عجوز صغيرة ذات منديل رأس صوفي معقود على الرأس، بيدها بغضب، هازة رأسها– لن تنزل للرقص ولا بأي ثمن.

استغرب الذين لا يعرفون قائلين:

- لماذا يتحرشون بامرأة عجوز؟

أما الذين يعرفون، فقد كانوا يصيحون:

- الفلاحة ساخفيا، إلى الحلبة!

وفجأة رمشت المرأة، أطلقت ضحكة قصيرة، واستدارت نحو التمثال:

- لا بأس. دعوني أطلب العذر من الأيقونة.

عملت إشارة الصليب أمام الأيقونة، انحنت وقالت ثلاث مرات:

- سامحني، يا رب، سامحني، يا رب، سامحني يا رب!

استدارت، وأطلقت ضحكة مقتضبة:

- لقد صليت دفعا للذنب.

لقد كان هناك ما يستحق الصلاة من أجله. وضعت يديها على خصرها، وغمزت بعينيها، ثم هزت رأسها، و...خذ رقصاً!

قفز شاب طويل نحيل، كان يتمايل على قدمين مثل أرجل الحيوانات. لم يكن أحد يكترث له. الجميع كان ينظر إلى ساخفيا. إنها الآن لا ترقص، بل تقف، تنتظر دورها، تنتظر متى يقفز نحوها الشاب. إذا، من يرقص، هو الشاب، أما هي فتنتظر دورها، لكن الرقصة لها هي، وليست له. إنه يتأرجح على ساقين حيوانيتين، أما هي فإن كل عصب لديها حي، كل عُظيمة تلعب، كل قطرة دم تنساب. لا داعي للنظر إليه – يمكن النظر إليها فقط. وها قد جاء دورها. استدارت، ثم انطلقت، وخذ رقصا! كانت العجوز تعرف، عندما صلت أمام الأيقونة، أن السؤال عن هذا الذنب سيكون عسيرا.

أما يافدوخا، فقد كانت محشورة هناك في الزاوية، لم يكن شيء مرئيا من جهتها، كما أنها لم تكن محتاجة لأن ترى شيئا!

استراحت قليلا، ثم تقدمت نحو المدخل.

رأت العريس نيكوفور يقف وسط المدخل، ويستثير الكلب بشظية خشب. قالت:

- نيكوفور، أنت، متعلم. وصلتني رسالة من ابني باناس من العسكرية.

تردد العريس قليلاً– لم يكن يرغب في قطع عمل ممتع. تردد، رمى الشظية، تناول رسالة العجوز، مزّق زاويتها، ألقى نظرة إلى داخلها، ثم دس إصبعه بحذر داخلها ومزق المغلف.

- إنها، حقيقة، رسالة. اسمعي: «أ نحني بتواضع للخالة يفدوكيا[1] وأتمنى لها الصحة من الله. إننا ذاهبون جميعا في مسير، الجميع. لقد تعبنا كثيرا. لا، ليس كثيرا. ابنك أباناسي أعطاك عمره. يمكن أن يكون جريحا، لكن لا تأملي، لأنه... البقية بحياتك. المعروف لديك: فيليب ميلنيكوف». هذا كل شيء.

سألت العجوز:

- بيليب[2]؟

- بيليب.

ثم فكرت، وسألت مرة أخرى:

- من هو الجريح؟ بيليب؟

- من يدري. يمكن أن يكون، بيليب. كيف يمكنك أن تفهمي. لقد قتل خلق كثير. إنها الحرب.

وافقته العجوز الرأي:

- إنها الحرب. لكن هل يمكنك قراءتها من جديد؟

١- يفدوكيا: الصيغة الفصيحة لاسم يفدوخا.
٢- هو نفسه فيليب.

- لا وقت لدي الآن. تعالي يوم الأحد، أقرأها لك مرة أخرى.

- سأحضر. سأحضر الأحد.

أخفت الرسالة في عبها، ودخلت العزبة.

أزاحت بمرفقها شابا، هو ذاته الذي كان يرقص مثل الكسيح، وقالت:

- لدي رسالة من ابني باناس، من العسكرية. بيليب ميلنيكوف جريح. خلق كثير قتلوا. إنها الحرب.

مساء اقتربت من كوخها، فكرت بخاطرتين، وهي تتزحلق بالطريق المليئة بالمخاط – واحدة حزينة والأخرى هادئة.

كانت الحزينة:

«لقد داسو قراص الحلوف»

أما الهادئة فكانت:

«ما دام باناس قد أرسل رسالة، إذا سيرسل نقودا. وإذا ما أرسل نقودا، فسأشتري خبزا»

ولم يكن أكثر من ذلك.

الفتاة السعيدة

نعم، كنت سعيدة ذات مرة.

لقد حددت لنفسي منذ زمن طويل، ماذا تعني السعادة، منذ زمن بعيد جدا- عندما كان عمري ست سنوات. وعندما جاءتني السعادة، ولم أتعرف عليها فورا. لكنني تذكرت كيف يمكن أن تكون، وعندها عرفت أني سعيدة.

****

إنني أذكر: عمري ست سنوات، وعمر أختي - أربعا.

ركضنا طويلا بعد الغداء على امتداد القاعة الطويلة، طاردنا بعضنا بعضا، زحلقنا، وسقطنا أرضا. والآن وقد تعبنا وهدأنا، نجلس، بعضنا إلى جانب بعض، ننظر من خلال النافذة إلى الشارع الربيعي المعتم.

الغسق الربيعي مقلق دائما، ومحزن.

نحن صامتتان. نستمع إلى اهتزاز قطع الكريستال في الثريات بسبب العربات التي تسير في الشارع. لو كنّا كبارا، لكنّا فكرنا بالحقد البشري، بالمهاناما، بحبنا، الذي جرت إهانته، وبذاك الحب الذي أهنّاه أنفسنا، وبالسعادة الغائبة.

كنا طفلتين، لا نعرف شيئا. نصمت وحسب، نخاف كثيرا. يبدو لنا، أن هذه القاعة قد أعتمت تماما، وأعتم كل هذا المنزل الكبير، الذي يدوي فيه الصدى، المنزل الذي نعيش فيه. لماذا هو هادئ الآن هكذا؟ هل غادر الجميع، ونسونا، نحن الطفلتين الصغيرتين، الملتصقتين بالنافذة في الغرفة

الكبيرة المعتمة؟

أرى عين أختي الدائرية الخائفة قرب كتفي. إنها تنظر إلي – هل عليها أن تبكي أم لا؟

وهنا أستعيد انطباعي نهار هذا اليوم، واضحاً، جميلاً، لدرجة أنه أنساني البيت المعتم، والشارع الغبش – الكئيب.

أتكلم بصوت مسموع ومرح:

- لينا – لينا! لقد رأيت اليوم مهرة!

لا يمكنني أن أحدثها بتفاصيل الانطباع اللا محدود، الذي تركته المهرة.

كانت الخيول بيضاء، وكانت تعدو قريبا، القاطرة نفسها كانت حمراء أو صفراء، جميلة، كان يجلس فيها خلق كثير، جميعهم غرباء، لذلك كانوا قادرين على التعارف على بعضهم، وحتى على ممارسة لعبة ما هادئة. وفي الخلف كان يقف بائع التذاكر على درج القاطرة. كان كله مذهّبا، بالأحرى ليس كله، بل أزرار معطفه وحسب، وكان ينفخ في بوق ذهبي:

- برام – ررا – را!

حتى الشمس ذاتها كانت تعزف بذلك البوق، و يخرج صوتها على شكل رذاذ ذهبي.

كيف لك أن تتحدث عن كل هذا! يمكنك فقط أن تقولي:

- لينا! لقد رأيت مهرة!

نعم ولا داعي لشيء آخر أكثر. لقد عرفت كل جمال هذه الرؤية غير المحدودة في صوتي، وفي وجهي، هل، يا ترى، يمكن لأي شخص القفز إلى أرجوحة الفرح هذه؟ وأن يُحمل على أنغام البوق الشمسي؟

- برام – ررا – را!

يقول فريلين: لا، ليس أي شخص يمكنه ذلك. لا بد من دفع الحساب من أجل ذلك. ولهذا السبب هم لا يأخذوننا إلى هناك، بل يحبسوننا في عربة كئيبة، عفنة، ذات نافذة تصدر صريرا دائما، وتفوح برائحة السختيان و.... حتى إنهم لا يسمحون لك بأن تقترب بأنفك إلى الزجاج.

لكن عندما نصبح كبارا وأغنياء، سنسافر على ظهر المهر وحسب. سنكون عندئذ سعداء!

****

لقد ابتعدت كثيرا حتى أطراف المدينة، أما القضية التي جئت من أجلها فقد احترقت، ونارها أضنتني.

كان المكان أصم، ولم يكن هناك حوذي واحد.

لكن انظر، ها هي مهرة هزيلة تقترب، جسدها كله يهتز. الفرس بيضاء، عجفاء، عظامها تقرقع، وجرارات العربة الحديدية الرخوة تحتك بجلدها الجاف، ورأسها الأبيض الطويل كان يهتز بشؤم.

«اهزئي، اهزئي، لكن عندما تخرج روحي عند المنعطف – ستخرجين إلى الشارع بكل تأكيد»

لقد انتظر بائع التذاكر الكئيب يائسا، حتى أصعد، ونفخ بيأس في البوق النحاسي.

- برام – ررا – را!

آلمني رأسي بسبب هذا الصراخ النحاسي الحاد، وبسبب الشمس الحارقة، التي كانت تضرب فوهة البوق بشعاع غاضب.

كان الوضع خانقا داخل العربة، كانت تفوح برائحة مكواة متوهجة.

شخص غامض، يرتدي صديريا عليه شارة غطاء الرأس، كان ينظر إلي بعينين كئيبتين. وفجأة، أدركت شيئا، كشرت عن أسناني. جلست، وقالت، نافخة في وجهي أنفاسها المشبعة برائحة الخيار المخلل.

- اسمحي لي بمرافقتك في الطريق.

نهضت وخرجت إلى الساحة.

توقفت المهرة، انتظرت العربة المقبلة، ومن جديد قرقعت.

على الرصيف كانت تقف فتاة صغيرة، تتابع أثرنا بعينين زرقاوين دائريتين بدهشة وإعجاب، وفجأة تذكرت.

«سوف نسافر على المهرة. سنكون عندئذ سعداء»

هل أنا سعيدة، يا ترى! إنني أسافر على المهرة، وأستطيع أن أتعرف على جميع الركاب، وذلك بائع التذاكر يعزف على البوق، والشمس تحترق على وجهه الأحمر.

إنني سعيدة! سعيدة.

لكن أين هي، تلك الفتاة الصغيرة في الصالة المعتمة، التي دلتني على السعادة؟ لو أنني أستطيع إيجادها والتحدث إليها، ستكون مسرورة بكل تأكيد.

أن لا أجدها تعتبر فكرة مرعبة، وهي غير موجودة، ولن توجد أبدا، لن تكون أقرب الناس إلي،ـ لن أكون أنا ذاتي.

أما أنا فأسكن...

سحر الشرق

كان ميرانغوف قد سافر كثيرا في حياته، وقد أحبَّ الشرق، الذي كان يعرفه جيدا.

لم يكن يجلب معه إلى البيت أي نوع من سقط المتاع، الذي اعتاد المسافرون على جلبه من رحلاتهم البعيدة؛ لكنَّ الشيء القليل الذي كان يمتعنا كان كثيراً وثمينا في الواقع.

كان لكل شيء قصَّته الخاصة: إما قصة مسلية أو مأساوية، أو ببساطة، قصَّة شغلت الناس، ومن هنا، كان يلاحظ أن هذا الشيء يمكن اعتباره شيقاً، ليس لدينا وحسب، بل وفي وطنه الأصلي.

كان ميرانغوف ينثر حديثه المشبعَ بالكثير من الكلمات والتعابير المحلية المختلفة، التي أعطت لوناً ومذاقا خاصا لقصصه، رغم أنه، بالنسبة لنا، نحن الذين لا نعرف لغة (الباسورمان - لغة المسلمين الغرباء)، كانت تلك الكلمات تبدو متشابهة، تارة على شكل «بيمينيه»[1]، وتارة على شكل «الجمان».

قال بعد أن فرد ملاءةً قماشية مخططة:

- انظر إلى هذا البيمينيه، يحملها الجمانيُّون البغداديون على رؤوسهم. الجمان العجوز تركه لي، مقابل مبلغ كبير، وحدثني، بالمناسبة، أن هذا الشيء كان يعود للقيصرة بيمينيه من قبيلة الجمانيِّين. لقد خنقت زوجها، بهذا القماش تحديداً.

---

١ ـ كلمتا بيمينيه والجمان لا معنى لهما، إلا أنهما على وزن المفردات الشرقية، والكاتبة تسخر هنا من ادعاءات المعرفة بالشرق.

ورحنا نتأمل القماش بشعور من الفضول الشديد. قالت رسامة سابقة كانت بيننا:

- أيُّ تناسقٍ لوني ساحر! باعتقادي، إنها من القرن الخامس عشر.

صحَّح لها ميرانغوف المعلومة:

- الرابع عشر، سلالة الجمانيين انتهت في القرن الرابع عشر.

- انظر إلى تلك السجادة المعلقة على الحائط. إنها جميلة جدا، كما أنها شيقة أكثر. ترتبط بها أسطورة غريبة. عندما قتلت القيصرة الجمان زوجها، فقد لفّته بهذه السجادة، وقالت لعشيقها بيمينيه، إن هذا عبارة عن أريكة جديدة. لكنَّ العاشق(وقد كان من الزنوج) جلس على تلك الأريكة، وراح يغني أشعاراً على شرف القيصرة الرائعة. ظل يغني أشعاره ثلاثة أيام وثلاث ليال، وفي اليوم الرابع استرخى القيصر داخل السجادة. وغنّى المغني أغنية كما لو أن السجادة لدى القيصر متوعكة. الجمان، التي كانت خائفة من أنه كشف جريمتها، أقدمت على خنقه دون تأخير أيضا، ولفَّته بتلك السجادة وراحت تمارس الحكم. هذه هي السجادة.

تأملنا السجادة، لمسناها بإجلال. حتى طالب الجامعة، ذو خُصلات الشعر المتدلية، أخ ميرانغوف، شمّها.

- سجادة ساحرة!

- أي سجادة مخملية!

قالت الفنانة:

- إنه رسم رائع! إنه، على ما أعتقد، يعود إلى القرن الخامس عشر.

قال صاحب البيت:

- الثالث عشر. في القرن الخامس عشر لم تكن هذه البساطة- ألا ترين؟

وأشار بإصبعه إلى البساطة المدهشة، حقيقة، على السجادة.

- وهذا هو السيف الدمشقي الشهير. هذا – فولاذ مشهور، «بيمينيه» حقيقي. انظر، محفورة عليه، هنا، أحرفٌ عربية. إنها علامة الجمان. إنها علامة مقدّسة، تكشف أن هذا السيف يعود إلى أحد أحفاد النبي. وفي الأسطورة، فإن الأميرة الجمان الماكرة قطعت بواسطته رأس زوجها. لا تلمسه، يا كوستيا، ستجرح يدك.

لكن الطالب تشبث بالسيف بيديه كلتاهما. قال فرحا:

أما أنا فقد قرأت! هنا بالتحديد، أسفل هذه الخصلة.. انظر: «زو – لو – غين» – كانت لديهم أحرف بسيطة.

- ماذا؟ ماذا؟...

- أين؟

- لا يمكن!

اختطف ميرانغوف «بيمينيه». وقال هامسا من خلال شفتين فقدتا لونهما:

- أي حقارة! تقليد! تقليد ألماني. لكن «الجمان» العجوز أقسم لي بالنبي!...

وقد راح يتأمل طويلا، بحالة يأس كاملة، السيف الذي أهين من قبل زولوغين... كنت حزينة من أجله. ابتعدتُ قليلا، ورحت أبدي إعجابي بالسجادة.

- أيُّ روعة! أيُّ نسق لوني لطيف! و.. حقيقة، أيُّ رسم بسيط.

- سجادة ساحرة! انظروا،... خلفيتها على ما يبدو، أكثر جمالا من واجهتها. لكن ما هذا؟

- لكن، لا يمكنك فعل شيء! كانت «هذه» العلامة المتواضعة الممحيَّة: «Made in Germany»...

أنزلت السجادة سـريعا.

- لا، لا، إن الخلفية، مع ذلك، أسوأ بكثير...

- لا داعي لأن تستفزّه.

همستْ الرسامة، التي كانت تستمتع بالتأمل بغطاءٍ، في أذني قائلة:

- انظروا!

نظرت.

كان بالإمكان رؤية عبارة في الأسفل، عند الزاوية، بشكل ضعيف: «موسكو، مصنع... »

- إنهم يعملون بشكل جيد. إنني فخور بموسكو. لقد جلبت بنفسي مناديل رائعة عليها ورود «بسيطة» من هنغاريا. تنهَّد الفنانون جميعهم. بعد ذلك شاهدوا عبارة: «موسكو، مصنع...» المتواضعة و... هدأوا.

- إليك هذا الـ«بيمينيه»!

- لكن، لا داعي لاستفزاه.

إلا أن صاحب البيت كان قد هدأ، وتصالح مع زولوغين. وهو ما لا يحدث مع أي شخص.

- و سيرينا، في المقابل، قطعة، لا يمكنك أن تجدها في أي مجموعة. إنها فنجان.

- نعم، إنها فنجان صغير خزفي، مرسوم عليه وردة باللون الأزرق. بهذا الفنجان سمَّت الجميلة «بيمينيه» زوجها «بيمينيه»... ما بك تنظرين هكذا، أيتها السيدة الفنانة! إنه يعود إلى القرن الخامس عشر، بلا شك، لأن سر صناعة هذا اللون الأزرق كان قد ضاع لاحقا... إنَّك لن تجادلي في هذا الأمر، أليس كذلك؟

- لا، إنها لم تفكر بالجدل. لقد أصبح وجهها غريبا على نحو ما، ومجهدا، زاويتا فمها تهدلتا، كما لو أنها كانت تريد أن تفرغ ما في أحشائها، وفجأة، استدارت وهربت إلى الغرفة الأخرى.

خِفتُ أنا. وأسرعت خلفها.

- ما بك؟

- باللّه عليك اصمتي! فقط اصمتي!...

- ماذا جرى لها، هل هي هستيريا؟

- اصمتي! أنا من رسَم هذا الفنجان..، يا إلهي! نعم، لقد رسمته منذ ست سنوات خلت.

نحو نظرية الحب

إن ما يسمى «حبُّ الموسم الميِّت» يبدأ - كما هو معلوم للجميع - في منتصف حزيران ويمتد حتى منتصف آب. أحيانا (وهذا نادرٌ جدا) يقتحم الأيام الأوائل من شهر أيلول.

مسرح «حبُّ الموسم الميِّت» غالباً ما يكون الحديقة الصيفية.

يمشي المحبّون على الطرقات الجانبية. يُسمح فقط للفوج الأول والثاني المشي (rendez-vous) في الزقاقالظليل الكبير. الاستخدام اللاحق له يصبح غير لائق.

ليس «عليها» أن تحضر إلى rendez-vous أو من أجل شخصٍ ما. وإذا ما حصل ذلك سهواً، فإن عليها أن تعودَ، أو تختفي في مكان ما.

ولا يجوزُ المجيء إلى المكان المتفق عليه عبر طريق مستقيم، حتى لا يتمكن من ينتظرك من رؤيتك من بعيد. في كثير من الحالات يكون ذلك غيرَ مجدٍ أبدا. من يمكنه أن يكون مسؤولا عن مشيته تماما؟ من يضمن أن لا تعترضه حوادثُ صغيرةٌ وتافهة من قبيل أن يؤذيك طفل يصدمك برأسه في ركبتك وأنت تمشي، أو يصوِّبَ كرةً على قبَّعتِك؟

نعم، وإذا ما مرّ كلُّ شيء على ما يرام، حاوِلوا، بشكل من الأشكال، ولمائة وخمسين خطوة أخرى، أن تلتزموا بقوانين الكياسة، محافظين على رشاقتكم، وجاذبيّتكم، وتواضعكم، ودلعكم، أضف إلى ذلك تماسككم، وأناقتكم وبساطتكم.

بالتأكيد هذا يكون أسهل بالنسبة للشخص الجالس.

إذا كان ذلك الشخص رجلا، فهو يقرأ الجريدة أو«يُدخِّنُ بعصبية سيجارة تلو الأخرى».

وإذا كان امرأة.. فهي ترسم على الرمل بطرف مظلتها، أو تغادر بحزن، مراقبة الشمس وهي تحترق في الأفق. وإذا ما أخذت تنتف بتلات زهرة، فإن ذلك لن يبدو مشهداً غبيّاً.

الأزهار يمكن شراؤها قرب الحديقة دائما بسعر زهيد، لكن، لا يمكن الاعتراف بذلك. يجب أن تبدي مظهراً يوحي أنها من مصدر سري جدا.

وهكذا، لا يجوز للمرأة أن تأتي أولا. خاصة إذا ما كانت لديها الرغبة بإحداث ثمن للغيرة. عند ذلك، فإن هذا الأمر لا يكون مسموحا وحسب، بل ويتحول إلى أمرٍ ضروري.

أما أنا فقد كدت أذهب...

- يا إلهي! لماذا؟

- لقد انتظرتك حوالي نصف ساعة.

- لكنك أنت حدَّدت موعد اللقاءِ في الثالثة، وهي الآن الثالثة إلا خمس دقائق...

- طبعا، أنت تَظهرُ دائما أنك على حق...

- لكنَّ هذه هي الساعة...

- الساعة هنا لا شأن لها...

تلك إذا مقدمة ليست سيئة، يُنصحُ بها لكل من يجد نفسه في موقف مماثل. إنه لأمر سهل. ويمكن القول مباشرة:

- آخ.. بالمناسبة، كنت أود أن أسألك، من المرأة.... الخ.

ستخرج هذه العبارة بشكل جيد جدا.

وهناك ملاحظة إضافية أخرى: دائما ما تتم تسوية ثمن الغيرة أيضا في حديقة تافريتشيسكي. وليس في الحديقة الصيفيّة أبدا. لماذا؟

وهل عليّ أن أعرف لماذا؟ هذا ما هو متعارف عليه. لسنا نحن من بدأه، ولسنا نحن من ننهيه.

وبغير ذلك جرِّبوا أن تفعلوا ذلك في الحديقة الصيفية! لن ينتج شيء.

لقد جرى تكييف حديقة تافريتشيسكي. هناك يوجد دروب حزينة، وبركٌ هادئة «أنا لا أنشُدَ سوى الهدوء!»، وإطلالة على مبنى البرلمان الحكومي «.. ولا يزال لدي أمل!».

وبشكل عام، فإنك لن تجد أفضلَ من حديقة تافريتشيسكي في هذا المجال.

هناك شيء واحد سيئ: دائماً ما يغالبك النعاس، في حديقة تافريتشيسكي، بشكل فظيع. وهذا لا يناسب مشهداً حاراً. أما المشاهدُ السوداوية فذلك يُناسبها تماما.

وإذا ما تمكَّنتَ من التثاؤب دون أن يلاحظك أحد، فيمكنك أن ترفع«عليه» أو«عليها» «نظرات الدهشة المليئة بالدموع»، ونظرات العتب.

وإذا ما تثاءبتَ بوضوح من غير قصد، فإنه بإمكانك أن تقول بحزن ووداعة مبتسما: «هذا توتر».

وبشكل عام، يُنصحُ المحبونَ أن يكرّروا عبارة«توتر» في أكثر المواقف بشاعة في نظام حياتهم. إنها تمنحك قيمة عظيمة.

لو كان لديك على سبيل المثال رشحٌ شديد، وأنت تعطس، مثل هرة على أريكة. العطس، في الحقيقة، – يؤخذ على أنه ظاهرةٌ هزليةُ الطابع. حتى العاطس ذاته دائما ما يثير الضحك بابتسامته، كما لو أنه يريد أن يقول: «أنتم ترون، فأنا أضحك، أعي أن ذلك مضحك جداً، وعلى أي حال فأنا لا أطلب

منكم احترام موقفي!»

العطش بالنسبة للمحبين مميت. لكن هنا يمكن أن تُنقذَ نفسك بالقول: «أوي! هذا توتر!»

في بعض الحالات حتى خرّاج الأسنان بالنسبة للمحب الشديد يمكن إرجاعُه إلى مجموعة الأمراض العصبية. وسيصدّقونك. المحبُّ الطيب سوف يصدقك بالتأكيد.

يمكن القضاء على المحبين في الموسم الميت بطريقين. في الحديقة الصيفيّة وفي حديقة تافريتشيسكي. في الحديقة الصيفية يكون ذلك أسهل وأكثر أناقة. أما في حديقة تافريتشيسكي فهو مثير للملل، وطويل، لكنه فعّال. ويمكن البكاء أيضا، «ترفع نظرات عينيك اللتين تفيضان بالدمع»...

وعند الوداع في الحديقة الصيفيّة، يُنصح بالتوقف عند حاوية النفايات، والاستدارة، ثم إلقاء نظرة الحزن الأخيرة على الزقاق العزيز. سوف تبدو تلك الحركة جميلة. حاوية النفايات، الموت، الأبدية، الحُبُّ في نزاعه الأخير، وأنت من خلال نصف استدارة، مع القبعة... إنها لقطةٌ سينمائية رائعة...

ولا يخطرنّ ببالك، بربك، أن تدخل في مفاصلة مع الحوذي. تذكّر، أن هناك من يتابعك بنظراته. الأفضل، أن تحني رأسك، واذهب عبر جسر السلسلة (أوي، حتى هذا تخلّى عن سلاسله الجميلة!..). اذهبوا ولا تستديروا، حتى تصلوا بانتيليمونوفسكايا. هناك يمكنكم شراء شوكولاطة «غالا بيتيرا» وأن تقضموا منها قضمة.

أعتقد أن بإمكاني إضافة شيءٍ لمعلومات السادة المحبين: لم يعد جزءاً من الموظة الآن أن تقول:

- أوي! هذه أنت؟

الجميـع الآن يدركـون مـا دام اللقـاءُ مُقرّاً، فلا شـيء مدهـش أن يأتي الشخص في الموعد المحدد وإلى المكان المحدد.

أضـف إلى ذلـك، إذا ما تعثـرتَ صدفـة بصديق ما قديـم في حُمّـى الغزل، فلا ضـرورة بأي حال إبداء الدهشة:

- أوي! اليـوم يوم اللقاءات غير المتوقعة. قبـل قليل التقيت بـ.... (يـؤلف اسم فلان)، والآن معك!

كان ذلـك يبدو دقيقا وموفقا في زمن ما. لكنَّـه لم يعد يصلح الآن ولا في أي مكان. إنه قديم وغبي.

أُنـجِزَ العمل[1]

(نصٌ مسـرحيٌّ من مشهد واحد)

الشخصيات الفاعلة :

- **ليوشكا- فتى خدمات الغرف**
- **المستأجر- شاب مبتذل.**
- **السيدة- مغناج وفارغة.**
- **الطباخة**
- **عمة ليوشكا.**

(غرفة المستأجر. طاولة عند أحد الجدران، مغطاة بغطاء قاتم اللون، أريكة، كنبتان. عند الجدار الآخر- سرير مغطى بالستائر. الطباخة تكنس الغرفة. عند عتبة الباب تقف العمة بحزن وهي امرأة فلاحة. يُرى من خلال شق الباب الموارب رأس ليوشكا يتنصت).

الطباخة: لقد فهمت منذ البداية أنه مغفل. كم مرةٍ قلت له: ما دمتَ شاباً غير غبي، فابق قريبا من عيني. ما دمت لا تعمل شيئاً، فابق أمام عيني. لأن دونياشكا تنظِّف. أما هو فلا يلقي بالاً لأحد. صاحت السيدة مجدَّدا- إنه لم يحرك الموقد، وغطّى رأسه.

١ـ هذه المسرحية أُخذت من قصة بنفس الاسم. وقد عُرِضت في مسرح ترويتسكي في بيتربورغ سنة ١٩١٢.

العمة: أين أُخفي نفسي عنه، مافرا سيميونوفنا؟! لقد اشتريت له حذاءً، لكنَّه لا يستكثر خير أحد، أعطيته خمسة روبلات. صرف ستة «برايز»[1] من أجل إصلاح سترته، ولا يستكثر خير أحد...

الطباخة: الأفضل أن يُعاد إلى أهله.

العمة: عزيزتي! إنه مُكلف، لا يستكثر خير أحد، يكلّف أربعة روبلات، عزيزتي!

الطباخة: من المبكر إطلاق الصوت، ما لم يسُقه أحد ما. ما كادت السيدة تهدّد... حتى ظهر المستأجر بيتر دميتريتش ذاته، طالباً الشفاعة له، متراجعاً عن شكواه، وذهب مباشرة إلى ليوشكا مثل جبل. يقول لي: يكفيك، الكسندرا فاسيليفنا، ويقول، إن ليوشكا هذا ليس مخبولا. إنه، كما يقول، يشبه الأحمق، إنه لا يَهُمُّه التعنيف. كان المستأجر جبلاً دفاعاً عن ليوشكا.

العمة: (ترسم إشارة الصليب) له اللّه...

الطباخة: ما يقوله المستأجر كلام مقدس، بالنسبة لنا، لأنه رجل متعلم، ويدفع أجرته بانتظام.

العمة: وحتى دونياتشكا جيدة. لا يمكنني أن أحصل على مثل هؤلاء الناس- يطلقون النَّمَّامين عليه...

الطباخة: إنها الحقيقة، إنها الحقيقة. قبل قليل فقط، كنت أقول لها: «اذهبي وافتحي الباب، يا دونياتشكا» قلت ذلك باللطف، والحسنى. أما هي فقد انفجرت ضاحكة في وجهي: «أنا، لست بوَّاباً لديك، افتحيه بنفسك» أما أنا، ففي تلك اللحظة، كنت مضطرة أن أُخرج كلَّ ما لدي قلت: كيف نفتح الباب، وبما أنك لست بواباً، فكيف إذاً تبادلين بواب العمارة القبل على الدرج، أنت هكذا تصبحين بواباً. وبما أنك تتعطرين بعطور الشباب، فأنت بواب.

١ـ المقصود ست قطع من فئة العشرة كوبيك.

العمة: يا إلهي، رحمتك! شبعنا من التجسس طيلة هذه السنين. الحياة طويلة أمام هذه الفتاة الصغيرة. شيء واحد مزعج: إنها لا تشبع...

الطباخة: ما شأني أنا! قلت في وجهها: أن تفتحي الباب لا يعني أن تكوني بواباً. أما إذا تلقيت الهدايا من بواب العمارة، فأنت حينئذ بواب. وتضع أحمر الشفاه من أجل المستأجر...

جرس

الطباخة: ليوشكا، ! ليوشكا! آه منك، لقد ضعت. لقد أبعدوا دونياتشكا، أما هو لا يُلقي بالاً.

يختفي رأس ليوشكا، الطباخة تهرب من الغرفة.

ليوشكا: (مُطلاً، ومخاطبا العمة) لا، يا عمتي! لن أذهب إلى القرية. أنا شاب لست أحمقَ، إذا ما رغبت أستطيع أن أخدم بهمة، لن تمحيني من المكان، أنا لست من هذا النوع..

العمة: آه منك! كم لديك من الخطايا!

ليوشكا: ليكن، يقولون: ليجدِّف أمام العين. فأمام أي عيون سأجدّف، عندما لن يعود أحد في البيت.

الطباخة: (مخرجة رأسها من الباب) عمتي ماترينا، لنذهب إلى المطبخ، سيعود المستأجر قريبا.

يخرج الجميع

ليوشكا: (خارجا): أنا شاب لست أحمق. سوف أُلطِّخ تلك العيون.

يدخل المستأجر مع سيدة. يعلِّق معطفه وقبعته عند الباب. السيدة تعاين المكان بارتباك.

المستأجر: اسمحي لي أن أساعدك بخلع المعطف.

السيدة: أوه، لا، لا داعي. ألا تتذكر شرطي. أنا هنا لدقيقة واحدة، فقط لرؤية ألبومك.

المستأجر: عزيزتي! أي سعادة! اليدان العزيزتان (يقبّل يديها) لنجلس هنا (يقودها إلى الطاولة).

السيدة: لا، ماذا تقول، لن أجلس بأي حال من الأحوال. (تجلس وتنظر إلى السقف) كم هو مريح المكان لديك.

المستأجر : (ينظر لا إراديا إلى السقف) أنا سعيد جداً، لأنه أعجبك. (يأخذها من يدها)، دعيني أنزع قفازا واحدا. أريد أن أقبل هذا الخِنصر.

السيدة: القفاز؟ ولا بأي ثمن في الكون! هل فقدت عقلك؟... لا، أنت لا تَفُكُّه كما يجب، هنا توجد كبسات لا أزرار، أيها المجنون!

الباب يفتح مع صرير. يدخل ليوشكا مع لعبة البوكر، يذهب ويحرك الموقد. المستأجر والسيدة يعتدلان وينظر كل واحد منهما في جهة مختلفة.

السيدة: (بنبرة مَن هم مِن عَليّة القوم). لديكم سقف جميل جدا... وجِصٌ.. أنا أحب الجص بشكل عام...

المستأجر: نعم، أليس كذلك. إنه مريح جدا، خاصة في الصيف... عندما يكون بالإمكان السباحة بالقارب... (يُلقي نظرةً من طرف عينه على ليوشكا) اليعاسيب تشقشق في كل مكان... أقصد النمل.

ليوشكا: (يحرك الموقد ويتحدث). أنا شاب لست أحمقَ. أنا لست متطفّلا. أنا لديَّ عمل، لدي عمل.

السيدة: كان لدى أختي الكبرى روماتيزم. يقولون إنه مؤذٍ.

يعاين ليوشكا بقعةً رطبة على الأرض أثناء خروجه، يُحوِّل نظراته على ساقي الضيفة، يهز رأسه موحيا بعدم الرضا.

ليوشكا: انظر، لقد لطّخوا المكان بأقدامهم. وسوف تأتي صاحبة المنزل لتوبِّخني. هذا أيضا ليس عدلاً.

المستأجر : (محرجا) لا بأس، لا بأس، اذهب.

يخرج ليوشكا.

المستأجر: أخيرا نحن وحدنا. عزيزتي! لقد حلمت طويلا بهذه اللحظة، في ليالي الأرق... سونيا! سونيتشكا!

السيدة: (مبتعدة جانبا) أنت دونْ جْوان، الكلُّ يعرف هذا.

المستأجر: ما هذا الهراء! سونيتشكا، انزعي حجابك!

السيدة: ولا بأي حال!

المستأجر: الحجابُ يُظلل الوجه وحسب، أنت من دونه أجمل بكثير.

السيدة: توقَّف. لقد قلتُ إنني لن أنزعه، ولن أنزعه. (ترفع الحجاب).

المستأجر : سونيتشكا، نادني بيتيا!

يُفتح الباب ويدخل ليوشكا ومعه خِرقة. المستأجر والسيدة يقفان في وضعية غير طبيعية، حانيان رأسيهما فوق الطاولة.

ليوشكا: انظر، إنهما يحملقان. لا بد أنهما لاحظا البقعة. إنهما يعتقدان أنني لا أفهم. عثرا على أحمق. أنا أفهم كلّ شيء. أنا أعمل مثلَ حصان! (يقترب ويمسح الطاولة تحت أنف المستأجر تماما)

المستأجر: (خائفا) ما بك أنت؟

ليوشكا: كيف تسأل ما بي؟ لا يمكن أن تمرَّ الأشياء بعيدا عن عيني. دونياتشكا، ذلك الشيطان الأحول، إنها لا تعرف إلا النميمة، إنها

ليست طباخة عندما يتعلق الأمر بالنظام... و... البواب على الدرج...

المستأجر: اغرُبْ عن وجهي! أنت ثرثار!

السيدة: (تهمس للمستأجر بخوف) أوه، لا، لا داعي لأن تطرده. سيعتقد أننا نريد أن نبقى وحدنا... سيشي بنا. (ليوشكا) لا بأس، لا بأس، أيها الفتى، بإمكانك أن تبقى... ولا تغلق الباب عندما تذهب.

يخرج ليوشكا مغلقا الباب خلفه.

المستأجر: (يضم كتفيه باحتقار). يبدو أنكِ تخافينني؟

السيدة: أبدا. لقد وعدتني أن تريني ألبومك، وأنا جئت من أجل هذا.

المستأجر: أوه، نعم! ها هو. (يتناول ألبوماً عن الطاولة) هذه صورة عمتي.

السيدة: حقا؟ هذا لطيف جدا. أين هي؟

المستأجر: إنَّها هنا (ينحني ويقبلها قرب أذنها)

يفتح ليوشكا الباب. المستأجر يقفز مبتعدا.

ليوشكا: لقد طلبتما أن لا أُغلِقَ البابَ، وقد نسيت (ينظر إلى المستأجر) لماذا قفز؟ يا له من غريب الأطوار! الضوء وافر في الغرفة، وهو يجفل. (يخرج)

السيدة: (تنهض) حان وقت الذهاب.

المستأجر : لن أدَعَكِ.

السيدة: هل فقدت عقلك؟ كيف تجرؤ على منعي، في حين أنا على عجلة من أمري. (تجلس) المستأجر: هل تسمحين لي بكلمتين؟ كلمتين فقط.

السيدة: قلْ!

المستأجر: عديني فقط أن لا تغضبي.

السيدة: لا بأس، تكلّم.

المستأجر: أنت امرأة حقيقية. أوه، كم هو الفيلسوف فينينغر[1] محق بعمق. انظري إلى نفسك: كل ما تقولينه، كل ما لا تفعلينه كل شيء«ن»، كل شيء.

السيدة: ما هذا الهراء، لا شيء من هذا.

المستأجر: لماذا جئت إلى هنا؟ لقد جئت من أجل أن تري ألبومي. هل رأيته؟ لا. هل هذا منطق؟ تكذبين على زوجك ثلاثاً، تُتوِّهين ثلاثة خياطين والجدةَ المريضة، وطبيبَ الأسنان بالقصة، من أجل أن تري ألبومي. تأتين بعد ذلك، وتنفخين شفتيك، تستديرين وتذهبين دون أن تُلقي نظرةً واحدة على الألبوم. هل هذا منطقي؟ أليس ذلك«ن» في المعنى الفلسفي الكامل للكلمة؟

السيدة: أنت لا تحبني...

المستأجر: أرجوك، لا تقاطعيني. في معرض دفاعك عن نفسك يمكنك أن تقولي شيئا واحدا فقط، وهو بالتحديد، إنَّك جئت، على أي حال، ليس من أجل الألبوم، وقد كان الألبوم مجرد ذريعة. في هذه الحالة من أجل ماذا جئت، أنا أسألك؟ أها؟

السيدة: إنك.. بكل بساطة دونْ جْوان. هذا ما يقوله كل الناس... أنت تُكاشفني بحبك، ونفس الشيء ربما تقوله لماريا نيكولايفنا.. نعم، نعم الكل يلمِّح إلى ذلك... وإلى كيتا فيشيلوفا.

المستأجر: أنا أسألك، لماذا جئت إلى هنا؟ حاولي أن تجيبي!

السيدة: وأنا أقول لك إنك دونْ جْوان. لا تُثِر سأمي!

المستأجر: أين منطقك؟

١ـ فينينغر أوتّو(١٨٨٠- ١٩٠٣)- فيلسوف نمساوي، مؤلف كتاب«الجنس والشخصية«الكراكتر»١٩٠٣، الذي لقي نجاحا منقطع النظير، أنهى حياته منتحرا. قدّم نظرية تتعايش بموجبها بدايتان في نفس الإنسان: ذكرية وأنثوية. «ذ»، و«ن».

السـيدة: وأنا أقول لك إنك...

المستأجر: إنه «ن» الرسمية. أما الآن، فاسمعي، أنا سأجيب عنك: الألُبوم لا شأن لـه هنـا، أنت جئت معـي بكل بسـاطة حتى نتبـادل القبل. نعم، نعم، لا شـيء. هل أنت مخبولة، أها؟ توقفي عن المخاطرة بسمعتك من أجل أن تشـاهدي ألبوماً سـخيفاً. لو صدَّقتُ هذا، لعنى ذلك أنني أعتبرك إوزّة، ولن أحترمك بفلس.

السـيدة : اتركني! كيف تجرؤ.

المسـتأجر: (يغلق الباب). لكني أحترمك، وأعتـبرك امرأة ذكية، وأعرف أنني إذا لم أقبِّلك، كما يجب، فإنني أسـتحق سـخطك بجـدارة. لا، بيتر بوتياكـين ليس كذلك... (يُقبِّل المرأة) بيتر بوتياكين هكذا، هكذا... نعم هكذا... أوه!

يدخـل ليوتشـكا. يقفـز المسـتأجر والمـرأة في اتجاهـين مختلفين. قبعتها مالت، وعلى حجابها عَلِقَت نظارة المستأجر. وعلى كتف المستأجر علـق بروش السـيدة الـذي كان على شـكل البواء(نوع مـن الأفاعي. م). ليوتشكا يُحرِّك النار في الموقد.

المسـتأجر (يمسـح آليا على رأس البواء). اجلس، أقصد اجلسـوا، من فضلكـم، أنتم[1] تقفون طول الوقت.

السـيدة : أوه، لا، بالعكس.. أنا... أجلس...

المستأجر : سـيترتب عليك الجلوس طويلا في القطار.

السـيدة: (تتأمل اللوحة على الجدار). من أين اشتريت هذا... المصباح؟ إنه قطعة مدهشة.

المستأجر : أنا عموما أحب أقمشـة الحرير(يقترب وينزع نظارته على حجابها) عفوا !Pardon.

---

١ ـ في العادات الروسـية. يخاطب الشخص بصيغة الجمع من باب الاحترام والتوقير.

السيدة: (مرعوبة) ما بك.. ماذا تفعل، أيها المجنون.

المستأجر: (غامزاً ناحية ليوشكا) أوه، لا، أشياء تافهة... لقد علق عليك عقب سيجارة.

السيدة: ماذا؟

ينفجر ليوشكا ضاحكا مغطياً وجهه بذراعه و يخرج.

السيدة: أعتقد أنه لاحظ. ذلك شيء فضيع! قل لي، يبدو أن النساء لا يحضرن عندك هنا؟

المستأجر : أبداً. ربما تحضر عجوز ما لشأنٍ ما.

السيدة: هذا يعني أنك في الحقيقة لست دون جوان؟

المستأجر: إلهي أغثني! بالطبع، أنا لا أجادل في ذلك، النساء يُعجَبن بي، وأنا لست مذنبا في ذلك. لا يمكنك أنت أن تمنعي الشمس من أن تُنمّي الزهور. هذا منطقي تماما.

السيدة: يا لك من ذكي! كلامك جميل جدا.

المستأجر: عزيزتي! أرجوك لا تعتبريني ذكيا. أنا أسمع هذا الإطراء كثيرا. لقد مللت عقلي الجاف، الذي يحلّل أبداً كلَّ شيء. أنا متعطش إلى المشاعر التي تبتلع كلَّ شيء! عزيزتي! سمّيني بيتيا! سمّيني بيتيا!

السيدة: (محرجة) بي- تيا!

المستأجر : ترى هل ستأتين عندي مرةً أخرى؟ نعم؟ نعم؟ قوليها لِبيتياك..

يندفع ليوشكا داخل الغرفة و يجأر ملء حنجرته.

ليوشكا: أيتها اللعينة! سوف أريك أنا كيف يكون التسكع! سوف أقلب وجهك إلى مؤخرة!

المستأجر: (مرعوبا). هل فقدتَ عقلك، أيها التعس! من تشتُم أنت؟

ليوشكا: أشتمها هي. الحقيرة، إن تساهلت معها، فلن تتركك حيًا. لا يجوز السماح لها بدخول الغرفة. لا يأتي منها غير الفضائح!

السيدة: (تسوّي وضع القبعة بيدين مرتجفتين) أي مجنون هذا الفتى. أخاف...

ليوشكا: (يفتش تحت الأريكة، ويدق بمحراك الموقد على الأرض). بِسْ، أيتها اللعينة!

المستأجر : إلهي! ما هذا؟

ليوشكا: (يستخرج هرّة من تحت الأريكة). وتسأل ما هذا؟ إنها قطة! انظر، اللعينة تتشبث! لا يجوز إبقاؤها في الغرفة. بالأمس دخلت إلى غرفة الضيوف واختفت خلف ستار النافذة...

المستأجر : (مغلقا فم ليوشكا، يطرده من الغرفة). اخرج أنت، من أجل الله!

السيدة : يا إلهي! كم خفت! أنا ذاهبة الآن، لا أستطيع!

المستأجر : (يجثو أماها على ركبتيه) عزيزتي، اهدئي! أعدُك.. سوف أطرد هذا الأبله غدا. ترى، هل ستأتين غدا؟ هل ستأتين حقا إلى بيتيا؟

السيدة : لا أدري... قدماي ترتجفان. لقد خِفت كثيرا.

المستأجر: ترتجفان؟ سأقبّلُهما، سأقبل هاتين الساقين العزيزتين! هكذا. الآن لن تعودا للارتجاف.

السيدة: أوه!

المستأجر: والآن اليسرى، فإنها ستغضب. (يقبّل طويلا)

تبتسم السيدة، مبعدة رأسه، مغلقة عينيها بكفيها. يدخل ليوشكا. دون أن يلحظاه.

ليوشكا (هامساً) أنا شاب فطن! فطنٌ ومحبّ للعمل. سأُغلق الموقد... (ينظر

إلى المستأجر مندهشا) ماذا يفعل هناك؟ إنه مثل زرٍ التصق بحذائها! لا.. يبدو، أنه أضاع شيئاً ما. سأذهب لأبحث معه. (يقترب وينحني بسرعة) يقفز المستأجر، الذي اصطدم رأسه برأس ليوشكا. السيدة تقفز مضطربة.

ليوشكا: (ينظر تحت الطاولة). ولا شيء هناك.

المستأجر: (صارخا) عمّاذا تبحث؟ ماذا تريد أنت منا أخيرا؟ (يخبط بقدمه بقوَّة).

ليوشكا: اعتقدت أنكما أضعتما شيئاً ما... مرة أخرى تضيع الأشياء مثل بروش تلك السيدة، ماريا نيكولايفنا، التي تأتي لتشرب الشاي عندك... (للسيدة) بعد ثلاثة أيام من خروجها من هنا، جاءت تقول، إنني أموت، يا ليوشكا، لقد أضعت البروش. بحثت، ووجدته خلف الستارة فوق الطاولة الصغيرة.

السيدة:(أمسكت المستأجر من ذراعه بحركة هستيرية). هل هذا صحيح؟ هل هذا صحيح.. صحيح؟

ليوشكا:(مهدئا). أقسم أنه صحيح! ولّت دونياتشكا- الشيطان الأحول- هاربة. لو لم أكن موجودا لسرقتْ كلَّ شيء.

تأخذ السيدة بروش البواء، وتهرب باتجاه الباب.

ليوشكا: وأنا مثل الحصان أُبعِد كل شيء.. أقسم باللّه، إنها مثل كلب...

المستأجر:(يأخذ معطفه وقبعته، ويركض خلف السيدة صارخا في الفضاء) لا بد من طرد هذا الأحمق. في الحال لا بد من اقتلاعِه، حتى لا يبقى له نَفَسٌ هنا. (يركض متعجلا).

ليوشكا :(منتشيا) أنا شاب لست أحمق.

الطباخة :(ملقية نظرة في الغرفة) هل خرجا؟

ليوشكا : لقد هربا كما لو كانا يطاردانأحمق ما.

الطباخة : ماذا؟

ليوشكا: (مستخفا) ومن أين لي أن أعرف. معلوم، أيها السادة. لدي أشغال حتى رأسي (مبتسما) لقد أنهيت عملي الآن. غدا يوضع سقف للشيطان الأحول، سوف أعمل لديهم خادما للفتيات.

الطباخة: (مسرورة) حقا تقول؟

ليوشكا: إذا ما قلتُ ذلك، فهذا يعني أنني أعني ذلك.

الستارة

الكسندر كوبرين

(١٨٧١-١٩٣٨)

- مديرة السحب.
- صاحبة الشقة.
- الرسام.
- باتي المستقبل.
- أسطورة.
- القبلة المنسية.

الكسندر كوبرين

كاتب وروائي روسي، ولد في مدينة ناروفتشات (حاليا محافظة بينزينسكايا) لعائلة موظف سليلِ عائلة نبيلة، والدته تنحدر من عائلة تترية نبيلة، عاش طفولته وشبابه في موسكو، درس في الكلية العسكرية، وخدم ضابطا في الجيش.

بدأ مشواره الأدبي بكتابة الشعر، لكنه لم ينشره، ثم نشر قصته الأولى «التجلي الأخير» سنة ١٨٨٩. خِدمتُه ضابطاً في الجيش منحته تجربة فريدة، ومادة غنية للعديد من أعماله لاحقا. نشر أعماله في مجلة الثروة الروسية. بعد تقاعده من العسكرية، انتقل للعيش في كييف، ولم يكن لديه مهنة مدنية، تنقَّل في ربوع روسيا، ثم انتقل إلى بيتربورغ، وتعرف على تشيخوف وغوركي وبونين، وعمل سكرتير تحرير لمجلة «مجلة للجميع»، استدعي للخدمة العسكرية في الحرب العالمية الأولى وأُرسل إلى فنلندا، لكنه سرح بعد سنة لأسباب صحية. وأصبح رئيس تحرير صحف: «روسيا الحرّة»، «الحرّية»، «صحيفة بيتروغراد». لم يتقبَّل ثورة الشيوعيين، لكنه ذهب إلى لينين واقترح عليه إصدار صحيفة «الأرض» للفلاحين. عمل في صحيفة «الآداب العالمية»، التي أسسها غوركي، في تلك الفترة ترجم رواية شيللر «دون كارلوس»، اعتقل فترة قصيرة، وأُدرج اسمه ضمن قائمة المعارضين. التحق بقوات الجيش الأبيض القيصري في الحرب الأهلية، وتسلَّم إدارة تحرير الجريدة العسكرية «ناحية برينيفسكي». وبعد هزيمة الجيش الأبيض، ارتحل إلى هليسينسكي في فنلندا، وبعدها انتقل إلى باريس، حيث كابد الفقر فيها، وساءت أحواله الصحية، مما دفعه لطلب العودة إلى روسيا، حيث تحقق له ذلك سنة ١٩٣٦، إلا أنه سرعان ما توفِّي متأثرا بمرض سرطان المريء سنة ١٩٣٨، ودفن في ليننغراد.

نال شهرة عالمية بروايته «المبارزة» ١٩٠٥، التي هاجم فيها طبقة العسكريين في روســيا، ثم أثار ضجة كبرى بروايته «الهوة» ١٩٠٩، التي عالج فيها مشكلة البغاء، وكتب قصته الرومانسية سوار العقيق، وغيرها من القصص القصيرة.

مديرة السحب

من أكثر القصص الدينية واقعية

هذه القصة التي سأرويها لكم، كان قد رواها محام مشهور في جمع غير كبير، اسمه معروف طبعا لكل المتعلمين في روسيا، لكنَّني، ولأسباب محدّدة لا أستطيع ولا أرغب بذكره. أُقدم هنا صورته التقريبية: قامة طويلة، جبين قليل الارتفاع وواسع جدا كما هو عند روبنشتاين[1]؛ وجه حليق، تماما كما هو عند ممثل، ولا يمكن لأحد أن يعتقدنَّ أنه خادم؛ غرّة خطها الشيب، رأس أسد، فم خطيب مفوّه- بوق، كما لو أن الطبيعة صنعته من أجل الكلمات المزلزلة، الحماسية.

راح يضحك أثناء حديثنا فجأة. ضحك بصدق، تماما كالكهول عندما يضحكون مستذكرين أيام شبابهم. قال:

- طبعا، أيها السادة، يمكن أن تحاكي القصص الدينية بأسلوب هجائي، كما نفعل نحن الآن، إلى ما لانهاية. لن تتعب من الضحك.... وإذا ما سمحتم لي، فأنا الآن سأقص عليكم، كيف أننا ثلاثتنا... لا، أنا مخطئ، بل أربعتنا... لا، ليس أربعتنا، بل خمستنا، احتفلنا بعيد الفصح... أؤكد لكم، أن هذه القصة ستكون أكثر خيالا من جميع القصص الدينية. ألا ترون أن الحياة ببساطتها أكثر صدقيّة من أكثر الأفكار تفنّنا؟...

كنا ثلاثتنا مدعوين إلى شجرة عيد الفصح عند صاحب مصنع دلفنة النحاس شوكين في ضواحي سيفيرسكايا. كنَّا مدعوّين لاصطياد الثعالب والذئاب بمساعدة أهالي قرية كوستروما من أجل حصارها، وفيما

١ ـ (١٨٢٩- ١٨٩٤) عازف بيانو روسي، وموسيقار، وقائد أركسترا.

لو لم نوفق، فيكفينا رحلة صيد مع كلاب السلوقي. تضمّنت تلك الدعوة الكثير من الإغراءات. كان من المفترض أن تُنصب شجرة عيد الفصح في الغابة- شجرة حية حقيقية، إلا أنها مزينة بمصابيح كهربائية. إضافة إلى ذلك، كان هناك حشد كبير من أطفال رائعين، لطيفين، أحرار، غير مربكين- مع مثلهم تشعر بنفسك أفضل مئة مرة مما لو كنت مع الكبار، وأنت نفسك تصبح، من حيث لا تلاحظ، صبياً صغيراً بعمر الثانية عشرة. وقد اجتمع لدى عائلة شوكين كل ما هو عبقري وشيق مما حوته مدينة بيتربورغ.

أما نحن الثلاثة فقد كنا: خادمكم العبد الفقير، حينها كنت مساعد محام، وأحد مغني (الباص) الجدد- وهو الآن ذو شهرة عالمية- والثالث، وهو متوفى الآن- وقد رحل منذ أربع سنوات- بالأحرى لم يتوفَّ، بل ابتلعه المنصب الوظيفي.

رحلنا بمزاج مرح، مسرورين إلى أبعد الحدود. اشترينا حلوى المطعَّم، والجاتو، ومصابيح ساحرة، وألعاباً نارية، وزلاجات الثلج، ومناظير، وزلاجات الجليد، وكل سقط المتاع. كنّا نشبه الفلاحين في القرى. لكنَّ مزاجنا بدأ يتعكّر منذ لحظة وصولنا إلى محطة القطار. حشود هائلة كانت تقف قرب الأبواب التي تفضي إلى رصيف المحطة، تلك الحشود التي أوقفها حرس المحطة بصعوبة كبيرة. كنت تشعر بوجود كراهيَّة بين هؤلاء الناس، تلك الكراهية التي لا تشعر بها إلا في السيرك، والسفن، ومحطات القطارات.

كانت كل تلك القطعان تندفع إلى الرصيف، مع الصافرة الثانية. خرجنا نحن آخر الناس خوفاً على ما اشتريناه. وقد مشينا مع طول القطار من رأسه حتى ذنبه. لم تكن هناك أماكن. استقبَلنا في الدرجة الثالثة فلاحون طيبون بهدوء نسبي، حتى إنهم أفسحوا لنا مكانا كي نجلس. وقد كان مخجلا أن نستقبل استضافتهم بالإساءة. إنهم من دوننا كانوا متراكمين بعضهم فوق بعض. كان الوضع ذاته في الدرجة الثانية، باستثناء غياب الود.

على سبيل المثال: كان أحد الموظفين مسافراً من دون تذكرة على ما يبدو؛ حاولت أن أُلفت نظره إلى أن النظام يستدعي أن يُفسح الركاب، الذين لا يحملون تذاكر السفر، المكان للذين يحملونها. لكنَّه لسبب ما دعاني بالمحتال والمجنون وقال: «أنت لا تعرف مع من تتحدث» واعتقدت بأنه وزير في غير ملابسه، وأننا وصلنا إلى الدرجة الأولى.

هنا حالفنا الحظ فوراً. كانت جميع القُمرات مغلقة طبعاً، كما يكون عادة، لكن كان باب إحداها مفتوحا مصادفة، وأحدنا، وبالتحديد الرفيق الثالث، تمكّن من الإمساك بمصراع الباب ومنعه من الانغلاق. تبين أن امرأة تجلس في القُمرة، في الثانية والثلاثين من العمر، فائقة الجمال، لكنها كانت في ذات الوقت غاضبة جدا، كأنها برميل بارود، أُشعل للتو تحته فتيل.

- أين تندسّون، ألا ترون أن القُمرة مشغولة؟

يا إلهي! كلنا يعرف أن النساء، وخاصة الموظفات منهن، في الدرجتين الأولى والثانية في السفن والقطارات، يتصرفن بفظاظة، وقسوة، وقلة لباقة. يمكن لاثنتين أن تشغلا نصف المقطورة تحت عنوان: «قسم النساء»، في حين يزدحم الرجال في النصف الآخر مثل سمك السردين في العلبة المغلقة. لا تحاولوا أن ترجوهن من أجل استضافة عجوز مريض أو طفل في السادسة أضناه السفر- يكون الصراخ، والفضائح، في الحال، «والحق الكامل»، الخ. في حين نجد تلك المرأة قادرة على اقتحام «قسم الرجال» المجاور بكل ما لديها من صناديق خشبية كبيرة، وصناديق الكرتون، والمظلات الشمسية، وكل سقط المتاع، وتضيق على الرجال مكانهم بوجودها، وتعلن: «أنا، ولتعذروني، لا أطيق مجتمع النساء»، وتظل تطلق ثرثرة مرفقة بوَلْولةٍ، وضحكاتٍ لعوبة، وتأوهاتٍ، وتثن، وغنجٍ، تشعر معها في الصباح بأنك محطم من التعب أكثر مما يسببه الأرق واهتزاز القطار. وبرفقة المربّية الأجنبية، والمرضعة، وأربعة أطفال تدخل إلى القُمرة، حيث تجلس أنت بهدوء مع ابنك المؤدب، الهادئ، تقف على العتبة متذمرة: «حتى هنا احتشد المكان

بالأطفال» بكلمة، كل هذا، وغيره، درسناه جيدا، وكنا متأكدين، بأن جميع تدابير إظهار الضعف، والإقناع، والمنطق لا تجدي؛ لكن، وكما في كل الحالات، وللمرة الخمسمائة، حاولنا أن نؤثّر على مشاعر السيدة الغاضبة. وضع ثيودور إيفانوفيتش يده على قلبه، وهتف بصوته المدهش بنبرة فيها إغواء قائلا:

- أيتها (السنيورة)[1] الرائعة... علينا السفر ثلاث محطات... إذا أمرت، سنجلس عند قدميك.

حتى تلك الحركة (الأوبرالية) قتلتنا. من يعرف، ماذا لو كان وحيدا؟.. ربما تشجعت. لكنّنا كنا ثلاثة. وربما لهذا السبب وصل الفتيل إلى هدفه، وانفجر برميل البارود. وبكل صراحة، أقول، إنني لم أسمع لا من قبل ولا بعد ذلك مثل هذه الشتائم. خلال دقيقتين، تمكنت من قذفنا بالنعوت التالية: لصوص القطارات، الأرانب[2]، القتلة، الذين يلجؤون إلى الكلوروفورم من أجل تحقيق أهدافهم الدنيئة، وحتى... سامحوني أيها السادة... نعتتنا بتجار البغاء مع القسطنطينية.

بعد ذلك، وفي ذروة غضبها، صاحت:

- أيها الكمساري!

لكن، هل كان بإمكان الكمساري أن يأتي لنجدتها؟ لا شك أنه في تلك اللحظة كان يشق طريقه بين جموع الركاب في المقطورة الأخيرة.

عندها، سمحت لنفسي، وأنا مندهش من هجومها العاصف، أن أسألها بلين:

- سيدتي، أنت تسافرين وحدك.. من الممكن، أنك تعرفين عن طريق الصدفة، لمن تعود كل هذه الأمتعة: أربعة صناديق كرتونية، حقيبتان، سلة صفصاف، حصان خشبي بالحجم الطبيعي تقريبا، وتلال

١ـ السيدة بالفرنسية. هكذا في النص[م]

٢ـ الأرانب: تسمية في اللغة المحكية الروسية تطلق على الركاب المتسللين إلى القطارات من دون تذاكر.

الزنبق، وألعاب الأسلحة، والطبول وسيوف المبارزة، والغطاء، وأخيرا هذا الجاتوومرطبانات المربى؟

أجابت بشكل جاف مستديرة نحو النافذة:

- لا أعرف.

استطردت بنبرة صلاة العبد:

- سيدتي! أنت ترين بنفسك، أننا مثقلين بالأمتعة مثل الجِمال، تكاد أقدامنا تنهار من الإرهاق... لن نزعجك طويلا بوجودنا، إنها محطات ثلاث... هل تسمحين بأن نضع هذه الأمتعة الغريبة في الشبكة في الأعلى؟ إن ذلك من التسامح المسيحي.

أجابت السيدة:

- لا أسمح...

- ومع ذلك هذه الأمتعة ليست لك، أليس كذلك؟ فلترتبيها أنت كما تشائين.

ومرة أخرى أدارت نحونا وجها متورداً بالحمرة.

- آه! جربوا. عليكم أن تجربوا! هل تعلمون مع من تتكلمون؟ أيها الأشقياء! إنكم لا تعلمون بمن تتحرشون. أنا- مديرة السحب[1]! أنا أستطيع، خلال أربعٍ وعشرين ساعة أن...

لم نكمل الاستماع. خرجنا إلى الممر من أجل مشاورات صغيرة. وانضم إلينا عجوز لطيف، نظيف، ضئيل الحجم، ذو رأس فضي، يحمل نظارة ذهبية. كان دائما شاهدا على تلاومنا المتبادل. قدّم لنا نصيحة بسيطة لكنها خبيثة.

١ـ المقصود سحب المعادن في مصانع التعدين[م].

عندما راح القطار يبطئ من سيره قبيل المحطة الثانية، وقد راحت السيدة تتهيأ، دخلنا إلى القُمرة بشكل احتفالي. العجوز الصغير سار خلفنا بشماتة. سأل الثالث، الذي توفي:

- وهكذا، أيتها السيدة، إنك تؤكدين بأن هذه الأمتعة لا تعود إليك؟

- مجنون! قلت لكم إن هذه الأشياء ليست لي.

سأل العجوز الصغير بصوت طائر أبو الحناء:

- اسمحي لنا أن نعرف، لمن تعود؟

- ليس شأنك.

في هذه اللحظة توقف القطار. اندفع الحمَّالون داخل القطار. أمرتْ السيدة أحدهم- حتى أنها دعته سيمون- بأن يأخذ الأشياء.

وهنا، أخذتنا الحميّة من أجل الأمتعة الغريبة! كنّا أربعتنا شاهدين على أن تلك الأمتعة لا تعود إلى السيدة، إنما لمسافرة أخرى كثيرة النسيان. إن هذه القضية طبعا لا تخصنا، لكنها مسألة مبدئية. ذهبنا أربعتنا إلى مخفر الدرك. كانت السيدة تفح مثل ثعبان سام، لكنّنا كنا قد أحطناها بالمنجل. قالت: «نعم! الأمتعة لي!» عندها أجبناها: «ألا يجدر بك أن تدفعي عن كل المكان الذي أشغلتيه؟ إن هذا يسبب الخسارة لسكة الحديد، ونحن بصفتنا ناس شرفاء لن نسمح بذلك». عندها صاحت: «لا، هذه الأمتعة ليست لي! وأنتم أشقياء!» عندها قلنا: «أيتها السيدة، لقد رأيناك بأم أعيننا، تحاولين الاستيلاء عليها»

- أكرِّر لكم، أيها الثرثارون، إنها أمتعتي الشخصية... وأنتم تعاملتم مع سيدة لا حول لها مثل الخنازير!

لكن، تدخل، هنا، العجوز الصغير السام، غرّد مثل عندليب، وبمثابة شاهد غير متحيّز أكّد على سلوكنا النبيل، وأننا وقفنا على أقدامنا لمدة ساعتين وأكثر(أتخيل كيف ملّحنه سيدات الدرجة الأولى والثانية على مدار حياته الطويلة!).

انتهى الأمر بأنها انهارت وراحت تبكي. و نحن تراخينا. قدّمنا لها الماء، رافقها الموسيقي حتى عربة الحوذي، وتحطّمت الاتفاقية الغبية بسرعة وبساطة. كان العجوز الشخص الوحيد، الذي راح يهز رأسه لكل واحد منا بامتنان، ثم ذاب فجأة في العتمة.

عندها رحنا نمشي ثلاثتنا من جديد سويا على رصيف المحطة، وعندما نظرنا في الساعة، تأكدنا بأننا لو أسرعنا إلى شوكين، فإننا لن نصله قبل الساعة التاسعة صباحا. وهذا الأمر سيكون خارجا عن نطاق النكتة. رحنا نستفسر لدى الحرّاس عن أفضل فندق، بمعنى أقلها بقّاً.

وفجأة رحنا نسمع صوتا معروفا لنا، لكنه الآن رائع، ودافئ:

- أيها السادة، إلى أين أنتم عازمون؟

نظرنا حولنا. رأينا – سيدتنا. وجه جديد تماما:

- إذا لم يكن الأمر مثيرا للاشمئزاز، فأنا أدعوكم للاحتفال حول شجرة عيد الفصح لدي... لا تغضبوا مني... فأنا مع ذلك امرأة... ومع سكك الحديد هذه فإنك تفقد عقلك.

وأقول لكم الحقيقة، لم أكن في يوم من الأيام مرحاً، كما كنت في ذلك المساء. حتى أن الألعاب النارية، وبخلاف جميع المرات، اشتعلت بشكل رائع. والأصدقاء الذين تجمعوا هناك كانوا مدهشين. و نحن على علاقة صداقة حميمة مع آنّا ثيودوروفنا حتى الآن.

انحنى، حتى لا يعيق عينيه الظل، وسأل:

- أليس صحيحا، يا آنّا ثيودوروفنا؟

الصوت الثخين الضاحك أجاب من خلال العتمة:

- قليل الحياء. اللِّسان لديكم، أيها المحامون، مثبت، بطريقة لا يمكنكم من خلالها إلا تحريف الأشياء..!

صاحبة الشقة

على الأغلب - فإنها أرملة الرقيب في سلاح المشاة، ولهذا السبب هي تدعو نفسها بضابطة أركان. كانت سمينة، قذرة، تبقى طول النهار بقميص نومها الأبيض الفضفاض، وجهها أحمر، حازم، وصوتها حاد، تعابير وجهها وحركاتها عسكرية. تحب احتساء القهوة مع القشدة الساخنة، وغالبا ما تجلس لتفرد أوراق اللعب في لعبة «قبر نابليون». تذهب في الصباح إلى السوق بمتعة، حيث تتمتع باحترام مشوب بالخوف من قبل بائعي الخضار، الذين لا يعترفون أحيانا حتى بسلطة الشرطي، وذلك بفضل حيوية جسمها وشخصيتها. تحب استخدام الكلمات الأجنبية في حديثها، وتدعو المستأجر بـ«مسيو» بالضرورة.

عندما يرى المستأجر القادم (مستأجر المستقبل)، الطالب الفقير، أو الموظف، أو الحوذي، أو المراسل الصحفي، البطاقة البيضاء على زجاج النافذة، يعرّج على الشقة ليتعرف على شروط استئجار الشقة، سيرى أمامه ملاكاً لا مؤجِّرةً:

- هل يوجد لديك سرير خاص؟ لا؟ لا بأس، سنشتريه لك غداً. ألا يوجد لديك فراش؟ لا تقلق، - سيتوفر كل شيء غداً - لا تنظر إليَّ كما تنظر إلى أي ملّاكة أخرى.. إنني، بفضل الله، قادرة على استيعاب الوضع.. هل ستدفع مقدماً؟.. زوجي، لتحفظه السماء، خدم في كتيبة «ن»، سأخبرك بوصفي أماً: ادفع مقدماً عن شهر! سترتاح نفسُك. ما الفضل في ذلك؟ إنك لن تشعر كيف ستضيع منك النقود عن اليمين وعن الشمال.

تغمر صاحبة الشقة المستأجر بأفضالها في الأيام الأولى. سيجد عند عودته من العمل أو من المحاضرة ستائر من الشيفون أحياناً، أو نسخاً من

لوحات زيتيَّة معلقة لديه في الغرفة بعد الغداء، ستطرق صاحبة الشقة الباب بخجل، وتَظهر حاملةً إبريق القهوة وإبريق الحليب. وتسأل بابتسامة عذبة:

- مسيو، ربما ترغب بالقهوة؟ إنها مفيدةٌ بعد الغداء. إن المرحوم زوجي، لتحفظه السماء، كان يُحبُّ الدلال بعض الشيء.

تجلس على الطاولة، وتروح تشغل المستأجر بقصص لا تنتهي عن حياتها العسكرية. كانت المرأة الأولى في الفرقة. في حفلات رقص «البال[1]» في المبنى الدائري، لم تكن تحصل على الراحة بسبب كثرة الدعوات من الراقصين لمشاركتهم الرقص، وفي أحد الأيام، وبسبب شرف أداء ثلث رقصة الكادريل[2]- وللأهمية- تبدي هي ابتسامة ذات مغزى- فقد دعا الملازم الثاني بوليا النقيب الركن نيسبكويني إلى المبارزة.. وعندما رحلت مع سريَّتها من المدينة، فإن الشباب المحليين كلَّهم كانوا في وداعها، وقطعوا برفقتها أربع محطات في القطار. وقد شربوا خمس عشرة دزينة من زجاجات الشمبانيا، وقدّم لها كلُّ واحدٍ باقةً من الزهور. «ست وعشرون باقة، جميعها من الورد الأبيض! كيف يبدو لك ذلك، أيها المسيو؟».

وإذا ما كان المستأجر مشغولاً بأي عمل في تلك الليلة، فإنها ستدخل على رؤوس أصابعها إلى الغرفة.

هل أنت مشغول؟هذا رائع من جانبك، مسيو، أن تعمل، لا بأس، اعمل، اعمل، اعمل، لن أشغلك. إنك تستطيع أن تشتغل عندي بهدوء، ليس كما هو عند الآخرين. لدي، مثلا، إذا ما استأجر موسيقيٌّ، فإنني لا أدعه يفلت مني. لأن الموسيقى قد لا تعجب الآخرين مطلقاً، صدقني؟

وتمر خمسة أيام على هذه الشاكلة، أو ستة، أو حتى أسبوع بأكمله. وفي أحد الأصباح الرائعة، تدخل صاحبة الشقة إلى المستأجر، وتبدأ الكلام معه حول الطقس، وفجأة، تقول، كما لو أن الأمر كان عابراً:

١ـ رقصة تجمع عدداً كبيراً من الراقصين من كلا الجنسين.

٢ـ رقصة تتكون من أربعة أزواج من الراقصين.

- أتعرف ماذا سأرجوك؟ عليك بعض من أجرة الشقة... روبلات.. لذلك، من فضلك.. طبعاً، إذا كان معك.. فأنا، الحمد لله، أستطيع فهم الناس... ربما، لا تملك في الوقت الراهن، لكن أنا أعرف أنك شخص فاضل، وفي كل الأحوال... أما وأن بعضهم (وهنا يعلو صوت صاحبة الشقة بشكل متعمد، وتدير وجهها نحو الفاصل، الذي يعيش خلفه عامل التلغراف الفقير والهادئ جداً)، يسكن هنا منذ شهر، ولم يدفع حتى نصف الأجرة حتى الآن! لا! (ويعلو صوتها أكثر) إن المستأجرين المحترمين لا يتصرفون هكذا. من يتصرف هكذا هم المحتالون وحسب! نعم!

في هذا اليوم لا يحصل المستأجر على قهوة ما بعد الغداء.

وفي الصباح التالي، لا تلجأ صاحبة الشقة إلى مقدمة دبلوماسية عن الطقس، فإنها تتكلم بشكل مباشر:

- مسيو، ماذا بشأن ما طلبته منك بالأمس؟.. من فضلك.. إنني أرملة فقيرة، ولا يوجد من يعتني بي، وعليَّ مسؤوليات بيتية. وحاليا، وبصدق، فأنا لا أملك سوى آخر روبل أستطيع الذهاب به إلى السوق.

عندما يعود المستأجر من عمله، يجد صاحبة الشقة في غرفته تزيل اللوحات عن الجدران، وتنزع الستائر. تقول، وهي تنفض غبار الستائر تحت أنف الشاب:

- أرى، مسيو، أن هذه لا تلزمك، وعندي هنا مستأجر جديد وقد استأجر غرفة.. لذلك، أود أن أعطيه..

المستأجر الجديد سيعرِّف بنفسه قريباً. مساءً، عندما يجلس المستأجر القديم ليدرس المحاضرات حول القانون الروماني، أو لتدقيق كشوف الحسابات، سينبعث من الغرفة المجاورة صراخ طفلٍ رضيع مفاجئ. صراخ لزج، حاد، ذو خنَّة... ويتصاعد الصراخ مرتفعاً بتدرج السلم الموسيقي، ثم

ينخفض، محدثاً أروقة معقدة، والمستأجر يُقنع نفسه يائساً أن من يسكن إلى جواره تلميذ مدرسة موسيقية من مجموعة المزمار الخشبي.

وبدءاً من هذه اللحظة، تفقد مطالب صاحبة الشقة طابعها المتسامح والمتهاون. إنها تبدأ بمحاكمات حول موضوع لا يفعله عادة الناس المحترمون، أنها نفسها المرأة المحترمة، وأنها لا تستطيع أن تسمح أن يتم التصرف معها بهذا الشكل المستهجن، حيث أن المستأجر المجاور- ويظهر ذلك مباشرة- رجل فاضل: دفع الأجرة عن شهرٍ مقدماً، ولا يوجد لديها أي تحفظ عليه.

بعد ذلك يسمع المستأجر التعس، وبعكس رغبته، ومن خلال الحاجز الرقيق، رنين الملاعق والكؤوس في غرفة تلميذ الموسيقى، وصاحبة الشقة تردد، وبنبرة عالية، أن البعض يسكنون منذ شهر...الخ.

ويحدث أن يتعرض جميع المستأجرين لجلافة صاحبة الشقة في وقت واحد، في حين يشكِّل الرجل الغامض، طويل القامة، ذو الشاربين الكبيرين الأسودين، والجزمة طويلة الساق، الذي يسكن في القسم العائد لصاحبة الشقة، والذي يترنم طول اليوم بأغنية: «عبثاً، أنت تسير، أيها اليونكر[1]»، استثناءً. هذا الرجل الغامض يضيف أحياناً إلى مواعظ صاحبة الشقة«معزوفته» الخاصة الموحية:

- أنت محقة، سيدتي. لا يتصرف هكذا إلا الحقراء، لا الناس المحترمون.

في أحد الأصباح الجميلة، تأخذ تصرفات صاحبة الشقة طابعا حازما فورياً. لا تدخل غرفة المستأجر التعس، بل تندفع إلى داخلها، وتبدأ بالشرح بصوت عال وبحركات إيمائية دراماتيكية، أنها تملك الحق، كل الحق، وأنها امرأة فقيرة، لكنها محترمة، وإنها لا تريد أن تحتفظ بصعاليك في شقتها.

وأثناء منولوجها، يأتي صوت الرجل الغريب، ذي الشارب الأسود، الجهوري المتعاطف:

١ـ تلميذ المدرسة العسكرية في روسيا القيصرية.

- لماذا تتحدثين، يا سيدتي، مع هؤلاء المشردين المغامرين؟ سُقيهم من رقابهم، وانهي الأمر... إنك تهدرين أعصابك عبثاً، وحسب.

وبعد يومين، بعد التوضيحات الأولى، تندفع صاحبة الشقة إلى داخل المطبخ مثل عاصفة، ومن هناك يُسمع صوتها الجهوري:

- غابكا، اذهب، وأزل من لدى هذا النذل غطاء المدخنة! لا أريد أن يُوقَدَ له الحطب مرة أخرى!...

يدخل غابكا إلى غرفة المستأجر بشكل مثير، يخبِّط برجليه، هازاً فخذيه المكتنزين بشكل سافل. يسحب ردّاد (مغلاق) المدخنة، محدثاً دوياً، ثم تختفي هي بنفس الجلبة!...

عندما يعود المستأجر في ذلك اليوم متأخراً مساءً، يضغط الجرس، باستكانة. في تلك اللحظة، ينفرج الباب محدثاً صريراً، وينقذف منه تباعاً: حقيبة المستأجر، ثم وسادته ملفوفةً بالبطّانية، وأخيراً، صرة بالملاءات، في حين يرى المستأجر من فتحة الباب صاحبة الشقة بقميص النوم، حاملة بيدها شمعة، والرجل الغامض الغريب في الفراش. وبعد كل ذلك تطير نحو قدميّ المستأجر المسكين بطاقة هويته، في حين ينطلق صوت الغريب الجهوري الثقيل شامتاً: «قطرات الماء الآن فوق الجليد!»، ثم يُغلَقُ البابُ بنفس الصرير الذي انفتح به...

وإذا ما أراد المستأجر ألا تحدث معه مثل هذه النهاية السيئة، وتصرف بحكمة، ودفع الأجرة، فإن معاملة صاحبة الشقة له ستتغير في نفس اللحظة:

- أرجو أن لا تفكر، مسيو، أنني أريد الإساءة إليك عندما أُذكِّرك بالنقود. هل تفهمني؟ أنا امرأة فقيرة، أرملة- هل سأظل أُهان طويلاً؟ صدقني: إنني لا أملك إلا آخر روبل، لأذهب به إلى السوق. وها أنت تساعدني، ليعطك الله الصحة.

الرسام

لقد شعر بالتعلق بـ(الفن المقدس) مبكرا جدا. ففي غضاضة الطفولة كان يرسم الأسيجة بالفحم، وبسبب ذلك، كثيرا ما تعرض لشد الأذن من قبل حراس المدينة.

وبعد ذلك كان يلوّن في «مشغل» الدهان. وقد لفت، من خلال نشاطه وحيويته، انتباه سيدة إقطاعية تعمل في المجال الخيري، كانت تمر بمنطقتهم، وأُرسِل لدراسة الرسم على نفقتها الخاصة.

وبعد أن أمضى أربع سنوات على مقاعد السنة الأولى في الكلية، اختلف في الرأي مع الأساتذة، وعاد إلى كييف[1]، حيث استرخى وسط المواهب المحلية وهو يحظى بالاحترام الذي يليق به.

يعرض وجهة نظره من الفن باختصار، وبشكل مقتضب ومحدد :

- روفائيل[2] - طفل.. رؤوس من الخيزران.. احتفاليات عيد الفصح.. وهذا ينطبق على مايكل أنجلو[3].. أما ريبيرا[4]، وسالفاتور توروزا[5]، وفان ديك[6]، وتيتسيانو[7]، والفرنسيون والفلامانديون، والألمان والطليان، جميع هؤلاء معلّبون وقد فسدوا... فن اليافطات.. ريمبرانت[8] أيضا بين بين، المستقبل

١ـ عاصمة أوكرانيا حاليا.
٢ـ رسام ومعماري إيطالي مشهور (١٤٨٣ – ١٥٢٠).
٣ـ سام ومعماري إيطالي، ومن ابرز فناني عصر النهضة (١٤٧٥-١٥٦٤).
٤ـ رسام إيطالي (١٥٩١ – ١٦٥٢).
٥ـ رسام إيطالي (١٦١٥ – ١٦٧٣).
٦ـ رسام اسكندنافي مشهور، اشتهر برسم البورتريه (١٥٩٩ – ١٦٥٢).
٧ـ فنان إيطالي (١٤٨٨ – ١٥٧٦).
٨ـ رسام هولندي مشهور (١٦٠٦ – ١٦٦٩).

سيكون لجيل الشباب الحالي أصحاب «المزاج الخاص».

وهو يعلق على المعاصرين بعدم ارتياح: الأساتذة لا يفهمون شيئا. أشياء قديمة، سقط متاع، خرائب..إنهم يهينون الفن.. لقد ابتعد عنهم باتجاه آخر.. أيفيزوفسكي[1] يرسم «الصواني»..كليفر[2]- يرسم البصل مع البيض..شيشكين[3] – غباء منقطع النظير.. «المتنقلون[4] » – إنهم جنرالات، استولوا على العظَمة بالقوة... وإذا ما أمعنت النظر بضمير.. فإنك سترى فطائر لا لوحات.. أليس كذلك. إن شعاع الفن الحقيقي ينطلق من كييف وليس من موسكو أو من بيتربورغ.

يعلن بحماس استعراضي: نحن، الانطباعيون! وعلى هذا الأساس فهو يرسم الثلج باللون البنفسجي، والكلب – باللون الزهري، والنحل في خلاياه وعلى العشب، باللون الليلكي، والسماء، باللون الأخضر، وكذلك رأس حارس المقبرة.

يرسل الفنان الكييفي[5] إلى المعرض مناظر طبيعية وحسب، مناظر مضحكة للغاية، حيث نجد في مقدمة اللوحة أزهار أقحوان تتأرجح، وصحن شاي كبير، وخلف الأقحوان يشاهد بشكل غير مباشر نهر الدنيبر بمقياس مجهري، ومنظر لقارب

بخاري. الفنان الكييفي رسام طبيعي بشكل استثنائي. إنه يعرف عن الرسم والمناظر من خلال عشرات الألسنة، أما المنظر الطبيعي فيمكن رسمه بنفس الألوان الزيتية الرملية، العريضة المهملة، التي تشكل علامات أكيدة

١ـ رسام وبحار روسي، اشتهر برسم المناظر البحري (١٨١٧ – ١٩٠٠).

٢ـ رسام مناظر طبيعية (١٨٥٠ – ١٩٢٤).

٣ـ رسام روسي أشتهر برسم المناظر الطبيعية (١٨٣٢ – ١٨٩٨).

٤ـ اتحاد للفنانين الواقعيين الديموقراطيين الروس، تأسس عام ١٨٧٠، واصحاب هذا الاتحاد قطعوا الصلة مع الاتجاه الأكاديمي في الرسم، وكانوا يتنقلون مع أعمالهم بين المدن، ومن هنا جاء الاسم. [المترجم]

٥- نسبة إلى كييف المدينة.

ومميـزة لمواهب أصيلة.وإذا ما صـادف زائر المعرض موضوعـا أو بورتريه، فإنه يتوقـف طويلا أمامه في حالـة من عدم الفهم، حتى يتمكن من أن يقرر: «أين اختفت كلبة صانع السجق؟»، أو«أين هو نابليون هنا؟».

إلا أن الجمهور لا يشتري«صباحات نيسـان» و«أماسـي الشتاء» هذه.لقد شُـدِهَ طويلا وهو يفكر بماذا يقتدي هؤلاء، حماة الفنون، أثناء تسوقهم. وفي نهاية المطاف قرر أن يسـأل أحدهم عن ذلك. كان لتوه قد اشترى لوحة «فيضان الدنيبر» بمقاس أرشين[1] ونصف.

أجـاب أحد حماة الفـن، وهو إقطاعـي سمـين من بلدة كونوتـوب بنقاء سـريرة:

- كما ترى يا بني، الأمر الأول: الإطار مناسـب جـدا، ثانيا، هذه اللوحة ليسـت نسـخة، بل أصلية وبالألـوان الزيتية..فليعرضهـا في منزله، فـوق الأريكة في غرفة الاسـتقبال.. مَن سـينظر إليها يـا ترى؟ إنها ستعطي الغرفة..

ومـا أن تبـاع اللوحـة، حتى يأخـذ الفنـان بالترويج لنجاحـه، وفي نفس الليلة سيرسـم نسـخة عنها تحت ضوء المصباح.إنه سـيترك الخلفية على ما هـي عليها، و يجري بعض التغييرات على مقدمتها: هناك، حيث كان المقعد، يستبدله بحجر، ومكان الحجر يضع مقعدا.

إنـه يحـب وضع «الرسـومات الأوليـة». الرسـم الأولي لديه يدعـى الابنة الريفية وبمقاس ثلاثة فيرشوكات[2] مربعة، وملونة طوليا بلونين من الدهان: السماء باللون الأزرق، والأرض باللون الأخضـر.

يهتف ملهما :

- إن الرسـومات الأولية بالنسـبة للفنان، هي، في حقيقة الأمر، مسودة مخطوط من مخطوطات بوشكين[3]، إنها كنز!..وثيقة تاريخية!..

١- مقياس يساوي ٧١ سم.
٢ـ مقياس طول يساوي ٤.٤ سم.
٣ـ بوشكين – (١٧٩٩ – ١٨٣٧) شاعر روسيا العظيم، مؤسس الأدب الروسي الحديث، وأحد المنورين الثوريين.

يمكن رؤية «الحالة النفسـية»، و«اللحظة»، المنتزعة من الطبيعة، ويرى، أيضا، كيف أن النفس خرجت من غرقها، وكيف انعكس العالم في العيون المبدعة!

إن العدالة تتطلب أن نلاحظ، أن هذه التداعيات واللحظات التي تعبر عن «الحالة النفسـية»، جميع هذه الوثائق التاريخية تعاد، عادة، من المعرض إلى شقة الفنان، حيث يمكن لـ«العيون المبدعة» أن تبقى تتأملها حتى بداية المعرض التالي.

انقسم فنانو كييف إلى مجموعتين أو ثلاث على أبعد تقدير، وفي كل مجموعة عشرة أشخاص.ويوجد بينهم مجموعات: «الخريفيون» والربيعيون»، و«الديسيمبريون»، و«المستقلون» إلخ. وبعض المجموعات الرفاقية تتكون من شخصين في أبعد حد، ويوجد فيما بينهم تفاهم دقيق حول مسألة، أن فناني المجموعات المذكورة عبارة عن دهانين عديمي المواهب، ولديهم ثقة مطلقة بأن شمس الفن ستشرق من دون شك، من خلال أعمالهم.

و يحصل فنان كييف على وسائل معيشته من خلال رسم الأيقونات بناء على طلب رهبنيات كييف، وهم محظوظون في هذا المقام لأن أي قديس يمكن رسمه بعينين مغمضتين.

لا يوجد في مشاغل فناني كييف أي شيء من قبيل الفرح المجاني، أو الضجيج، أو استعراضات الممثلين، أو الألاعيب الحادة الذكاء.إن الجو المهيمن هو جو الملل العفن، والتفاهة، وسلاطة اللسان على مستوى احترافي، وإرضاء النرجسية الذاتية.

- هل تذكرون لوحاتي عن«الشخاتير تحت المطر»؟ أي تنوع؟
- «نعم إنه تنوع مذهل»
- وأي أبعاد في لوحتي«كيتايف»
- «أبعاد ساحرة»

- وماذا بشأن لوحتي «المنازل الريفية في كارافايف»؟

- أوه.. ليحاول الأكاديميون[1] أن يعطوا هذه التأثيرات للغروب الخريفي.

- «أين سيختفي هؤلاء القذرون، هؤلاء الدهانون المحطمون، المفتقرين إلى الواقعية».

يجب تلخيص القول في المحصلة النهائية: إن اثنين أو ثلاثة من هؤلاء الفنانين استطاعوا أن يتخلصوا من هذا الوسط البليد الخامل، وأسماؤهم الآن معروفة في كل روسيا.

---

١ ـ المقصود: المدرسة الأكاديمية في الرسم في روسيا.

باتي[1] المستقبل

يمكن مصادفتها في ساحة كريشاتك، في الساعة الثالثة أو الرابعة بعد الظهر، عائدة من المعهد الموسيقي، بمشيتها العجلى، وهيئتها المهمومة حاملة حقيبة «Musique[2]» جلدية فئرانية اللون. أحد ضيقي الأفق الذين تصادفهم، يقول مسلطا نظراته إليها: «نعم، الشهرة لا تتأتّي بسهولة لهؤلاء باتيات المستقبل»

إن الصعود الفني عند باتي المستقبل يبدأ من لحظة اكتشاف وجود سوبرانو[3] وأذن موسيقية صغيرة لديها. إنها تبدأ بالترنم بلطف أمام ذلك الوسط بـ: « Si tu m'aimais[4]» و«الريح تعوي» – في تلك الساعة، بين شاي المساء ولعب الورق، عندما يكون الضيوف أكثر كرماً في تشجيع المواهب «العائلية» الصغيرة.

يقول الأب الطيب وهو يمسد لحيته داعيا الضيوف بعينين مبتسمتين إلى دعم طلبه:

- هل يمكنكِ أن تغني لنا شيئا، يا عزيزتي مانيتشكا[5]؟

ويضيف رجل أعزب غير سوي، يعرف مانيتشكا «منذ كانت صغيرة»:

- غنّي، يا نور عيني، لا تخجلي.

١ـ أديلينا باتي (١٨٤٣-١٩١٩) مغنية إيطالية مشهورة، حظيت بمجد كبير، وعنت في دول عديدة من دول العالم وشاركتها أختها كارلوتا (١٨٣٥- ١٨٨٩). (المترجم)

٢ـ موسيقى، بالفرنسية.

٣ـ هي الطبقة الصوتية العالية عند النساء وخاصة مغنيات الأوبرا.

٤ـ إذا كنت تحبني. فرنسية.

٥- مانيتشكا، وميمي صيغتان لتصغير اسم ماريا.

تسـير مانيتشكا نحو البيانو الكبير دون أي احتجاج وتبدأ أداء أغنية «حتى الأشـجار تصاب بالنخر» بصوت ضعيف، وترخيم غير صحيح، لكنه لا يخلو من الأريحية.

شـجعها الضـيوف المجتمعون عند باب الغرفة المجاورة، حيث أُعدت هناك الموائد الخضـراء:

- جميل، جميل جدا.. إن هـذا لدُرر! أتعلمون، إن الصوت في أيامنا هذه يعتبر رأس مال كامل، وما علينا إلا أن نتعلم، ونتعلم. إن أهم شـيء هو المدرسة، أم أن هناك... ماذا يمكن أن تتعلمي؟ يمكن.. ها، ها، ها.. أن تصبحي يا آنستي، باتي المستقبل.

كان التذكير المستمر بالمدرسة، ومديح الضيوف، والأحاديث عن مراسيم الشرف، والأجور الخيالية التي يتقاضاها مشاهير الفنانين، تخدر باتي المستقبل التي بدورها تخدر والديها اللطيفين، المقتصدين في نفس الوقت. إن رجاءها الملح يجد صداه في قلبي الوالدين، وذلك لأن مانيتشكا لا يمكنها الاستمرار في المدرسة إلى أبعد من الصف الرابع، فمن المعروف للجميع، أنه يصعب على الفتاة الفقيرة أن تقيم حفلة، ما لم يكن لديها تعليم متوسط، أو ميل واضح نحو التدبير الاقتصادي، أو موهبة حقيقية.

قال الأب في أحد الصباحات الجميلة وهو يحتسي الشاي ويقلب صفحات الجريدة:

- في الحقيقة، فإنه يلزم مانيتشكا الالتحاق بأستاذ كي تجرب صوتها. من يدري، لعلها تخفي موهبة حقيقية. بالمناسبة، منشور هنا في الجريدة أن البروفيسور ماكاروني الذي عاد لتوه إلى هنا «يُصلح» الأصوات الفاسدة، وأكثرها غباء.. وبأسعار زهيدة، زيادة على ذلك، فهل نجرب؟

في اليــوم التالــي ذهبت باتي المســتقبل لتجرب صوتها لدى البروفيســور ماكاروني. وكان البروفيســور ذا شخصيـة شكاكـة، يـعتمر قبعـة مغبرة على رأس أقرع، وله شــوارب متقنـة الصنع كأنها مرســومة رسما ، وتفاحـة آدم، في رقبتــه، غريبـة الشــكل، وكان معجبــا بإمكانات صوت مانيتشــكا. يـقـول:

- «في الحقيقة يوجد خلل غير كبير، وضعف في النوطات الوسطى، وعدم كفاية في التأهيل المدرســي..وهكذا، إلى آخره..لكني آخذ علــى عاتقــي أن أصنع مــن ابنتكم نجمــة الأوبرا الروســية خلال ســنتين..فقط عليك أن تحافظي على صوتك يا مودموزيل، حافظي على صوتك.

ومنــذ هــذا اليــوم، تبــدأ معانــاة أقربــاء وأصدقــاء العائلــة، الــتي تحتضن وســطها نجمة مستقبل الأوبــيرا الروســية. فبدل «الثرثــرات العابــرة» تظهر علــى الحلبــة أحاديــث لا نهاية لها عن الســعة وتركيبة الصــوت، عن الحدود المتوســطة، والنوطات الرئيســة والترخيمات و«الخنف» الأنفي والجبهوي وعن آلاف التقنيــات الشــبيهة.تدعى مانيتشــكا للبيانو، لكنها ليســت في مزاج مناســب، إنها تخشى إساءة اســتخدام صوتها، فقد منعها البروفيسور من الغناء في الأمســيات. لكنها تتراجع أخيرا أمــام الرغبة في الوجاهة، فتوافق متظاهرة بعدم الرغبة، وتغني أشــياء لتشايكوفسكي أو لليشــين.

فكر أحد الضيــوف في ذلك الوقت، الذي ســرت فيه القشعريرة الباردة في أجسادهم بســماعهم النوطات العالية من باتي المستقبل: «الشــيطان يعلم أي مدرسة هذه. يبدو أنني بسبب جهلي لا أشعر، لكنها في حقيقة الأمر.. مدرسة»

ومع ذلك فإن باتي المســتقبل ســرعان ما تصبــح في حالة عدم رضى عن دروس البروفيســور ماكارونــي: البروفيســور نفســه ممــل، والتلاميــذ عنده مريبون، ونعاني من كآبة مميتة أثناء الدروس، ولا توجد حفلات مسائية على الإطلاق. ويتفق معها الأب بالكامل، حيث أنه اشــتبه مبكراً بالبروفيســور،

وعـرف أنه رجـل إيطالي محكوم بالأشـغال الشـاقة وهارب من وجـه العدالة، ويـقـول:

- هل تعلمون أن تسـليم كنز مثل هذا الصوت لأشخاص مشكـوك بأمـرهـم، يعتـبر شـيـئا مخيـفـا. بإمكـانكـم الاسـتماع إلـى «ut bemole[1]» الذي لديها. إنها بلبل حقيقي.

باتي المستقبل قدمت الامتحان في الكلية الموسيقية، تاركة أعصاب الممتحنين تختلج بواسـطة الـ «ut bemole» المشـهور. ومـع ذلك فإنها نجحت، أما والداهـا الفخوران، فقد حجزا مـن فورهما «musique» جديـدا وفاخرا لدى بارسكي.

ومنـذ تلـك اللحظـة فـإن مانيتشـكـا تصبـح مسـتبدة في العائلـة: «مانيتشـكـا تحتاج إلى الهدوء، مانيتشـكـا متوترة الأعصاب، مانيتشـكـا تأخـذ قسـطا مـن الراحـة، هـس.. مانيتشـكـا تـدرس، لا تقدمـوا الحوامـض لمانيتشـكـا..». وتصدر، من غرفتها، طوال اليوم، وبلا نهاية، وبشـكـل ثابت وحـاد لا يرحـم، أصواتـا مثـل«أ أ أ، أُو أُو أُو، أي أي أي».. وجميـع أفـراد العائلـة يحتملونهـا صارفـين أسـنانهم، مؤمنين بمسـتقبل مانيتشـكـا. وحـده الأخ الأصغـر، تلميـذ المدرسـة، يحاول، وبشـكـل حثيـث، فهم جوهـر الأفعال غير الصحيحة التي تبدأ بـ« I» تحت هذه الأصوات، فيقذف بغضب بكتاب القواعد لمؤلفه كيونير[2] إلى الزاوية قائلا:

- إلى الشيطان! إنها تصرف، كما لو كانت قطا هرما!

مانيتشـكـا تذهـب إلى الكليـة الموسـيقية، ترتعد أمام اسـم السـيد إيفـيراردي[3]، تؤلـه السـيد بوخالسـكـي[4]، تسـتخف بتلاميـذ السـيد

١- **ut bemol** بالفرنسية، هي نوتة مكونة من نصف نغمة

٢ـ كيونير، (١٨٠٢ – ١٨٧٨)، مؤلف كتب في النحو.

٣ـ إيفيراردي كاميلو فرانسوا، (١٨٢٥ – ١٨٩٩)، موسيقي بلجيكي مشهور، شغل منصب أستاذ الموسيقى في معهد الموسيقى في بطرسبورغ.

٤ـ بوخالسكي. ب. ب، (١٨٤٨ – ١٩٣٣)، عازف بيانو روسي، موسيقار، وأستاذ في معهد الموسيقى في كييف.

بلومينفيلد[1]، وتُحضر إلى البيت عددا كبيراً من أتباع تامبرليك[2] ومازيني[3]، الذين يضطرون الأب للهرب إلى بيت الجيران لحماية نفسه من الصخب، الذي تسببه اعتداءاتهم الموسيقية. في نفس الوقت فإن نجاحات باتي المستقبل تتقدم ببطء شديد. لقد بقيت على مقاعد السنة الأولى، وفشلت في اجتياز الامتحان. وتتكرر نفس القصة في السنة التالية، ونفس الشيء يحدث بعد سنة. ومانيتشكا تتحول من مراهقة إلى صبية حسناء، ومن صبية حسناء إلى آنسة ومن آنسة إلى عانس.وتغادر الكلية مستاءة من عدم تقدير موهبتها.

- حسد وغيرة!..يرعون عديمي الموهبة، وحسب! روتين!..إنهم ضعفاء أمام الوجوه الجميلة!

وبهذا الخصوص، فإن أحد أشهر الأساتذة متهم، بما لا مجال للشك فيه، بتخريب صوت باتي المستقبل، بشكل متعمد.

يقول والداها المستاءان:

- تخيلوا، إن هذا الإيفيراردي «اجتث» صوت حبيبتنا ميمي[4] تماما. يمكن وصف تعامله مع الأصوات، بأنه فظاعة، خالصة.

وما أن تخرجت مانيتشكا من الكلية الموسيقية على ذلك النحو، (بثلاث سنوات قبل انتهاء الدراسة) حتى أصبحت باتي المستقبل مشاركة غيورة في كل الحفلات المنزلية.

كانت تجرح مشاعر مغنيات الأوبيرا بقسوة لا ترحم، مرغية مزبدة. وفي نفس الوقت، فإن حاجتها إلى «تأليه» أحد ما، تنقلها من الأساتذة إلى تاراكوف

١ـ بلوميند ف. م. ، (١٨٦٣ – ١٩٣١)، قائد أركسترا، عازف بيانو، أستاذ في الموسيقى.
٢- تامبرليك إنريكو، (١٨٢٠ – ١٨٨٩)، مغن إيطالي، غنى على مسارح العديد من الدول بما فيها مسارح روسيا
٣ـ مازيني أنجيلو، (١٨٤٧ – ١٩٢٦)، مغني إيطالي، ممثل فن البلكانتو. اشتهر بغناء الشعر الرومانسي.
٤- يجري مخاطبة كافة الفتيات اللواتي يحملن اسم مانيتشكا بميمي بعد سن الخامسة والعشرين. [المترجم]

وميدفيديف، وأخيرا ميشوغا[1] على التوالي، ملحة عليهم أن تُهدى للذكرى بطاقات أو مناديل أنف مطرزة بخيوط الصوف التي تستخدم في تطريز الأخف والوسائد، وأن تقدم لها في يوم العرض المسرحي الذي يقام على شرفها.

في ذلك الوقت، عندما يصبح الأمل مشكوكا فيه بأن تتحول ميمي إلى نجمة الأوبرا الروسية، فإنها تبدأ بـ«شياكة حقيقية» بأداء أغاني الغجر العاطفية بمصاحبة القيثار من قبيل أغاني شميتكوفسكي[2]:

أنت اليوم انهلت باللوم علي،

وهو ما دعاني إلى الصمت أثناء اللقاء.

ومع مرور السنين، يزداد تبجيلها للتينورات[3] الأوبيرالية، متجهة في آخر المطاف إلى ولع فانتازي حقيقي وشديد. إنها لم تعد تكتفي بالتمتع بالنظر إلى صنمها – تستولي عليها رغبة لا تكبح بأن تنكب على قدميه الإلهيتين، وأن تقبل يديه المقدستين... ولا يندر أن يحدث أن تكون ميمي غير قادرة على كبح جماح رغباتها النفسية المريضة، وبنظرة تائهة، وشعر مشعث، ترتمي في ردهات مسرح الأوبرا على قدمي معبودها، ناثرة قبلاتها اللاهبة على سترته، مثيرة غواية عظيمة للناظرين.

ونحن هنا، في الحقيقة، أمام نموذج الأوبرالية المريضة نفسيا، التي سنتحدث عنها بشكل مفصل في حينه، كما نتحدث عن «راشيل المستقبل» و«صوفي مينتير[4] المستقبل».

وحتى الأيام الأخيرة من حياتها، بقيت ميمي على قناعة عميقة بأن موهبة عظيمة، غير معترف بها من قبل الأساتذة الحاسدين، قتلت في داخلها، وصوت رائع «استأصل» بأساليبهم البربرية.

١- تاراكوف، ميفيدوف، ميشوغا – نماذج من مغيني الأوبرا في نهاية القرن ١٩ بداية القرن العشرين.

٢ـ شميتكوفسكي م. ك ز (؟ - ١٨٧٩)ممثل في المسرح الغنائي في روسيا.

٣- تينور (لدى مغني الأوبرا) صوت رجالي عالي.

٤- صوفي منتير عازفة بيانو شهيرة (١٨٤٩ – ١٩١٨).

أســـطورة

كان يعزف على الكمان، طويل القامة، نحيلاً، طويل الشعر، على وجهه شحوب سببه مزيج من الجوع وحياة التعاسة والموهبة المحزنة. اللحن كان احتفالياً، خرافياً، حزيناً ورائعاً، بطبقة مرتفعة تارةً، وتارة كأنه يتحدث بصوت عميق شجيّ كئيب، فيه شيء من القرون الوسطى، وقنوط، كان حلواً ورائعاً، وقاسياً، وطويلاً، ومخيفاً.

نهض راعي الفنون، صاحب البيت، بروبه الأحمر، وعينيه اللتين لا تتوقفان عن الحركة، عديمتي الذكاء، الواسعتين الزجاجيتين، وراح يعلّق بكلام مقتضب، متظاهراً بإعجابه الكبير بما يقدّم من إبداع. وفي نفس اللحظة راح يوزّع الكؤوس والأقداح على غطاء الطاولة الرطب، بحركات واسعة عالية المزاج ومحسوبة الانفعال من ذراعيه.

قال هازاً رأسه، رافعاً ذقنه إلى الأعلى:

- كان ذلك منذ زمن بعيد. لكنه لفظها بطريقة بدا من خلالها كأنه غير روسي، رغم أنه روسي ومن عائلة من رجال الدين نبيلة ومعروفة.

كان ذلك منذ زمن بعيد! أوه، كم كان ذلك بعيدا... أوه، كم قرناً مرّ على ذلك... وقد نسيه الناس. كان ذلك منذ زمن بعيد موحش.

عندها نهض رجل، كان حتى ذلك الوقت صامتا، غير معروف تقريبا لأي أحد، أحضره أحدهم معه، لدرجة أنه لم يهتم لأن يُعرَّفَ به. كان يرتدي ملابس رديئة، عريض المنكبين، قصير القامة، فظاً، تسريحة شعره مضحكة

اختص بها موظفو المكاتب، وكانت تشبه شوك القنفذ. قال الرجل بصوت كله رجاء:

- اسمحوا لي.

أجاب راعي الفنون بنبرة لطيفة على طريقة المهرجين، مرتدا إلى الوراء، ثم حانيا جذعه من الوسط إلى الأمام، فاردا ذراعيه من عند صدره باتجاه الأرض:

- أوه، من فضلك...

قال الرجل الفظ لعازف الكمان بحدِّة:

- أعد العزف من البداية.

ما إن بادلوا عازف الكمان نظرة واحدة فقط، حتى بدأ الرجل الغريب يعيد أول أصوات الكمان.

***

كان ذلك من زمن بعيد. قضت منذ ذلك الزمن سلالات كثيرة، وتهدَّمت كثيرٌ من القصور.

كان القصر، في ذلك الوقت، يقف على صخرة وسط البحيرة. وجميع من في الجوار كانوا يعرفون أن البحيرة لا قاع لها، والقصر لا يمكن الوصول إليه، وأن جسراً حديديا طويلا يتكئ على كتل ضخمة كان يرتفع عند المساء.

وكثيرا ما كان الملك يكتب الرسائل لصاحب القصر، داعيا إيّاه ابن العم، وكان يعرض عليه الألقاب والرتب العالية. لكن الأمير العزيز، كان يعلق رسل الملك على أسنَّة أبراجه بدل أن يشكره. لم يكن يخاف أحدا. كان قصره منيعا، وكان فيه من المؤن ما يكفي لعشر سنوات.

كان الأمير طيب الذكر، قويا، شجاعا حد الجنون، رغم أنه كان في الستين من عمره.

كان يُهرع في مقدمة محاربيه ليلا عبر الجسر، مرعبا، يسير تحت أنوار المشاعل النفطية الحمراء، بنقيض عُقابٍ مرح، تلمع تحتهم الأمواج، وتتردد أصوات سنابك خيولهم كأنها خفقان الماء. عندها كانوا يقطعون الأشجار، والنساء يبكين، وعربات التجار الأغنياء تتحرك بهمة كأنها غنائم.

لم يكن أحد يعرف لماذا تزوج الأمير. ألم يكفه بنات أتباعه الجميلات؟ ألم يكن بإمكانهم منحه فتاة من أغنى السلالات العريقة؟ لقد أقام حفلة زفاف وحشية، دموية، شرب النبيذ، نثر على عبيده حفنات من الماس، وبعينيه الواسعتين، المخيفتين، الزجاجيّتين راح ينظر إلى الزوجة الشابة. كانت ابنة رسام متواضع.

مر عام طويل وتلاه آخر، وآخر. شحبت الزوجة الشابة، وعينا الأمير أصبحتا مخيفتين كثيراً، وأصابهما الأرق. ليالي القرية كانت تتوهج. وكانت الكلاب المتوحشة تنهش أحشاء النساء المحكوم عليهن بالموت.

آلاف العيون كانت تحرس المرأة الجميلة. لكن كان هناك زوج من العيون، تنظران إليها بشغف لطيف وتقولان لها: «هذه حياتي، خذيها لو شئت. أنا أحبك!... ».

تقول أسطورة الظلام: «في يوم من الأيام، كان الأمير عائدا من الصيد، وجد وصيفه الشاب واقفا أمام زوجته. أمر بإخراجه إلى فناء القصر وأطلق عليه سهما من قوسه، وأصابه مباشرة في عينه اليمنى. لكنه لم يمسّ زوجته. جمع عصابته العنيفة المطيعة، قدّم لهم الذهب كما لو كان ملكاً، وقال:

- أنتم جميعا أحرار. ارحلوا.

وعندما غادر آخر رجل منهم إلى الشاطئ الآخر، راح الأمير الشاب يرفع الجسر الحديدي عن الكتل التي كانت ترفعه،وقد راح الجسر يصدِر صريراً، ثم قطّع السلاسل، وهدم الكتل، وأغلق أبواب القصر الثقيلة.

وعندما استدار آخر رجال عصابته ملقين نظرة على القصر، رأوا الأمير وقد ظهر من أعلى نافذة في برج القصر يُلقي مفتاح باب القصر الحديدي الضخم في البحيرة التي لا قاع لها.

مرت سِنُون وراءِ سنين. وظلّ القصر الضخم القديم يقف وسط البحيرة وحيدا. ولم يعرف أحد أسراره. اليوم هناك أنقاض وحسب، ذباب وقاذورات، وسحالي خضراء وشجيرة صريمة الجدي ذات الرائحة العطرة... ماذا حدث لأولئك الناس؟ ترى هل طالت معاناتهم؟ من تعذّب منهم أكثر؟

لم يعرف أحد هذا السر. الأمواج تتدفق على صخور الشاطئ... وفي ذلك الخفقان يُسمع وقع سنابك الخيل القديمة المخيفة. لن يعرف أحد السر. الأمواج تتدفق بهدوء، بهدوء...

صمت الاثنان معا- عازف الكمان والمعلق. وقال راعي الفنون وسط الصمت الرهيب الذي كان يُطبق على المكان متذمراً باشمئزاز:

- هل هذا كل شيء؟ نعم. ليس ذلك بكثير، لكنه يستدعي الرثاء.

١٩٠٦

القُبْلةُ المنسية

حدث ذلك في الزمن البعيد، الذي أصبح أسطورة بالنسبة لنا.

أطل البدر بنوره الساطع على غرفة نوم الملك الشاب، عبر النافذة الغوطية، الطويلة، الضيقة، غير المغلقة، ذات الشبك الحديدي الغريب. كست أشعته كلّ شيء بدوائر فسفورية لطيفة. وتحت لمساتها كانت تظهر من العتمة، بحدة وسرية، نقوش معقّدة لسجادة فارسية تارة، أو النقوش المحفورة في الخشب على ظهر كرسي مستقيم وعال، أو فراء فضي مفروش على الأرض لحيوان مفترس، أو أكوام من طيات الدانتيل، أو جعبة سهام مرصعة باللؤلؤ تنساب منها سهام نهاياتها مذهبة...

استطال الليل، ودوائرُ ضوءٍ على الأرض غريبةٌ ومكتملةٌ، كانت تنتقل من مكان إلى آخر. أخيرا أضاءت مهد الأمير. كان ينام، فاردا ذراعيه وساقيه، وكان جسده كله وردي اللون، وابتسامة مطبوعة على شفتيه البنفسجيتين. عندما سقطت أشعة القمر على وجهه، تنهّد وهو نائم ثم استدار على ظهره.

وفي شلال ضوء القمر في ذلك الوقت كانت جنيات ليالي الربيع الجميلات يغتسلن. كنّ يمسكن بأيدي بعضهن، ملتحمات على شكل حلقة رقص، يدرن بها بسرعة، ثم يتحرّرن من جديد مشكّلات سلسلة طويلة متحركة. عند سطوع القمر تبدو أجسادهن شفافة تماما؛ وشعورهن المسدلة تنساب متموجة على أكتافهن؛ يضحكن، يعانق بعضهن بعضا، يصعدن ويهبطن داخل شلال الضوء.

لاحظت إحداهن الأمير الصغير النائم. تأخرت عن صويحباتها، اقتربت من مهده، ملتفة حوله، وقبّلت شفتيه المنفرجتين قليلا. ارتجف قليلا، أفاق، مد يديه الصغيرتين، إلا أن الجنّية الجميلة كانت قد ابتعدت، ملتحقة بصويحباتها في حلقة الرقص المرحة.

كبر الأمير. هزّ الملك العجوز رأسه الشائب أسفا، وهو ينظر إليه. لم يكن وريثُ المستقبل يحب الصيد، ولا رميَ السهام بالقوس، ولا أغاني القتال الحربية. وهو، بالأحرى، كان يصرف وقته ضمن حلقات نساء القصر مستمعاً إلى أحاديثهن ملقيا رأسه الأجعد على ركبة إحداهن. كان يبحث لديهن عن اللّطافة، وكان يحب لمس أيديهن الناعمة. همس الأب مهموماً: «إنه لن يكون ملكًا حقيقيًا» وكرّرها من ورائه أفراد حاشيته: «إنه لن يكون ملكا حقيقيا».

مات الملك العجوز، وورث ابنه العرش. لكنه لم يواصل غزوات أسلافه الحربية، ولم يذهب إلى صيد الخنازير البرّية والحمر الوحشية والدببة، ولم يُنظّم حفلات المشروب، ولم يمض الليالي مع أفراد حاشيته من أجل كوب من النبيذ المعتق، يشرب بكأس ذهبي كبير تحت النور الأحمر لمشاعل القطران. ولما كان خاملا منعما، أحاط نفسه بأجمل نساء البلاد، وكان يتنقل من واحدة إلى أخرى، ومن حضن إلى حضن، ومن فم إلى فم. كان جميلا، منتصب القامة ممشوقها، مثل فتاة بعينين سوداوين، غامقتين حالمتين لا تقاوَمان.

لكن الملك الشاب لم يعرف السعادة. حُزنٌ سريٌ لم يفارق قلبه أبداً، لكنه من غير إرادة منه كان ذلك يظهر على جبينه. كان يبحث، بروح جشعة، عن شيء ما، غير مفهوم حتى له نفسه، في أحضان النساء، شيء ما ثمين ومنسي تماما...

وأحيانا، وعند التقائه بحسناءَ جديدة، يبدو له، أن ذلك الشيء المنسي لديه يبدأ يأخذ شكلا واضحا، وهو ينجذب نحو الحسناء بشغف، تماما مثل

الوردة التي تنجذب إلى أشعة الشمس... ويبدأ لديه شعور أن الأشياء غير المفهومة تبدأ بأخذ أشـكالٍ محسوسة. ويبدأ بالاستماع إلى الاعترافات والمناشدات قلقاً ومحترقاً... لكنه يفتر من أول قبلة... ومن جديد يختفي السـر من ذاكرته بلا أثر.

وفي النهاية أتعبه البحث عن المسـتحيل. صار يميل إلى الشحوب والضعف يومـا بعد يـوم. عيناه الغائرتان لم تعـودا تلمعان عند رؤية الابتسـامة... وذات مساء، وقد كان مستلقيا في فراشه تحت مظلّة فخمة، وعلى رأسه التاج، شعر باقـتراب الموت، وراح يسـتعيد تفاصيل حياتـه، متذكراً كلَّ شـيء ما عدا الشـيء المنسـي. همس الملك المحتضـر، ثانيًا ذراعيه، متقلباً على مرقده: «هل يمكن أن أموت قبل أن أتذكّر؟»

في تلـك اللحظـة سـقط على عينيه شـعاع سـاطع مـن القمـر، وذراعان شفافتان لشـخص ما طوقتا عنقه، وشفتان لشخص ما، مختلجتان من الضحك السعيد تتسللان نحو شفتيه.

تذكّر الملك... مدّ يديـه بأثر الحلم الذي طار... لكنَّ الذراعين تهبطان بلا حياة، وقد استقرت على الوجه الميت تعابير النعيم الذي لا يطاق...

١٨٩٤

الكسندر تشيخوف

(١٨٥٥-١٩١٣)

- زيارات.
- دموع التماسيح.

الكسندر تشيخوف

ولد في عائلة تاجر سنة ١٨٥٥ في منطقة تاغانروك في روسيا. قاص وكاتب. وهو الأخ الأكبر للكاتب الشهير أنطون تشيخوف، ووالد الفنان المخرج ميخائيل تشيخوف. درس الرياضيات. أجاد ست لغات. نشر كتاباته في مرحلة الجامعة في المجلات الساخرة: «المُشاهد»، و«موسكو»، و«الجرس». عمل في جريدة «الزمن الجديد».. توفي بمرض السرطان سنة ١٩١٣ في بيتربورغ.

اشتهر بأسماء أدبية مثل: سيدوي، أغافابولد، يدينيتسين. أصدر عددا من المجموعات القصصية: «في مطاردة الدفء والشمس»، «من طفولة الكسندر تشيخوف»، «في ضيافة جدي وجدتي»، «مجوهرات الأمير»، «قصص دينية»، «طيور بلا أعشاش»، كما وأصدر رواية «جيد أن تعيش على وجه البسيطة»، وغيرها من الأعمال.

زيارات

كان الحظ حليفي. وصلت إلى مدينة جديدة، لأقوم بزيارات... تأنّقتُ، وتجولت في المدينة معتمراً قبعة «كاب» وربطة عنق بيضاء. ذهبت إلى «فيزولين». استقبلتني فتاة مشعثة الرأس وقادتني إلى غرفة الاستقبال. خرج إلى لقائي سيد نحيل، مثل عصى، برأس يرتج، ودعاني إلى الجلوس.

- أرجو المعذرة... أنا سعيد جداً... هل قدِمْتُم لتؤدوا الخدمة؟ عمل جيد، عمل جيد... «كولكا»، لا تعبث، كي لا أجلدك! إلى أين تعربشت أيها الشقي، خلف المصباح؟ سوف تكسره.. لقد تعبتَ من الطُرق، على ما أظن...

- نعم تعبت...

- إذاً، ارتح قليلا... لدينا مدينة رائعة... يوجد نادٍ... «نيكولاي»، يا لك من ملعون! توقف، أيها الصنم... أشكوكَ للّه، سوف أعطيك علقة شديدة.. اللّه يعاقبني بهذا الولد: سافرتْ أمه لزيارة أهلها، انظر كيف جعل رأسي! سوف تعودين، يا «أكولينا كوندراتيفنا»، وسوف أقول لك: شكراً... هل كنتَ لدى بافلوف؟

- لا، لم أزره بعد...

- زره: إنه شخص ممتاز، سيعجبك. لكن لا تقترب أثناء حديثك، حتى من دون قصد، من مسألة وجود بقع حمراء على جبينه... لقد استقر لدينا العام الماضي فصيل عسكري، وقد خانته زوجته، كما تعلم... إنه لا يحب تذكر ذلك الحادث إطلاقا. «كولكا»، ألا تتوقف أنت؟ لا، يبدو أن عليّ ضربك. نزع «فيزولين» حزام الجلد عن وسطه، أمسك الولد، وراح يجلده، قائلا لي: «انتظر لحظة».

اللحظة القصيرة استمرت دقيقتين كاملتين. راح «كولكا» يطلق صراخاً يُقطِّع نياط القلب. حاولتُ مرارا الانحناء للمصافحة، إلا أن الرجل الطيب لم يكن يرغب في أن يمُدَّ لي يده قبل أن يُنهي عقاب الولد. أخيراً، وقد احمرّ وجهه، بسبب الجهد، مدّ لي يده، لاهثا، وقال:

- لقد رأيتَ بنفسك، إنك لا تستطيع فعل شيءٍ مع مثل هذا النذل..إن نزع الرقبة قليل بالنسبة له. سنتعرف على بعضنا بعضاً أكثر... سوف أسلخ جلدك أيها الأجرب!.. سوف تكون عند «بابوف»، لذلك لا تسمع منه، عندما يتحدث لك عن زوجتي: إنه يكذب دائما... وداعا.

ذهبت عند «بابوف»، وجدته رجلا سمينا، أصلع، يستعمل الغليون. استقبلني قائلا:

- أيّ شيطان جاء بك إلى بلدتنا الصغيرة هذه؟ شعبٌ كريهٌ، لا يوجد مجتمع.. وضعك محزنٌ، محزن جدا، حتى.. دعني أقول لك بكلِّ صراحة: لقد تصرفت بغباء، عندما خرجت من «بيتر[1]».. إنه تصرف غبي في الحقيقة... حتى إنني يمكن أن أدرج هذا التصرف في عداد تصرفات المجانين.. أليس عملا مفضوحاً، أن يزجّوا إنسانا حيّا في قريتنا النائية والمتعفنة هذه؟! أليس كذلك؟! بل أخبرني أنت! خنازير لا أكثر... هل كنت عند «فيزولين»؟

- نعم، كنت عنده...

- إنه إنسان جيد، لكن زوجته، كان من الأفضل لو أنها ماتت.. إنها امرأة، أوي، أوي، أوي! لقد استقرت عندنا كتيبة، ولم يبق ضابط واحد لم يتلق رسالة منها تُعلمه فيها بحبها له... أخبرني من فضلك! إنسان مثلك.. فجأة يُرسَلُ إلى بلدتنا النائية، القذرة، هذه... ما القدر الذي ساقك إلى هنا؟! هل أنت مجنون، إنك، واللّه، لمجنون. هل تشرب الفودكا؟

---

١ ـ المقصود بيتروغراد، التي أصبحت بيتربورغ، ثم لينغراد، ثم سانت بيتر بورغ.

- أشـربها قبل الغداء.

- أهــا! هذا أمر آخر.. إنني غـبي: لم أحزر. «ليزا»، أحضــري، الـ«رُبعية».. الفــودكا لدينا محليــة.. رمادية مغشوشــة... هل تشــرب الكأس مترعــة؟ لا؟ إذاً أنت شــخص عفــن.. هل حدثك «فيزولين» شــيئاً عن زوجتي؟ أرى من عينيك أنه تحدث.. تضع كل عام سبعةً من الأطفال غير الشــرعيين.. ها هي الفودكا.. إنه إنسان جيد، لكنه خنزير. لو راقب زوجته لكان أفضل بالنســبة له... بصحتك! إلى أيـن أنت ذاهب الآن؟ إلى «خوموتوف»؟ اذهب، لكن أريد أن أحذّرك: ســينهال عليك بالأســئلة حــول وظيفتــك، أجب عــن أســئلته. إنه يحب هــذا النظام. لكنه رجل طيب.. ويمكنك أن تكذب عليه للشــكليات فقط، وســيصدّقك. جرب أن تطعمه، فسوف تسيطر عليه تماما... لكنه مجنون، والله إنك لمجنون... الحمد لله أنك تشرب الفودكا.. خنازير فالتــة.. إلى اللقاء... لن أؤخرك.. هل ترغب بالفودكا قبل المغادرة؟ لا ترغب؟ كما تشاء.. ومع ذلك أنت مجنون...

توجهت مــن عند «بابــوف» إلى «خوموتوف». اســتقبلني ببزته الرسمية، وأشــار صامتا إلى الكرســي. بدأ الحديث:

- أشكرك على تشريفك لنا. هل جئت للخدمة هنا؟ من «بيتر»؟

- نعم.

- هل الوالدان على قيد الحياة؟

- نعم.

- شــيء جيد.. ما اسماهما؟

- أبي اسمه« بافل يغوروفيتش».

- والوالدة؟

- «يفجينيا ياكوفلوفنا».

- حسنا، حسنا. شيوخ أمجاد.. نعمممممممم.. ممممم..

- هكذا إذا... هل لديك إخوة؟
- كيف لا.. خمسة.
- ما هي أسماؤهم؟
- «أنطون بافلوفيتش»، «نيكولاي بافلوفيتش»، «إيفان بافلوفيتش..»
- هؤلاء ثلاثة، هل يوجد غيرهم؟
- «ميخائيل»، وأختي «ماريا»..
- لطيف، لطيف جدا.. هل لدى الجميع جوازات سفر؟
- أي نعم، أي نعم، يوجد لدى الجميع...
- هذا شيء جيد... نعمممممممم. وهل لديك أصدقاء؟
- بالطبع...
- من على سبيل المثال؟
- «ديوكوفسكي ميخائيل ميخائلوفيتش».. ويعمل...
- حسن جدا، جدا. هل هم من النخبة؟ نعم.. مممم.. يمكنني إذاً الثقة..
- اسمحوا لي بالا نحناء وتقديم أجمل الأمنيات.
- شكرا، سيدي. عرِّجوا علينا مساء لنحتسي الشاي معا.. بالمناسبة، اكتب لي أسماء أهلك على ورقة.. هكذا، من أجل أن أحتفظ بها... إنهم أناس رائعون، لكن أنت تعلم، أنه أثناء الخدمة.. لا بد من توخي الحذر... قد يكون لديك أخ لا يحمل جواز سفر؟ لا يجوز... أفوتك بعافية.. أشكرك على هذا التشريف...

خرجت من عنده وقد تبلّلت عرقاً. لديّ في الغد عشر زيارات! ماذا سأعمل؟ بماذا سأتحدث؟ وهنا ما يزال جندي يسير خلفي متتبعاً خطواتي.. تفو!

دموع التماسيح

تلبدت السماء بالغيوم. المطر يضرب زجاج النوافذ، جالباً الكآبة إلى النفس. وقف بوليكارب سيميونوفيتش إيودين إلى جانب النافذة، وراح ينظر إلى الشارع شارد الذهن.

راح يفكّر. كان إيقاع تفكيره منسجماً مع إيقاع بكاء السماء: «ما هذه الحياة التي نعيشها، في الحقيقة؟ إنها كتاب ذو صفحات كثيرة، خُطّت عليها معاناة وأحزان، أكثر من البهجة والفرح.. لأي شيء نحن مُنحنا الحياة؟ من أجل ماذا؟ فالرب، تراه، لم يخلق العالم من أجل الحزن! لكن النتيجة كانت عكس ذلك. فالدموع أكثر من البسمات.

سحب إيودين يده من جيب سرواله وراح يحك مؤخرة رأسه، مواصلاً تفكيره: «نعم، لم يكن هناك فقر في مبدأ الخلق، ولا خيانات ولا رذائل، لكنها في الواقع موجودة. من أوجدها هم البشر أنفسهم. البشرية هي من ولّد هذه المآسي. والسؤال الذي يُطرح: من أجل ماذا؟ لماذا يحدث ذلك؟»

سحب يده اليسرى، أيضاً، من جيبه، ومرّرها على وجهه بحزن. «ترى، من السهل جدا معالجة الأحزان.. لا يتطلب الأمر، سوى وجود الرغبة. على سبيل المثال، تسير مراسم دفن شخص ثري. ست جياد مجلّلة بالسواد، تحمل نعشاً مهيباً، ومن خلفه يسير رتل من العربات، يمتد إلى مسافة فرسخ تقريباً. حملة المشاعل يسيرون بوقار حاملين المصابيح. وكانت تتأرجح على الجياد شعارات كتبت على الكرتون. إنهم يشيعون شخصية مهمة، على الأغلب إن المتوفى عين. هل عمل هذا الوجيه ولو عملاً خيِّراً واحداً في حياته؟ هل جلب الدفء لمشرد

واحد؟ بالطبع، لا.. إنه مجرد شخص استعراضـي!

- ما بك، يا سـيميون إيفانيتش؟

- إنـني أجد صعوبة في تسـعير البـزّة. باعتقادي إنه لا يجـوز إعطاؤها أكثر من سـتة روبلات، أما هي فتطلب سبعة؛ تقول: الأولاد مرضى، يحتاجون إلى المعالجة.

- وحتـى سـتة روبلات كثـيرة، إنهـا لا تسـتحق أكثر من خمسـة، وعليك أن تتأكد من خلوها من البقع، أو الثقوب...

هذه هي الحياة. أما خلف حملة المشاعل، فقد كان يتمدد نعش مصنوع من خشـب الصنوبـر. ومن خلـف الموكب كانت امـرأة عجوز ضئيلـة الحجم، تمشـي، وحيدة، متثاقلة، تغوص قدماها في الوحل، وقد تكون، تريد أن تدفن في القبر مؤنة يومها.. هل سـتطلب شـيئاً؟ وهل ستعطيها السـيدة، التي تجلس في العربة، ولو كوبيكا واحدا؟ بالطبع، لا. ماذا هناك، أيضاً؟

- أحضـرت العجوز معطف الفراء. كم نعطيها؟

- إنه فراء أرنب بري. لا بأس، المعطف يسـتحق خمسـة روبلات بجدارة. أعطها ثلاثة روبلات، مع الربح، بالطبع.

- «أيـن هم الناس؟ في حقيقـة الأمر، أين هـي قلوبهـم؟ الفقراء يموتون، والأثرياء لا يعنيهم ذلك..»

أسند إيودين جبهته إلى الزجاج البارد، وشـرد بعيداً...

أركادي أفيرتشينكو

(١٨٨٠–١٩٢٥)

- الشاعر.
- صداقة.
- السر.
- ذات مساء.
- قالوش دوبلس المفقود.
- جريمتا السيد فوبايغين.
- عيد الفصح عند عائلة كينديكوف.

أركادي أفيرتشينكو

١٨٨١_١٩٢٥

ولد لعائلة تاجر صغير في مدينة سيفوستوبل في جنوب روسيا. لم يتلق تعليما أساسيا، وكان يعاني من هزال في جسده، وضعفٍ في بصره، لذلك لم يكن في مقدوره الدراسة طويلا. لكنَّ نقص التعليم عوضته موهبة طبيعيَّة كبيرة. بدأ حياته العملية منذ نعومة أظفاره.

رأس تحرير مجلتي «الحربة»، و«السيف»، و«الساخر»،

بعد ثورة ١٩١٧، لجأ أفيرتشينكو إلى القسطنطينية، ثم استقر في براغ، حيث توفي ودفن فيها سنة ١٩٢٥. جسَّد معاناته في الغربة في قصة بعنوان «تراجيديا كاتب روسي».

بعض النقاد شبَّهوا روحه الساخرة بروح الكاتب الأمريكي الساخر مارك توين. وآخرون قاربوا بينه وبين تشيخوف. تناول في قصصه الواقع والحياة الاجتماعية للعاصمة، شخصياته استمدها من سكان المدينة، من مختلف الشرائح الاجتماعية: قضاة، وكتاب، ومثقفين، ومهنيين، ونساء جميلات، كان يسخر من غباء بعض سكان المدن، مثيرا الكراهية نحو هذه الفئة من الناس، ونحو الغوغاء. حاز على لقب ملك الضحك.

ما يميز أسلوبه هو عمله على المبالغة الشديدة، وتخطيط الحالة المضحكة، وإيصالها ذروة غير معقولة بالمطلق. مواقفه الساخرة لا تتضمن أي ظلال للحقيقة، لذلك كانت قصصه تخدم عملية استبعاد الواقع، التي كانت ضرورية للجمهور المثقف في ذلك الزمن.

من مجموعاته القصصية: المحار المرح، الأرانب على خشبة المسرح، ثماني مسرحيات هزلية، قصص أوديسا، تحت الغيوم، دوائر الماء، قصص للمتعافين، الأخصائيون، أزهار عطرة، ماذا يريدون؟، كتابة الأسود بالأبيض وغيرها.

الشاعر

قال زائري بخجل، معلقا نظراته بحذائه:

- سـيدي المحـرر، إنـني محرج جدا لأنـني أزعجـك. عندما أفكـر بأنني اقتطـع دقيقـة من وقتك الثمين، فـإن أفكاري تغـرق في لجة اليأس القاتم... بحق الرب، سامحني!

قلت ملاطفا:

- لا بأس، لا بأس، لا تعتذر.

ألقى رأسه على صدره بحزن:

- أرجو المعذرة. أدرك أنني أزعجتك. وهذا يضاعف ذنبي، فأنا لم أعتد أن أكون ملحِفاً بالطلب.

- لا تخجل! أنا سـعيد جدا بلقائك. لكن للأسـف، أشـعارك لم تكن مناسبة.

- ماذا؟

نظر إليّ بدهشة، فاغراً فاه:

- هذه الأشعار غير مناسبة؟

- نعم، نعم، هي ذاتها.

- هذه الأشعار التي تبدأ بـ:

وددت لو أُسرح غرّتك السوداء كل صباح،

وأقبّل شعرك

كي لا يغضب أبولو،

وتقول عن هذه الأشعار، إنها غير مناسبة؟

- للأسف، عليّ أن أعترف بأن هذه الأشعار، بالتحديد، لا غيرها، غير مناسبة. وهي التي تبدأ بكلمات:

وددت لو أُسرح غرّتك السوداء كل صباح...

- لماذا، سيدي المحرر، فهي أشعار جيدة.

- موافق. لقد تسليت بها أنا شخصياً، لكنها غير مناسبة للمجلة.

- ليتكم تقرؤونها مرة أخرى.

- ولماذا؟ فقد قرأتها.

- مرة أخرى.

قرأت الأشعار مرة أخرى تحت رغبة الضيف، وأعربت، بنصف وجهي، عن إعجابي، وبالنصف الآخر- أعربت عن أسفي، لأن هذه الأشعار غير مناسبة مرة أخرى.

- إم.. اسمح لي إذا.. أن أقرأها بنفسي. «وددت لو أُسرح غرّتك السوداء...»

استمعت بصبر لتلك الأشعار مرة أخرى حتى النهاية، لكني قلت بعدئذ بحزم وجفاء:

- الأشعار غير مناسبة.

- غريب. أتعرف: سأترك لك المخطوط، حتى تتمكن من قراءته بعمق فيما بعد. وقد تبدو الأشعار مناسبة عندها.

- لا، لماذا تتركها؟

- يمكنك التشاور بشأنها مع أحد ما، أليس كذلك؟

- لا داعي. أبقها لديك.

- لقد فقدت الأمل في أن انتزع منك ثانية من الوقت، لكن...

- إلى اللقاء!

خرج، وعدت أنا إلى الكتاب الذي كنت أقرأه قبل ذلك. فتحته، رأيت ورقة موضوعة بين صفحاته. قرأتها:

وددت لو أُسرح غرّتك السوداء... كل صباح.

كي لا يغضب أبولو...

- آه، ليأخذه الشيطان! لقد نسي هراءه... سيزورني مرة أخرى! نيكولاي! الحق بذاك الشخص الذي كان لتوه عندي، واعطه هذه الورقة.

انطلق نيكولاي في أثر الشاعر، ونفّذ أوامري بنجاح.

ذهبت في تمام الساعة الخامسة إلى البيت لتناول الغداء. وعندما هممت بدفع الأجرة للحوذي، داسا يدي في جيب المعطف، أحسست بوجود ورقة هناك، لست أدري كيف وصلت إلى جيبي.

أخرجتها، فتحتها، وقرأتها:

وددت لو أُسرح غرّتك السوداء كل صباح،

وأُقبّل شعرك

كي لا يغضب أبولو... الخ

ضممت كتفي، رميت الورقة على الرصيف، وذهبت للغداء غير مستوعب كيف وصلت تلك الورقة إلى جيبي.

عندما أحضرت الخادمة الحساء، تذكرتْ شيئا، اقتربت مني، وقالت:

- وجدَتْ الطباخة، للتو، ورقةً على الأرض، مكتوب عليها شيء ما، وقد تكون مهمة.

- أرني.

تناولت الورقة وقرأت:

- «وددت لو أُسرح...» لم أفهم شيئا. تقولين، في المطبخ، وعلى الأرض؟ الشيطان يعلم.. أي كابوس هذا

مزّقت الورقة إربا ـ إربا، وجلست للغداء بمزاج مضطرب. سألتني الزوجة:

- لماذا أنت شارد الذهن، هكذا؟

- وددت لو أُسرح... تفو على الشيطان. لا شيء، يا عزيزتي. إنني متعب، وحسب.

بعد تناول الحلويات – كان الجرس يرن في مدخل المنزل، استدعوني... كان الخادم يقف عند الباب، دعاني بأصبعه بطريقة سرية.

- ما خطبك؟

- سيدي...معي رسالة لكم. اسمحوا لي القول، بأنها من سيدة.. وأنها تتأمل منكم الشيء الكثير، وبأنكم ستلبّون أمنيتها..

غمـز الخادم بطرف عينه بـود، وقهقه بقبضة يده. تناولت الرسـالة مخبولا وقلّبتها أمام عيني. كانت الرسالة ملفوفة بشـريط وردي، تفوح عطرا، وعندما فككت الشـريط، ضاما كتفي، تبين وجود ورقة مكتوب عليها:

وددت لو أُسـرح غرّتك السوداء... من السطر الأول حتى الأخير.

مزقت الورقة إرباً – إربا، في حالة من الغضب ورميتها على الأرض. ومن خلف ظهري تحركت زوجتي، وراحت تلتقط بعض القصاصات بصمت غاضب.

- ممن هذه؟
- ارمها. إنها.. سخافات. إنها من شخص ممل للغاية.
- نعم؟ وماذا كتب فيها؟.. أوه.. «أُقبّل» .. «كل صباح» ... «شيطان... شعر...» حقير.

وطـارت إلى وجهي قصاصات الرسـالة. لم يكن الأمر مؤلمـا، بقدر ما كان مخزيا.

وبمـا أن الغـداء قد انتهـى، فإنني ارتديت ملابسـي، وخرجت أتسـكع في الشـوارع. عند زاوية أحد الشـوارع، لاحظت وجود ولد يحـوم قرب رجلي، محاولا دس شـيء ما أبيض، مطوي، في جيب المعطف. دفعته عني، وصككت على أسناني، حتى هرب.

كانت روحي مكتئبة. وبعد أن جِبت الشوارع الصاخبة، عدت إلى البيت، وعلى عتبة المدخل الرئيسـي للبيت اصطدمـت بالحاضنة، التي كانت عائدة بفولوديا، ذي الأربع سنوات، من السـينما. صاح فولوديا فرحا:

- أبي. لقد رفعني عم غريب بيديـه... وأعطاني شـوكولاتة... وورقة... قـال، أوصلهـا لأبيـك. أما أنـا فقـد التهمت، يـا أبي، الشـوكولاته، وأحضـرت لك الورقة.

صحت بغضب، مختطفا من يده الورقة ذات الكلمات المعروفة: «وددت لو أُسرح غُرّتك..» وقلت:

- سأريك، سوف تجلد.

استقبلتني الزوجة بازدراء واحتقار، لكنها مع ذلك، وجدت أنه من الواجب إخباري:

- كان هنا سيد ما بغيابك. اعتذر جدا عن إزعاجه لك، لأنه أحضر المخطوط إلى البيت. وقد تركه لك لتقرأه. أغدق عليّ كثيرا من عبارات المجاملة(هذا هو الإنسان الحقيقي، الذي يقدّر ما لا يقدره الآخرون، مستبدلين التقدير ببضاعة مبتذلة)، وهو يرجو إبداء الرأي بأشعاره، ولو بكلمة. باعتقادي، إن الشِّعر هو الشِّعر.. آه. عندما قرأ عن ناصية الشَّعر، كان ينظر إلي بـ...

ضممت كتفي وذهبت إلى المكتب. على طاولة المكتب، كانت ملقاة أمنية معروفة، لمؤلف يريد تقبيل ناصية شَعر ما. وجدت تلك الأمنية في صندوق السيجار، الموضوع على الرّف. ثم وجدتها في الدجاجة الباردة، التي طلبت على الغداء أن تجهز لنا على العشاء. لم تستطع الطباخة أن تحصل على إجابة عن كيفية وصول تلك الأمنية إلى هناك.

وقد ظهرت لي الأمنية بتسريح ناصية ما، عندما سحبت الغطاء على وجهي في محاولة للنوم. حاولت تعديل وضع الوسادة، فسقطت منها الأمنية ذاتها.

استيقظت في الصباح بعد ليلة مؤرقة، وما إن رحت أتناول حذائي الذي نظفته الخادمة، محاولا دس قدمي فيه، حتى فوجئت بوجود الأمنية البلهاء بتقبيل شعر ما.

دخلت إلى المكتب، جلست إلى طاولته، ورحت أكتب استقالتي من مسؤولية التحرير للناشر.

كان علي أن أعيد كتابة الرسالة، لأنني ما إن قلبتها لكي أطويها، حتى وجدت خطا معروفا لي:

وددت لو أُسرح...

صداقـــة

قال كوشكين لزوجته وهو ذاهب إلى السفر:

- سأعود غداً، يا موروتشكا، وبما أنك عازمة على الذهاب إلى المسرح هذا اليوم، فسيرافقك بدلا مني صديقي بولتيرين. إنه، في الحقيقة، شخص قريب، صحيح أنه ثقيل الظّل من حيث الطبع، لكنه سيكون مخلصاً لي وراعياً لك. وعندما تعودان إلى البيت يمكنك تركه ينام في مكتبي، حتى لا تستوحشي.

وافقت الزوجة قائلة:

- نعم لن أستوحش هكذا.

- إيه، ومع ذلك! سيكون هناك رجل في البيت.

عندما وصل بولتيرين، قاده كوشكين إلى زاويته وقال له:

- أيها الصديق بولتيرين! إنني أودِعك زوجتي. أرجوك حافظ عليها. وسأقول لك بصراحة، إنه ليؤلمني أنها تعجب بشباب حقيرين مختلفين، ممن يكثرون حولها لمجرد أن تدير ظهرك. أما معك فإنني سأكون مطمئناً، لأنهم لن يغامروا بإسماعها مختلف الكلمات البلهاء.

قال بولتيرين بشدة، مبديا هيئة غير مهادنة:

- كوشكين! اعتمد عليّ. لقد كانت حياتي العائلية غير موفقة، كما تعرف: زوجتي هربت مع ولدٍ حقير ما زال يرضع! لذلك فقد

حفظت الدرس، وتعلّمت تجربة مُرّة، ولن أُلقي بنفسي على أي صنارة.

ألقى نظرة عابسة على موروتشكا الجالسة أمام البيانو، وشدّ على يد كوشكين بصمت يعِدُ بالكثير.

سافر كوشكين.

وقفت موروتشكا، بعد أن ارتدت ملابسها، أمام المرآة القائمة تشبك دبوساً على قبعتها، وراحت تسأل بولتيرين الذي كان يتابعها بنظرات قلقة:

- بماذا كنتما تتحدثان أنت وجورج؟

- تحدثنا بشكل عام. لقد أوكل إليّ أن أبقى إلى جانبك.

استغربت موروتشكا:

- لماذا؟

لقد أدخل بولتورين سكين فتح الكتب في فمه وهو شارد الذهن، وقال بعد أن فكّر بالجواب:

- أعتقد، أنه يخشى أن يكون لديك عشيق.

انفجرت موروتشكا غاضبة:

- اسمع! إذا لم تكن مؤدباً بشكل طبيعي، فإنني سوف أطردك الآن وأذهب إلى المسرح وحدي.

فكّر بولتورين في نفسه: «نعم! يا لك من شديدة الخداع... تطردينني، لتركضي إلى عشيقك. نحن نعرفكّن»، ثم قال ليُسمعها:

إنه هو من قال ذلك، لا أنا. ولا أدري، قد لا يكون لديك أي عشيق.

لقد أراد أن يتملق لموروتشكا، لكنها كظمت غيظها وركبت العربة غاضبة، صامتة.

كان بولتيرين دباً حقيقياً: لقد قفز إلى المركبة أولاً محتلاً ثلاثة أرباع المقعد، وعندما التقيا في الطريق بأحد معارف موروتشكا، انحنى الأخير بالتحية، في حين استدار نحوه بولتيرين بهدوء رافعا قبضته في وجهه مهددًا. وما أن رأى السيد ذلك، حتى جمد في مكانه مندهشاً، وراح ينظر طويلاً في أثرهما غير فاهم ما يحدث.

عندما دخلا ردهة المسرح، نزع بولتيرين عن موروتشكا معطفها، كما تقتضي التقاليد، ونظر حوله وقال بغضب ممسكاً بيدها:

- إيه، لنذهب!

- توقَّف... إلى أين تجرني؟ اترك يدي. من ذا الذي يجرُّ امرأة من يدها هكذا؟

- وكيف إذا؟

خذني هكذا... خذ ذراعي تحت ذراعك... ومن فضلك اترك حركاتك السخيفة، وبغير ذلك سأضطر إلى تركك في الحال.

تشبث بولتيرين بيد موروتشكا مبدياً انزعاجاً وفكّر في نفسه: «أنت تكذبين! لن تهربي أيتها الحقيرة. ويمكنك الشتم كيفما تشائين».

عندما جلسا في مكانهما، أخذت موروتشكا المنظار وراحت تراقب الجالسين في الشرفة. طلب بولتيرين المنظار بخبث لدقيقة، وفكّ برغياً في الجزء الأمامي من المنظار، متظاهراً بالنظر إلى الستارة، بعدئذ أعاد المنظار ببرود أعصاب إلى موروتشكا. وقال بخبث مبتسماً في داخله:

- انظري الآن!

أدارت موروتشكا المنظار طويلاً، وحركته كثيراً، إلا أنها في النهاية كانت غاضبة:

- إنني لا أفهم! قبل قليل كان جيدا، أما الآن فإنه لا يعمل بأي شكل.

رد بولتيرين على احتجاجها:

- وهل دخل الفنانون الكبار الآن؟ يا لهم من محتالين! همُّهم جمع المال. يأخذون النقود وبدل المنظار يعطونك طاحونة قهوة! حسبنا اللّه!

أراد بولتيرين أن يدخِّن في فترة الاستراحة. فكّر وهو ينظر إلى رأس موروتشكا المائل جانبًا: «إنَّ تركها هنا وحدها مغامرة، وإنَّ جرّها إلى زاوية التدخين سيكون غير مناسب... الأنسب أن أحبسها في شرفة فارغة، وأذهب أنا لأدخن سيجارة... لا، لن يسلك هذا الخيار. لقد علقتِ برقبتي! هل أضعها في الردهة أمام أنظاري، وأذهب لأدخن في الزاوية حتى لا يراها أحد؟» وقف على قدميه:

- لنذهب!

- إلى أين؟ أنا سأبقى هنا جالسة.

- لا يجوز، لا يجوز! يجب أن نذهب.

- اذهب أنت عني! اذهب أنت أينما تشاء.

- لا، لن أذهب من دونك...

قالت موريتشكا بشماتة:

- اذهب! سأجلس هنا ولن أتحرك من مكاني.

خطرت ببال بولتيرين فكرة وقال:

- إذا تحركت، سأقيم فضيحة! هل تعتقدين، أنني لا أفعلها؟ أقسم أنني سأصيح، وأعلن أنني أمسكت يدك متسللة إلى جيبي ومعك المحفظة، أو أقول أنك زوجتي الهاربة! أها! وحتى يستوعبوا القضية تكونين قد وقعت في فضيحة.

نهضت موروتشكا بوجه شوّهه الغضب:

- يا لك من... حقير! أما ذاك الأبله جورج، فسوف أسمل عينيه غدا.. لنذهب!

فكّر بولتيرين منتشياً بنصره: «اشتمي هناك كما تشائين، يا عزيزتي، فأنا أعرف كيف أتعامل مع النساء» لكن تعابير الفرحة سرعان ما هربت من وجهه. لقد اتجه نحوه شاب في بزّةٍ سوداء، لوح بمطوية البرنامج، وحيّا موروتشكا مبتسماً:

- أوه، ماريا كونستَن...

قال بولتيرين حاجباً موروتشكا:

- أنت مخطئ، أيها الشاب! كان عليك أن تخجل وأنت تقترب بهذا المظهر من سيدة متزوجة. شخص يكاد لا يقف على قدميه، ويسمح لنفسه...

- اسمع! هل فقدت عقلك؟!

- انصرف، انصرف! كثيرون هم أمثالك هنا... انظروا إليه إنه لا يستطيع «أن يفتّل خيطان معي».

- قبل كل شيء – أنت وقح! أنا لا أعرفك، كلُّ ما أردته فقط هو أن أحيّي السيدة كوشكينا...

راح الجمهور الحائر يحتشد حولهم. وما أن لاحظت موروتشكا ذلك، حتى اقتربت من الشاب وتعابير وجهها توحي بالرجاء، ثم همست له:

- أستحلفك بالله! غدا... تعال إلى زوجي. سيشرح لك الموضوع؛ أرجوك لا تُحدث ضجّة الآن.

كان وجه موروتشكا قد احمرَّ، ولمعت في عينيها الدموع. ضمّ الشاب المهزوم كتفيه، وانحنى لها ثم تراجع، أما موروتشكا فقد أرسلت باتجاه الجمهور المحتشد ابتسامة ساحرة، ثم سحبت بيدها بولتيرين وقالت بلطف:

- أوصلني إلى زاوية الملابس.

- لماذا؟

همست له، وهي تنظر إلى الجمهور مرسلة ابتسامتها اللطيفة:

- لا شأن لك، أيها الحقير، كم أكون سعيدة لو تمكنت من أن أتشبث بشعر لحيتك... أيها الحيوان السمين!

- لا بأس، اشتمي! سنذهب، من فضلك إلى زاوية الملابس... لكني رأيت نظراتك التي تبادلتها مع الشاب. فهمت! لن أدعك تذهبين وحدك إلى زاوية الملابس.

قالت موروتشكا بأنين هادئ:

- أنت أبله حقيقي. إن زاوية الملابس للنساء فقط!

- قد يكون هناك مدخل آخر....

- إن قبعتي ومعطفي في الأسفل. أنت شنيع أيها العبيط؟!

فكّر بولتيرين: «هل ستهرب من دون المعطف أم لا؟ أعتقد أنها لن تهرب».

- اذهبي! على أي حال، سأقف حارساً عند الأبواب.

عندما خرجت موروتشكا من غرفة الملابس، اصطدمت ببولتيرين، الذي كان يتلصص بطريقة مريبة عبر أحد الأبواب ويهمس مع الوصيفة. قالت بحزم:

- لنذهب إلى البيت!

ابتسم بولتيرين في نفسه بشماتة، وفكّر: «أها! لم تتمكن من الحديث مع العشيق»

- تفضلي، لنذهب!

تشبث بيد موروتشكا، وقادها إلى الأسفل، ارتدى معطفه، وأخرج لسانه لشخص كان مسلطاً نظراته على موروتشكا الجميلة دون أن يزيحها، ثم جلس معها في العربة. وعندما انطلقت العربة توجه إليها بلطف قائلاً:

- من المؤسف أننا لم نكمل المسرحية، على ما يبدو أنها كانت ممتعة..

- نظرت موروتشكا إلى وجهه الساذج بحقد وقالت:

- حقير، حقير! مجنون لعين! غبي!

- قال بولتيرين مندهشاً:

- ماذا دهاكِ، لماذا تشتمين؟

- إليك أيها العبيط: عندما أذهب إلى النوم، فإنني أترك النافذة مفتوحة عمداً حتى يتسلل عبرها عشيقي... هههههههه!

قال بولتيرين بدم بارد:

- لا، إنك لن تفعلي ذلك.

- اسمح لي بالسؤال، لماذا أنت واثق من ذلك؟

- لأنني سآخذ كرسياً، وأجلس في غرفة النوم لأحرسك....

- أنت جننت! أنت غبي لدرجة أنك لا تستوعب المزاح!

- حسنا، حسنا. سأقوم بذلك. وماذا في ذلك؟ لقد تحدثتما، والآن إلى العناق؟ لي الله، سأجلس في غرفة النوم. هل عبثاً أعطيت أنا كلمة؟!

- تجرأ! سأدعو الحراس، سوف يرسلونك إلى السجن.

- أما أنا فسأقيم فضيحة! سأقول إنني عشيقك وأنك ثُرتِ عليّ غيرة من وصيفتك.

- نذل!

- ليكن!

اشتعلت الشمعة حتى النهاية منيرة غرفة النوم... على السرير كانت ترقد موروتشكا بتنورتها الخارجية وكلساتها، متدثرة بغطاء. بدا واضحًا أنها بكت كثيراً، حيث كان يُسمع نشيجها وهي تحت الغطاء، واحمرّت عيناها.

في الزاوية، كان يجلس بولتيرين على كرسيه الوثير نصف مغمض العينين، قاضماً برغي المنظار الذي أخرجه من جيبه بعفوية، ناظراً إلى السيدة النائمة بذهن شارد.

السر

[١]

أكّد لي أنه كانت لديه ميول شعرية منذ الطفولة، قال:

- أتعرف! إنني أُحبُّ كلّ شيء جميل.

سألت مبتسماً:

- غير معقول؟ كيف توصلت إلى ذلك؟
- لا أدري، يبدو أن روحي كذلك: تَنْشَدُّ لكل شيء جميل...
- في هذه الحالة اسمح لي أن أهديك كتباً من أشعاري!!

لم يخف، لكنه قال:

- شكرا.

سألت بأكبر قدر من الصراحة:

- هل تحب الجداول في الغابات، عندما تخرّ مياهها؟ أو الخراف التي ترعى على العشب؟ أو الغيمة الوردية العالية- العالية... على ارتفاع ستين ساجينا[١]؟
- همس وهو ينظر شارد الذهن بعينين مفتوحتين على اتساعهما إلى الأفق البعيد:

---

١ ـ وحدة قياس تساوي مترا و ١٣ سم.

- أحبها حتى وجع القلب.

- يا لك من رائع، وماذا تحب أيضا؟

- أحب الغروب على النهر، عندما يأتيك غناء هادئ من بعيد... والأزهار عندما تزيّنها أولى قطرات الندى الصافية الباردة... أحب النساء الشاعريات الجميلات، وأحب السر الجميل دوما.

- تحب السر؟ لو كنت أخبرتني عن ذلك قبلا، لكنت أخبرتك بعض الأسرار... هل تعرف، على سبيل المثال، ماذا بين زوجة طباخنا وآمر دكان الألبان؟ أنا بنفسي سمعت بالأمس كيف قدّم لها عرضا خادعاً...

رمش وقال:

- أيها الصديق! إنك لم تفهمني. هذا سر مبتذل، وفجّ. أنا أحب السر الرقيق، الدقيق، الهارب. هل تعرف ماذا فعلت اليوم؟

قلت واثقا:

- لقد فعلت شيئاً جميلاً، شاعرياً.

- إنه كذلك بالضبط. نحن سنذهب الآن إلى ليديا بلاتونوفنا. فهل تعرف ماذا فعلتُ؟

- شيئاً ما شاعرياً وجميلاً.

- نعم! لقد اشتريتُ سلة من الورود البيضاء الفاخرة، وأرسلتها مُغفَلة إلى ليديا بلاتونوفنا، من دون ملاحظة أو بطاقة إهداء.

- أها! لأجل ذلك أنت بعت الأريكة التركية وسروالك الأزرق!

قال بنبرة تعبّر عن المعاناة:

- صديقـــي! دعنا لا نتحدث عن ذلك. الأزهـار... من العالم الغريب... من أين جاءت؟ أمن هواءِ الجبال النقـي؟ من أرسلها؟ اللّه؟ الشـيطان؟

كانـت عيناه المصوبتـان إلى السـماءِ تلمعان مثل النجـوم. قلت بطريـقة لاذعة:

- وأنت لن تصبر حتى النهايـة، إنك سوف تثرثر بالموضوع؟

- أيها الصديق! أقسـم لك أنني سـوف أكون صموتـا وغير مكترث.. أنت تدرك، أنها لن تعرف من أين هذه الأزهار... تلك الكلمة الصغيرة والمخيفة- أبداً. NEVER MORE!.

عندما ترجلنا من العربة، رحت أفكر، لو أن هذا الشخص كتب شعراً، فلن يـكون أسوأ مما كتبت.

[٢]

دخلنـا قاعة الضـيافة، اسـتقبلتنا صاحبـة البيت بفرح عاصـف، وبشـلال من الامتنان، جعلني بداية أتأخر عن فاسـيا ميموزوف.

هتفت السـيدة الرائعة:

- فاسـيلي فالنتينيتش! اعترف... أنت من أرسل هذه الأشـياء الرائعة؟

تراجع فاسـيا ميموزوف مندهشاً، وقال فاتحاً عينيه على اتساعهما:

- أشـياء رائعة؟ ما هي؟ إنني لا أفهمك!

- كفى، كفى! مَنْ غيرك يمكنه أن يقترف هذا الشـيء الساحر؟

- عمّاذا تتحدثين؟

- لا تتظاهر. إنني أتحدث عن سلة الزهور الفاخرة هذي!

- اتجهت أنظاره إلى حركة يديَّ السـيدة، وصـاح كما لو أنه كان يرى سلة الزهور لأول مرة في حياته:

- يا له من بهاء! من أحضـر لك هذا؟

دهشت السـيدة:

- لا يعقل أن لا تكون أنت؟

أدار فاسـيا وجهه الحزين إليها دون تردّد وقال بشدة:

- بالطبع، ليس أنا. أقسم لك بشـرفي.

في تلك اللحظة كانت قد انتبهت لوجودي فحيتني بسـرور.

- تحياتي! لا أظن أنك أنت من قدّم هذه الهدية الملكية؟

أدرت وجهي جانباً، وقلت معترضاً بخجل مصطنع:

- ماذا تقولين، ماذا تقولين؟

نظرت إليّ بريبة، وقالت:

- ولماذا لا ترفع نظراتك إلى وجهي؟ اعترف، أيها الصبي اللعوب!

ضحكتُ بغباء، وقلت:

- لماذا أنت تعتقدين، أن من أرسلها هو أنا بالتحديد؟

- لأنك تحرَّجت فوراً عندما سألتك.

كان فاسيا ميموزوف يقف خلف ظهر السيدة، وعمل لي إشارات رجاء. ضحكت بهدوء، ورحت أدوّر زرّ الصديري بخجل:

- أوه، دعينا.

- بالطبع، إنه أنت! لماذا أنت، حقيقة، تكلّف نفسك؟

لوحت بيدي متفاديا نظرات ميموزوف وقلت من دون اهتمام:

- هل يجوز التفكير بهذا؟

أمسكتني من يدي

- إذاً أنت!

اقترب فاسيا ميموزوف بوجهٍ مصعّر بسبب الخوف، وهتف بصوت أجش:

- ليس هو!

نظرت السيدة إلينا غير مستوعبة:

- إذاً، أنت هو؟

تحول وجه صديقي إلى ساحة صراع لنزعات متعددة من الدنيئة إلى الجميلة وحتى السامية. وقد انتصرت لديه النزعات السامية. قال متراجعا:

- لا، لست أنا.

- لا يمكن لأحد أن يرسلها، إذا لم تكن أنت، فيكون هو. لماذا أنت تبذل كل هذه النقود؟

هززت يدي وقلت على استحياء:

- دعينا! هل يمكن الحديث عن هذا على أنه تبذير؟ النقود، النقود... ماذا تعني النقود في الحقيقة؟ إنها جيدة بقدر ما نستطيع أن نشتري بها أزهاراً مزيّنةً بأولى قطرات الندى الصافية الباردة. أليس كذلك، يا فاسيا؟

همست السيدة، ناظرة إلي بعينين غائمتين:

- ما أجمل ما تقول! إنني لن أنسى هذه الأزهار. شكراً، شكراً لك!

قلت:

- هذا هراء! أنت أروع من كل الأزهار.

- MERCI على أي حال، لا بد أنك أنفقت عشرين روبلا؟

قلت جزافاً:

- ستة عشر.

تناهى صوت خافت من الزاوية البعيدة لصالة الضيوف، حيث كان يجلس ميموزوف كظيماً:

- ثمانية عشر ونصف!

قالت السيدة وهي تستدير نحوه:

- ماذا؟

قلت :

- إنه يرجو السماح له بالتدخين. دخّن، يا فاسيا، إن ليديا بلاتونوفنا تتحمل الدخان.

كانت أفكار السيدة تتجه طول الوقت إلى سلة الأزهار.

- لقد حاولت دوما أن أعرف من يرسل الزهور من الشخص الذي يحضرها. لكنه كان يصمت.

قلت مستحسنا الفكرة:

- إنه صبي مروَّض، على ما يبدو.
- صبي! لكنه عجوز!
- غير معقول! كان وجهه شبابيا.
- لقد كان متغضّنا كلَّه!
- تعس! يبدو أن حياته كلها كانت غير جميلة. إن وضع الحوذيين غير طبيعي، عشر ساعات عمل... كنت قد كتبت حول ذلك. على فكرة، إن دخل الحوذي هذه الأيام يكفي شؤونه.

نهض ميموزوف واقترب منا. اعتقدت أنه سيضربني، لكنه قال بشدة:

- لنذهب! لقد حان الوقت.

عند الوداع أمسكت السيدة يدي بيدها وهمست:

- هل ستزورني؟ سأكون سعيدة! MERCI لأجل الزهور. تعال وحدك.

لقد سمع ميموزوف ذلك الكلام.

[٣]

من المحتمـل، أن تكون البِركة الصيفيّة المُنارة بالشـمس الذهبية، التي تدفئ العشـب والطيور.. عزيزة، أو القبلة الأولى من شـفتين دافئتين للمرأة التي تحب...

وقـد تمكنت مـن أن أصرخ له قبل أن أسـقط عن قاع الجسـر وأقع على القنطرة:

- فلتحيا الأسرار!

ذات مساء

لقد استغرقت في قراءة «تاريخ الثورة الفرنسية» ممسكا رأسي بين يدي، ناسياً كل شيء في العالم من حولي.

جذبني أحدهم من سترتي من الخلف. وبعدها خدش ظهري بظفره. ثم اندس رأس بقرة ريفية غبي تحت ذراعي. تصنعت موقف عدم الاكتراث لكل هذه الألاعيب. فما كان إلا أن لجأ إلى محاولة فاشلة لتحريك الكرسي من خلفي. وبعد ذلك قال:

– عمي!

– ماذا وراءك، يا ليدتشكا؟

– ماذا تفعل؟

أتخذ في الكلام مع الصغار، عادة، أسلوب التغابي.

– إنني أقرأ يا صغيرتي عن تكتيكات الجيرونديين[1].

تأملتني ملياً.

– ولماذا؟

– كي أسلط ضوء المنهج التحليلي الساطع على ضبابية إدارة ذلك الزمان.

– ولماذا؟

– من أجل زيادة معرفتي وملء دماغي بمادة رمادية (حرفيا، ومجازا – مادة مملة).

1- الجيروند – كتلة سياسية في فترة الثورة الفرنسية، مثلت البرجوازية الصناعية والتجارية الصغيرة في فرنسا. تقلبوا على السلطة، وأعدم أثناء الثورة عدد من قادتهم. التسمية أطلقها المؤرخون عليهم لاحقا نسبة إلى نهر في فرنسا من حوضه قدم معظم قادة الجيروند.

- رمادية؟
- نعم.هذا مصطلح باثولوجي.
- ولماذا؟

لديها صبر العفاريت. يمكنها إيراد سؤالها «لماذا» آلاف المرات.

- ليديا! تكلمي صراحة: ماذا تريدين؟ الإنكار لا يفيد إلا في زيادة الذنب.

تتردد على طريقة النساء، ثم تجيب:

- لا أريد شيئا. فقط أريد مشاهدة الصور.
- أنت يا ليديا، فتاة مشاكسة، فارغة. إليك مجلة، وانطلقي مجلجلة نحو الجبال.
- كما إنني أريد حكاية أيضا.

إن «تاريخ الثورة الفرنسية» يبدو شاحبا مقابل عينيها الزرقاوين، وشعرها الذهبي.

- إن الطلب، لديك يا عزيزتي، يفوق العرض. وهذا غير جيد. الأفضل أن تقصي أنت عليّ حكاية.

تسلقتْ على ركبتي وقبلت رقبتي.

- لقد أثرت مللي بالحكايات. احك لي.. احك لي. اسمع إذاً.. هل تعرف قصة ليلى والذئب؟

تصنعت الدهشة على وجهي.

- إنني أسمع بها لأول مرة.
- إذاً اسمع.. كان يا ما كان، كانت في قديم الزمان، بنت اسمها ليلى..
- أرجو المعذرة... ألا يمكنك أن تحددي بشكل دقيق مكان إقامتها فقط، لمزيد من الوضوح في حركة تطور الحكاية؟

- ولماذا؟
- أين كانت تعيش؟!

استغرقت ليديا قليلا في التفكير ثم أشارت إلى المدينة الوحيدة التي تعرفها:

- في هذه.. سيمفوروبل.
- رائع! أشعر بفضول شديد جدا لسماع المزيد.
- .. أخذت ليلى الزبدة والكعكة وانطلقت إلى الجدة عبر الغابة...
- هل كانت الغابة جزءا من ملكية خاصة أم حكومية؟

ولكي تخرج من الورطة، ألقت إجابة حازمة:

- حكومية. مشت ومشت. وفجأة ظهر من عمق الغابة ذئب!
- باللاتينية.Lupus
- ماذا؟
- إنني أسأل: هل كان ذئباً كبيراً؟
- هكذا(مع إشارة بيديها للدلالة على الحجم). وقال لها..

كشرت عن أنيابها، وجأرت:

- ليلى... إلى أين أنت ذاهبة؟
- ليديا! هذا غير حقيقي! الذئاب لا تتكلم. إنك تكذبين على عمك العجوز المسكين.

راحت تعض على شفتها مُعذبة.

- لن أقص الحكايات بعد الآن.

كنت خجلاً.

- لا بأس، سأقص أنا عليك. كان يا ما كان، عاش في قديم الزمان ولد..

سألت بخبث:

– وأين عاش؟

– كان يعيش قرب جبال الأورال الغربية. أخذه أبوه يوما ما إلى حديقة تفاح. أجلسه تحت شجرة، ثم تسلق الشجرة كي يقطف الثمار. سأل الولد:

– أبي.. هل للتفاح أقدام؟

– لا يا عزيزي

– إذا، ما التهمته أنا كان ضفدعة برية!

الحكاية بلهاء، وسخيفة، وسبق لي أن سمعتها يوما ما من حاضنة شبه مخمورة. ومع ذلك فقد تركت انطباعا مزلزلا لدى ليديا.

– أوه، ابتلع ضفدعة؟ تخيلي. لا بد أن حاسة الذوق لديه ضعيفة. والآن انصرفي. أريد أن أقرأ.

وبعد عشرين دقيقة شعرت بمن يجذب سترتي بطريقة مألوفة، وخمشات خفيفة بالظفر وهمس:

– عمي! إنني أعرف حكاية.

كان من الصعب أن أخيب أملها. العينان تلمعان مثل نجمتين، والشفتان تختلجان بشكل مضحك.

– لا بأس. أفرغي مكنونات نفسك.

– الحكاية! كان يا ما كان، كانت في قديم الزمان فتاة، أخذتها أمها إلى الحديقة، المزروعة بشجر.. ما اسمه.. الأجاص. تسلقت الأم الشجرة، والفتاة جالسة تحتها. حسنا. وهذه هي الفتاة تسأل: «أمي! هل للأجاص أقدام؟»

– لا، يا بنيتي.

– إذاً، فما ابتلعته أنا كان دجاجة!

- ليدكا! لكن هذه حكايتي!

وراحت تلوح بيديها وتصيح مختلجة إعجابا بنفسها:

- لا، إنها لي، لي، لي! إنها غير قصتك.

- ليديا! هل تعرفين أن هذا يسمى سرقة أدبية؟ اخجلي!

ولكي تغير الموضوع، طلبت مني أن أريها الصور في الكتاب!

- لا بأس. أترغبين أن أجد لك خطيبك في المجلة؟

- جده.

أخذت مجلة قديمة، ورحت أبحث فيها عن وحش يمثل صورة فيي غوغول[1]، وقدمتها مغيظا الفتاة.

- هذا هو عريسك.

وراحت تنظر إلى الوحش برعب، وبعد ذلك قالت بود مصطنع مخفية غضبها الشديد:

- حسنا.. والآن أعطني الكتاب. ساجد لك عريسك.

- أنت تقصدين عروسة؟

- لا بأس، عروس.

هدوء من جديد. تسللت ليديا خلف الأريكة، وهناك راحت تقلب وتقلب الصفحات متنفسة بصعوبة..

نادت بغير ثقة:

- عمي! اقترب هنا، هذه هي عروسك...

وكان أصبعها يشير بتردد إلى جذع أجعد لصفصافة هرمة محتطبة.

- أوه، لا يا عزيزتي. أي عروس هذه؟ هذه شجرة. ابحثي عن امرأة مخيفة أكثر.

1- فيي غوغول: إحدى الشخصيات التي ابتكرها الكاتب الروسي غوغول وهي تشبه الشيطان.

ومرة أخرى هدوء وحفيف تقليب الأوراق المعتاد. ثم بكاء هادئ وحاد.

- ليديا، ليدتشكا...ماذا دهاك؟

انكبت على الكتاب، وهي تكاد لا تقدر على الكلام من غزارة الدموع، وقالت صائحة:

- إنني.. لا أستطيع.. أن أجد.. لك.. عروسا.. مخيفة.

هززت كتفي مستغربا، وعدت للجلوس لمتابعة قراءة كتاب الثورة، مستغرقا في القراءة. هدوء.. نظرت حولي مستطلعا.

كانت ليديا، ولم تجف عيناها من الدموع، تمسك بمفتاح باب أمام عينها، وتنظر إليّ من خلال فتحته، وكانت كلما أبعدت المفتاح، رأتني كاملا، وكلما قربته إلى عينها، رأت جزءا مني.

انسلت من خلف الأريكة متأوهة، ومقتربة مني وراحت تنظر من خلال المفتاح من مسافة فيرشوك[1] من ظهري.

وكانت تلمع في عينيها دهشة غير مصطنعة وفضول نحو أحجية الطبيعة العصية على الحل.

١- وحدة قياس طول روسية تساوي ٤. ٤ سم.

قالوش[1] دوبلس المفقود

كنا نجلس في شقتنا المريحة في شارع بيكر – ستريت عندما كانت، عاصفة تدوي، والمطر يتساقط غزيرا خلف النافذة.(من المدهش أنني عندما أقص شيئا عن هولمز، فإن الأمر لا يتم دون عواصف وأمطار...)

وهكذا، كما هي العادة، كانت عاصفة مطرية، وهولمز، كالمعتاد، كان يدخن غليونه بصمت، أما أنا، فكنت أنتظر دوري، كالعادة، كي أشعر بالدهشة من شيء ما.

- واطسن، إنني أرى، أن لديك خرّاج.

قلت دهشا:

- وكيف عرفت ذلك؟
- عليك أن تكون غبيا، حتى لا تلاحظ ذلك! فخدك متورم وشُدّ بمنديل.
- يا للدهشة!! يا لدقة الملاحظة!

أخذ هولمز «بشكيرا» وربطه بيديه المعروقتين على رقبته بعقدة رخوة. بعد ذلك استخرج «كمانه» وراح يعزف «فالسا» لشوبين، و«كونتورن» نوستراداموس و«بولناز» فاسكو دي غاما.

عندما أنهى السيموفونية التاسعة والثلاثين ليوليا هنريخ تسيميرمان، اندفع رجل غريب يرتدي معطفا مطريا ملطخا بالأوساخ، داخل الغرفة.

١- القالوش: خف مطاطي أو جلدي ينتعل فوق الحذاء لحمايته من الوحل أو الماء.

قال الرجل وقد ترقرقت الدموع في عينيه:

- يا سيد هولمز! إنني جون بينهام... ساعدني بحق الرب! لقد سلبوني... سلبوني... آه! كم هو صعب تذكر ذلك...

قال هولمز بدم بارد:

- أعرف، لقد سرقوا منك أشياء عائلية ثمينة.

مسح بينهام دموعه براحة يده، وصوب نظرة دهشة نحو شارلوك.

- ماذا قلت؟ عائلية؟ لقد سرقوا مني أشعاري.

- لقد خطر ببالي ذلك. أخبرني بحيثيات الموضوع بالتفصيل.

- أية تفاصيل! الأمر بكل بساطة، أنني كنت أسير في جادة ترافالغار، وكنت أحملها، أعني أشعاري، تحت إبطي، أما هو فقد اختطفها وهرب. تبعته، قفزت عليه وأمسكت بقالوشه. هرب اللص، وها هو قالوشه معي.

تناول هولمز القالوش من يد الرجل الممدودة، تفحصه بعينيه، شمشمه، دس لسانه في داخله، وأخيراً، قضم جزءاً منه، مضغه بصعوبة وابتلعه. قال فرحا:

- الآن فهمت!

قفزنا من مقاعدنا دهشة.

كنت قد اعتدت مثل هذه الاستنتاجات العبقرية، التي لم يكن هولمز يعيرها اهتماما، بكل تواضع، لكن مثل هذه الاختراقات لجوهر الأشياء تركت تأثيرا مخيفا على الضيف.

- سامحني يا رب! هذا شيء من السحر!

سأل هولمز:

- هل تعرف من كان ذاك؟ هذا رجل، يتكلم الإنجليزية، يعيش

حاليا في لندن. ويقرض الشعر.

ضربت كفا بكف.

- هولمز! أنت شيطان حقيقي. من أين عرفت كل هذا؟

ابتسم هولمز بتعال:

- إنني أعرف أكثر من ذلك. يمكنني التأكيد على أن السارق رجل من دون شك!

- أي عقعق جلبها لك على ذيله؟

- هل لفت انتباهك أن القالوش رجالي؟ من الواضح أن النساء لا يحملن مثل هذه القواليش.

لقد سحقني منطق صديقي المشهور، وجعلني أمشي طوال اليوم مسطولا.

جلس هولمز يومين كاملين على الأريكة، مدخنا الغليون وعازفا على الكمان.

كان يجلس وسط سحب الدخان مثل إله، مؤديا معزوفاته على الكمان.

وما أن أنهى مرثاة نيوتن، حتى راح يعزف مقطوعة مايكل أنجلو، وعند منتصف حلية الموسيقار الإنجليزي الرائعة تلك، توجه نحوي قائلا:

- والآن، جهز نفسك يا واطسن! يبدو أنني تلمست رأس خيط هذه الجريمة الأحجية.

ارتدينا ثيابنا وخرجنا.

كنت أعرف، أنه من العبث توجيه الأسئلة إلى هولمز، إلا أنني انتبهت للبيت الذي اقتربنا منه، وكان ذلك مبنى صحيفة «التايمز».

عبرنا مباشرة إلى رئيس التحرير. قال هولمز، زاما شفتيه بثقة تامة:

- سيدي. إذا جاءك رجل حاملا أشعارا، ومنتعلا فردة قالوش، أوقفه وأخبرني.

ضـربت أنا كفا بكف.

- يا إلهي كيف حدث هذا، هكذا بكل بساطة وعبقرية.

وبعد «التايمز» ذهبنا إلى رئاسة تحرير «ديلي-نيوز» , «بيل-ميل»، وغيرها من الصحف. وجميعهم تلقوا نفس التحذيرات.

بعدها صـرنا ننتظر.

كان الجو لطيفا طول الوقت، ومع ذلك لم يحضـر إلينا أحد. لكن، في أحد الأيـام، وقد كانت عاصفـة تهب، والمطر ينهمر بغـزارة، اندفع إلى غرفتنا رجل غريب صاخبا وهو ملطخ بالأوساخ، قال بصوت أجش:

- هولمز. أنا دوبلس. إذا ما استطعت أن تجد لي قالوشـي الذي أضعته في جادة ترافالغار، سأجعلك غنيا. على فكرة، ابحث أيضا عن صاحب هذه الأشـعار السخيفة، فبسبب قراءتي لهذا الهراء، فقدت قدرتي على احتساء ويسكي المساء.

تمتم هولمز، محاولا رمي ذلك الحقير على الأرض:

- حسنا، نحن نعرف هذه الأشـياء، من فضلك.

لكن دوبلس قذف المخطوط بوجه شارلوك، ثم انطلق إلى الباب مثل شهاب، وانزلق على الدرج واختفى.

لقد وجدنا فردة القالوش الثانية بعد ذلك في مدخل الشقة.

*****

كان بإمكانـي أن أتحـدث كثيرا عن مصـير الشـاعر بينهام، وأشـعاره وزوج القواليش، لكن، وبما أنه تدخلت قدرات عليا، فإن هذا لن يكون مناسبا.

لقد كشف هولمز العديد من الجرائم عدا هذه الجريمة، وقد تكون مشوقة أكثـر، إلا أنني تحدثـت عن «قالوش دوبلـس المفقـود» كقصـة، نموذجية من قصص شارلوك؟

جريمتا السيد فوبياغين

- السيد فوبياغين! أنت متهم بأنك في السابع عشر من تموز من هذا العام، تلصصت على نساء يسبحن، متخفيا في الأجمة... هل تعترف بذنبك؟

- ماذا أقول؟ أعترف! لكن لدي ظروف مخففة للذنب...

- أها... هكذا! أخبرنا، إذاً، كيف حصل ذلك؟

- في السابع عشر من تموز، خرجت، في الصباح الباكر، من البيت حاملا بندقية الصيد، وبعد تجوال غير مثمر حتى الظهر، قرّرت التوجه إلى النهر. ولأنني شعرت بالتعب، اخترت مكانا صغيرا معتما، جلست فيه، وأخرجت من حقيبتي شرائح شحم الخنزير والكونياك ورحت أحتسي منه.. استدرت برأسي إلى الماء يائسا. نظرت، فإذا بثلاث نساء يستحممن عند الشاطئ الآخر. وبسبب الملل(لاحظ سيدي القاضي، أنني كنت أتناول فطوري في تلك اللحظة!) رحت أراقبهن.

- إن تناولك للفطور في تلك اللحظة، لا يخفف من ذنبك!.. لكن أخبرني... هل كنّ بلباس البحر؟

- إحداهن كانت ترتدي لباس البحر، أما الأخريان فلا. وأنا، سيدي القاضي، كنت أراقب إحداهن، وبالتحديد تلك التي كانت ترتدي لباس البحر. يمكن لذلك أن يخفف من ذنبي. لكنها كانت رائعة، لدرجة كان من الصعب إبعاد النظر عنها...

تحمس السيد فوبياغين وراح يحرك يديه.

- تصور بنفسك: المرأة شابة، في الرابعة والعشرين، شقراء، جلدها أبيض مثل الحليب، هيفاء، ممشوقة القوام، بغض النظر عن أنها كانت بدون حاملات الصدر!... كان لباس البحر يجعل قوامها الطري بارزاً بدقة، وكذلك استدارة فخذيها اللينين، كما أنه أبرز بياض ساقيها المكتنزين الجميلين، وركبتيها الورديتين مثل بتلات الجوري، وغمازيها المدهشين، بلونهما القاتم...

تنحنح القاضي وقاطعه مرتبكا:

- ما هذا الذي تتحدث به... إنه لأمر عجيب، في الحقيقة..

أشرق وجه السيد فوبياغين بالانتشاء.

- كانت يداها مستديرتين، طريتين. إنهما حيتان بيضاوان مثل الثلج. أما الصدر، قد يجده بعضهم، على ما يبدو، أكبر قليلا مما ينبغي لامرأة فاتنة، لكن، أؤكد لكم، إنها كانت رائعة الجمال، لا يشوب شكلها أي عيب...

كان القاضي يستمع، مغمضاً عينيه نصف إغماضة، بعدئذ استيقظ، وحرك رأسه بحركة تنم عن فقدان الصبر، أقطب حاجبيه، ثم قال:

- إلا أنه كان هناك نسوة و... بغير لباس البحر؟

- كانتا اثنتين، سيدي القاضي! إحداهن كانت سمراء، سوداء الشعر، نحيلة القوام، إلا أن قدّها كان مشدودا، لكنها – ليست كما ينبغي! بالتأكيد ليست كما ينبغي... أما الأخرى– فكانت فتاة أكثر من جيدة، في الثامنة عشرة...

قال القاضي بقسوة، منحنيا بجسده إلى الأمام:

- أها! هكذا إذا! ماذا تخبرنا عنها؟.. كيف توصلت إلى أنها فتاة،

وأنها بذاك العمر بالتحديد.؟

- الشكل الشاب، سيدي القاضي، لم يصل إلى نموه الكامل. صدرها كان عذريا- ضئيلا، فخذاها لم يكونا كبيرين، كما هن لدى الشقراء، يداها كانتا نحيلتين، وضحكاتها، عندما كانت تضحك، كانت تبدو بريئة، وفتية...

ضجت القاعة بضحك الجمهور. قال القاضي:

- اصمت يا سيد فوبياغين! ما هذا الذي تتحدث به أمامي؟ القاضي لا يحتاج إلى سماع هذه الأشياء.. على أي حال، فإن وعيك التام، وعدم توفر نية الإجرام المسبقة لديك، ينقذانك من الغرامة المحتمة. انصرف!

استدار فوبياغين وسار باتجاه المخرج. أوقفه القاضي فجأة، سأله وهو يدون شيئا ما:

- سؤال آخر، أين يقع ذاك... المكان؟

- على مسافة فرسخين من شاليهات سوتوغين، قرب الحرش. عليك عبور الجسر، سيدي القاضي، ثم تمر من أمام الشجرة الميتة، التي تبدأ من عندها طريق ترابية تتجه نحو الشاطئ، وهناك على الشاطئ توجد شجيرات طويلة مريحة...

قال القاضي بعصبية:

- لماذا مريحة؟ ماذا تقصد بمريحة؟

غمز فوبياغين القاضي بطرف عينه، وا نحنى بكل احترام، ثم اختفى، متهاديا بمشيته.

عيد الفصح لدى عائلة كينديكوف

الساعة الحادية عشرة. الصباح صقيعي، لكن داخل الغرفة دفء. الموقد يزمجر صاخباً، قاذفاً، بين الفينة والأخرى، حزماً كاملة من الشرر على الصفيحة الحديدية المثبتة على الأرض لهذه الغاية. البريق غير الثابت للنار يتراكض على ورق الجدران اللازوردي بحريّة.

كان أبناء كينديكوف الأربعة في مزاج احتفاليّ خاص. وقد بدا كما لو أن العيد نشّى الأطفال الأربعة، الذين جلسوا بهدوء، خائفين من إصدار أي حركة، محشورين بثياب وأطقم جديدة، مغتسلين جيدا، ومسرحي الشعر.

يغوركا[1]، ابن الثامنة، جلس على مقعد قرب بوابة الموقد المفتوحة، وها هو منذ نصف ساعة ينظر إلى النار، دون أن يرفّ له جفن.

وقد تأثّرت روحه تأثّرا رقيقاً: في الغرفة دفء، الحذاء الجديد يصدر صريفاً أفضل من أي موسيقى، كما أنه ستُقدّم على الغداء فطائر اللحمة، وخنوص مشوي، وجلي (هليون).

ما أجمل العيش لولا وجود فلودكا[2]. إن هذا الفلودكا بصراحة – لطخة قاتمة في وجود يغوركا الهانئ.

لكن فلودكا، التلميذ، ابن الثانية عشرة، لم يكن ليهتم بأخيه الوديع، ذي الطبع السوداوي. فلودكا أيضا شعر بالعيد، وقد أشرقت روحه.

١- تصغير لاسم يغور.
٢- تصغير لاسم فولوديا.

جلس منذ وقت طويل قرب النافذة، التي زيّن الصقيع زجاجها بزخارف لا أجمل ولا أبدع، وراح يقرأ كتاباً ذا غلاف مهلهل، يحمل عنوان: «أبناء القبطان غرانت». فكّر فولوديا وهو يقلّب الصفحات مستغرقاً بالقراءة، ناظراً بقلب وجلٍ: ترى، هل بقي الكثير حتى النهاية؟ هكذا ينظر السكّير المحترف بأسف إلى النور المنبعث من القطرات المنعشة على دورق الخمر.

بالتأكيد سيقوم فولوديا باستراحة بعد أن يبتلع فصلا آخر من الكتاب: يتحسس الحزام الجلدي اللمّاع، الذي ثبت على بلوزته المدرسية الجديدة، ويمتّع بصرة بالثنيات الجديدة على سرواله، وللمرة المائة سيقرّر، أنه لا يوجد إنسان على وجه البسيطة أجمل وأبهى منه.

أما ابنا كينديكوف الصغيران: العزيزة ميلوتشكا (لودميلا) وكاراسيك (كوستيا)، فقد اتخذا ركناً خلف الموقد، حيث كان ثوب أمهما معلقاً. كانا مثل صرصارين، ينظران من ركنهما ويتهامسان طوال الوقت. قررا كلاهما منذ الأمس الاعتزال، والعيش في بيتهما الصغير الخاص. قاما بفرش صندوق للمعكرونة بمنديل يد، ووزعا على تلك المائدة قليلا من الصحون، وُضع فيها، بشكل مرتّب: قطعتان من المرتديلا، قطعة من الجبن، وسمكة سردين واحدة، وعدد من حلوى المطعّم (الكراميل) وزيّنت بزجاجتي كالونيا: في إحداهما نبيذ «تنيسي» وفي الأخرى وردة - كل شيء كما في بيوتات زمان.

جلس كل منهما إلى المائدة ضاما رجليه، غير محوّلين بصرهما عن صنيعهما المريح الفاخر. فكرة واحدة كانت ترعب قلبيهما، ماذا لو تنبه فولوديا للمائدة التي رتباها؟ فلم يكن شيء مقدّس بالنسبة لهذا الوحش الشرير: سيغير فورا، وبحركة واحدة سيلقي في فمه المرتديلا، والجبن، والسمكة، ويطير مثل الإعصار، مخلّفاً وراءه الظلام والدمار.

همس كاراسيك:

- إنه يقرأ.

- اذهب، وقبّل يده.. عندها، ربما لن يقترب من مائدتنا. هل تذهب؟

قال بصوت مبحوح:

- اذهبي بنفسك، أنت فتاة.

كان كاراسيك يلثغ بحرف الـ«ك». كان ذلك الحرف بالنسبة له بابا مقفلا. حتى إنه يلفظ اسمه- تاراسيت. تنهض ميلوتشكا، آخذة نفساً عميقاً، وتذهب إلى أخيها المرعب، متصنّعة هيئة ربة بيت مهتمة. كانت إحدى يديه ملقاة على حافة النافذة، تنحني ميلوتشكا نحوها، نحو اليد المخشوشنة من اللعب بالثلوج، المليئة بالندب والخدوش بسبب المعارك القاسية، اليد المخيفة.. تقبلها بشفتيها الورديّتين الطريّتين، وتنظر إلى الإنسان المخيف بضعف. إن هذه الضحية المداهنة رققت قلب فولوديا. توقّف عن قراءة الكتاب وقال:

- ما بك أيتها الجميلة؟ هل أنت مسرورة؟

- مسرورة.

- نعم..نعم، هل رأيت مثل هذه الأحزمة؟

كانت الأخت غير مكترثة لمظهر الأخ المنفعل، لكنها مدحت الحزام على سبيل المداهنة:

- أوه، أي رائحة!!! إنها رائحة الجلد الحقيقي.

- نعم.. نعم، إنه كذلك.

تذهب ميلوتشكا إلى ركنها، وتستغرق مجددا في تأمل مائدتها. تأخذ نفسا عميقا.. وتنتبه مجددا إلى كاراسيك:

- قبّلت
- لن يفتعل مشكلة؟
- لا، أمّا زجاج النافذة هناك فمتجمّد جدا.
- ويغوركا، ألن يمس مائدتنا؟ اذهبي وقبّلي يده.
- أها، ماذا أيضا. هل علي أن أقبّل يد أي كان. ماذا بقي علي؟!
- وماذا لو بصق على المائدة؟
- دعه يبصق، سنمسح البصاق.
- وإذا بصق في الصحن؟
- سنمسحه. لا تخف، سآكله بنفسي، أنا لا أتقزز.

تطل الأم برأسها من الباب:

- فولودكا، جاءك ضيف!

يا إلهي، أي تغير سحري حدث في النبرة! في الأيام العادية يكون الحديث كالتالي: « ما هذا، أيها الساقط الأجرب، هل كنت تنقر القاذورات مع الدجاج؟ أين اشتغلت بالأصباغ السوداء؟ حسنا، سيعود والدك، وسأخبره: إنه سيوسعك جلدا. ابنٌ، لكن أسوأ من مشرد!»

لكن صوت أمي يصدح اليوم مثل الناي. نعم، هذا عيد حقيقي!

جاء كوليا تشيبوراخين.

كلا الرفيقان يشعران بشيء من الحرج في أجواء العيد الاحتفالية السعيدة هذه.

من الغرابة بالنسبة لفولوديا أن يرى تشيبوراخين، الذي كان حذاؤه يخفق أثناء المسير، وهو يحيّ أمه، وكيف قدّم نفسه ليغور المستغرق في التأمّل:

- اسمحوا لي بتقديم نفسي، تشيبوراخين. وأنا سعيد بلقائكم.

كـم هو ذلك غير عادي! لقد اعتاد فولوديا رؤية تشـيبوراخين في مواقف مغايرة، حتى إن سلوكه، عادة ما كان غير ذلك.

عـادة ما كان تشـيبوراخين يتصيد تلاميذ المدارس الداخلية الدّاهلين، يلكز أحدهم بفجاجة في ظهره ويسأله بقسوة:

- ماذا تصنع هنا؟

يهمس «القلم» الوديع ملتقطاً أنفاسه

- ماذا؟ لا شيء.

- تود لو تنشب أظافرك في وجهي، وتقول لا شيء؟

- إنني لم أمسسك، حتى إنني لا أعرفك.

يسأله تشـيبوراخين بغضب وبتعال، مشيرا إلى الشعار على الكسكيت البالي المسْودّ.

- قل لي: أين أدرس أنا؟

- في القسم.

- أها! في القسم! فلماذا إذا لا تخلع القبعة أمامي أيها البذيء التعس؟ هل تحتاج إلى تعليم؟

تطير قبعة التلميذ بضربة من تشـيبوراخين وتسـقط في الوحل. ينتحب التلميذ المُذل المهان بصوت عال، أما تشـيبوراخين، الذي أشبع غروره، فينسل مواصلا مسيره مثل «نمر» (هذا هو وجه المقارنة الحقيقي).

أما الآن، فهذا الصبي المخيف، المرعب أكثر من فولوديا، يحيّ بلطف وتواضع، وعندما تسأله أم فولوديا عن عائلته، وماذا يعمل والده، فإن لوْنا واضحا، حارا، ينتشر على وجنتي تشـيبوراخين الناعمتين السمراوين مثل حبتيّ برقوق.

تحدّثت معه المرأة الناضجة كما لو كان ندا لها! إنها تدعوه إلى الجلوس. أحقيقة، أن عيد الميلاد يصنع المعجزات مع الناس؟

يجلس الصبيّان قرب النافذة، ينظران إلى بعضهما بعضا، مبتسمين، مصدومين من الموقف غير العادي.

- هه، حسنا أنك حضرت. ما هي أحوالك؟
- لا باس، شكرا. وأنت ماذا تقرأ؟
- «أبناء القبطان غرانت»- إنه كتاب ممتع!
- أتعيرني إيّاه؟
- أعيره. لكن ألن يمزّقه أحد عندك؟
- لا. ماذا تقول! إنني لكمت أحدهم على سحنته بالأمس.
- وبعد؟
- أشكوك يا رب نفسي. عاقبني يا إلهي. أتدري، كنت أسير في سلوبودكا، لا ألوي على شيء، عندما هزّت قدمي طوبة على حين غرة! عندها لم أتمالك نفسي. لكنّي ندمت بعدها!
- بعد عيد الميلاد من الضروري الذهاب إلى سلوبودكا لضرب الأولاد، أليس كذلك؟
- سنذهب طبعا. لقد اشتريت مطّاطا للشعبة[1]. هل أكلت يوماً لحم(البيزون)[2]؟

ودّ فولوديا، حتى الموت، لو يقول إنه أكله. لكن ذلك لم يكن ممكنا... فكل حياة فولوديا كانت تمر أمام عيني تشيبوراخين، ومثل هذا الحادث لا يمكن أن يمر دون ملاحظة أحد في هذه البلدة الصغيرة.

- لا لم أذقه. من المؤكّد أنه لذيذ. أتود أن تصبح قرصانا؟

---

١ ـ شعبة المطاط التي يقذف بها الأولاد الحصى.
٢ ـ الثور الأمريكي.

- أود، ولا أخجل من ذلك. ما العيب في ذلك؟ القرصان أيضا إنسان مثل الآخرين. يختلف عنهم، فقط، في أن عمله هو السلب.

- مفهوم. لذلك توجد المغامرات. أول من أمس ضربت صبياً على أسنانه أيضا. ماذا في ذلك؟! وشى لعمّتي عني وأخبرها أنني أدخّن. إن المتوحّشين الأستراليّين لا يعجبونني، أتدري، إن الزنوج الأفارقة أفضل.

- البوشمان[1]! إنهم يضايقون البيض[2].

- أما في الزاوية فقد كان البوشمان يغوركا يتحرّش بـ«البيض»:

- أعطني حلوى، ميلكا، وإلا بصقت على المائدة.

- أغرب عن وجهي، وإلا أخبرت ماما.

- أعطني حلوى، وإلا بصقت.

- هيّا، ابصق. لن أعطيك.

نفّذ يغوركا تهديده، وابتعد باتجاه المدفأة غير مكترث. مسحت ميلوتشكا البصاق عن المرتديلا بواسطة فوطة صغيرة، وأعادت وضعها بشكل مرتّب في الصحن مجددا وقد بدا في عينيها طول الصبر والدعة.

إلهي، كم توجد في المنزل عناصر عدوانيّة..! وهكذا عليك العيش بالملاطفة، والرشوة، والإهانة.

تهمس لكاراسيك، شاعرة ببعض الخجل:

- إن هذا اليوغوركا يضحكني

- إنه مجنون، كما لو أن هذه الحلوى حَلواه.

١- الحفاة، قاطنو الأدغال.

٢- المقصود أهل الجنس الأبيض.

عند الغداء جاء الضيوف: تشيليبيف العامل في القارب التجاري مع زوجته، والعم أكيم سيميونيتش. جلس الجميع هادئين، يتبادلون كلمات مقتضبة، حتى حان موعد انتقالهم إلى المائدة.

خلف المائدة كانت ضجّة.

صاح تشيليبيف:

- هيه، أيتها الإشبينة، هاتي الفطائر! وزّعي على الجميع، فطيرة لكل واحد.

- ما هذا! لم أتوقع مثل هذه الفطائر، فالأفران قبيحة في هذه المدينة، لذلك أخبز ولو بطريقة بدائية.

يصيح أكيم الذي يحتقرونه بعض الشيء بسبب فقرة وخيلائه.

- والخنزير! لكن لا، هذا ليس خنزيرا، الشيطان يعلم ما هو.

- أي نعم، فكّروا: ليس كثيرا أن يدفع روبلان[1] ثمنا للخنزير الذي تشاهدونه! لقد فقدوا عقولهم هناك في البازار، تخيّلوا، الدجاجة بروبل، أما فيما يتعلق بالديك الرومي، فلا تقترب منه! لا أحد يعلم، حقيقة، ماذا سيحدث مستقبلا.

وقع حادث في نهاية الغداء: أسقطت زوجة تشيبيليف كأس نبيذ أحمر، وانسكب النبيذ على «بلوزة» فولوديا، الذي كان يجلس خلفها.

راح كينديكوف- الأب يهدّىء من روع الضيفة، أما كينديكوفا- الأم فلم تقل شيئا.. لكن كان يُرى في وجهها، أنه لو لم يحدث ذلك في بيتهم، ولو لم يكن الوقت عيداً، لانفجرت، مثل لغم أرضي، من الغضب والمهانة، لأنها قدمت معروفها هباء. وكونها امرأة مهذّبة، ومضيفة تعي معنى نبرة الكلام، فضّلت كينديكوفا الأم أن تنحى باللائمة على فولوديا ابنها:

١- الروبل: اسم العملة الروسية.

- أنت، لماذا تجلس هنا تحت الأيدي! من هؤلاء الأطفال القبيحون، إنهم مستعدّون لدفني حيّة. ما دمت قد تناولت غداءك، فانصرف. إنك تجلس مثل عضو في المجلس البلدي! لقد كبرت، ويكاد رأسك يصل إلى قبة السماء، ومع ذلك ما زلت أخبلا. إنك بارع فقط في دس أنفك في كتبك!

سرعان ما خبت بهجة العيد في عيني فولوديا، وخبا كذلك مزاجه... لقد زيّنت «بلوزته» بقع قاتمة شريرة. شعر بالمهانة، فقد لطخ كبرياؤه بالوحل في حضور أشخاص غرباء، والأمرّ من ذلك، أن ذلك حدث بحضور رفيق - تشيبوراخين، الذي سرعان ما فقد كل بريق وسحر التفرد.

رغب في النهوض والخروج، والهرب إلى أي مكان.

شيء غريب: لو لم تكن البقعة القاتمة على «البلوزة» لانتهى كل شيء إلى مشوار في الشوارع الهادئة، التي تعيش أجواء العيد.

قرّر فولوديا في نفسه: «لم أخسر شيئاً».

بالفعل، فقد قابلا ثلاثة تلاميذ من المدرسة الداخلية من طلاب الصف الثاني.

سأل فولوديا أحدهم بصوت مرعب:

- ماذا تفعل هنا؟

- ـ همس تشيبوراخين من جهته:

- أعطه ما يستحق، يا فولوديا!

رد التلميذ بشكل قاطع:

- لا شيء، أما أنت، فستتلقى سوطا الآن.

- أنا؟

وتخلل صوت فولوديا احتقار لا يمكن التعبير عنه.

- أنا؟ من سيخلّصكم مني، أيها التعساء؟

- أنت نفسك متبجح تعس.

صاح فولوديا، آه! (في كل الأحوال لم تعد «البلوزة» جديدة)، وبحركة سريعة رمى عن كتفيه المعطف ولوّح بيديه..

***

ومن زاوية الزقاق ركض أربعة تلاميذ لنجدة زميلهم

***

قال فولوديا بصوت أجش، محرّكا شفتيه بصعوبة، كما لو كانتا غريبتين، ناظرا بارتياح إلى صديقه بعين دمعة:

- ما هؤلاء! أنذال جُرب، سبعة ضد اثنين. لا، جرّب معهم حقا: اثنان مقابل اثنين.. أليس كذلك؟

- مفهوم.

وسرعان ما اختفت بقايا أجواء العيد، وحلّت مكانها مشاكل واهتمامات الأيام العاديّة.

١٩١٦

سالتيكوف – شيدرين

- المارد الجبار.
- العين اليقظة.
- اللبرالي.
- السحلب.

سالتيكوف شيدرين

(١٨٢٦ـ ١٨٨٩)

دخل ميخائيل سالتيكوف المعروف بالاسم المستعار نيقولاي سالتيكوف شيدرين تاريخ الأدب الروسي والعالمي من بوابة الأدب الساخر، الذي كان واحداً من الأدوات التي استخدمها الديمقراطيون ـ الثوريون الروس في الصراع ضد النظام القيصري وجهازه البوليسي ـ البيروقراطي، من أجل غرس الحقد والكراهية تجاه ممارسات الظلم والاسترقاق في نفوس أبناء الشعب.

مع أنه ولد في أسرة إقطاعية، فقد ذاق مرارة الجوع والحرمان منذ نعومة أظفاره. أنهى سالتيكوف معهد النبلاء في موسكو بامتياز، ثم انتسب إلى المدرسة القيصرية، التي تخرج منها بوشكين.

أصدر سالتيكوف في عام ١٨٤٨ قصته الطويلة «مسألة عويصة»، المفعمة بالنقد اللاذع للنظام الاجتماعي القائم، وبالتعاطف مع المُذَلين المهانين. كما شارك الشاعر نيكراسوف رئاسة تحرير مجلة «النشرات الوطنية» ونشر فيها روايته الساخرة «قصة إحدى المدن» (١٨٦٩ـ١٨٧٠)

تعدّ رواية سالتيكوف «السادة آل غولوفيوف» من أوسع مؤلفاته شهرة. وقد وقفها لموضوع الضيعة الإقطاعية، وهو الموضوع الذي تناوله كثير من الأدباء الروس. يصور في هذه الرواية حياة الأسرة الإقطاعية في روسيا قبل إصلاحات عام ١٨٦١ وبعدها، ويرصد مسيرة هذه الأسرة الحتمية نحو التدهور والزوال، مؤكداً أن ما حاق بها شيء بدهي وموضوعي.

إضافة إلى القصة القصيرة والطويلة والرواية، كتب شيدرين الكثير من الحكايات الشعبية التي يربو عددها على الثلاثين، وكلها ذات نَفَس ديمقراطي-ثوري، وتعالج الموضوعات التي يتناولها في أعماله القصصية والروائية الأخرى.

توفي في سان بطرسبورغ مخلفاً موروثاً لا يزال يشغل واحدة من المراتب الأولى في الأدب العالمي، وترقى مؤلفاته الساخرة إلى مصاف عيون هذا الأدب وروائعه.

المارد الجبار

ولد مارد جبّار في إحدى الممالك. ولدته ساحرة شريرة، ورعته بالطعام والشراب والدلال، ولمّا كبر وأصبح عملاقا، رحلت هي إلى الصحراء طلبا للراحة، وأطلقته ليتجول، كما يقال، في الاتجاهات الأربعة. قالت: اذهب، أيها المارد الجبار، وحقق بطولاتك.

أول ما قام به المارد الجبار، بالطبع، هو الاندفاع نحو الغابة: شاهد شجرة بلّوط شامخة، اجتثها من جذورها، رأى شجرة أخرى، قصمها إلى نصفين بضربة من قبضته، وشاهد ثالثة، فيها تجويف، اندسّ فيه، وراح في إغفاءة.

وهكذا كان – أصدرت أُمُّنا السنديانة الخضراء أنينا من شدة غطيطه المتقطّع. هاجت الوحوش الضواري وهربت من الغابة، وأجفلت الطيور وطارت في السماء، حتى عفريت الغابة ذاته ضم عفريتته وعفاريته الصغار إلى حضنه خوفا عليهم.

انتشرت أمجاد المارد في كل الأرض. لا أهله، ولا الغرباء، ولا الأغيار، ولا الأعداء استهجنوا منه ذلك: أهله يخافون بشكل عام، لأنهم إذا لم يخافوا، فبأي صورة سيعيشون؟ إضافة إلى ذلك، هناك أمل: فالمارد لم يندسّ في التجويف إلا من أجل أن يستجمع قوة أكبر في نومه: «نعم، سيستيقظ ماردنا ويعيد أمجادنا أمام العالم أجمع». الغرباء، بدورهم، كانوا يخشونه. ما أن يسمعوا أي صرير يسري في الأرض حتى يقولوا: أتراه مارد ولد في تلك الأرض! نخشى أن لا ينذرنا عندما يستيقظ!

كانوا جميعا يحومون حوله على رؤوس أصابعهم ويردّدون همسا: نم، أيها المارد، نم!

مرت مائة عام، تلتها مائتان، وثلاثمائة، وفجأة، ألف عام كاملة. كان الحلزون يسير ويسير، نعم، وفي النهاية وصل. والطائر الأزرق بقي يتبجح ويتبجح، لكنه في الحقيقة لم يشعل البحر. وظلّوا يطبخون الفلاح ويطبخونه، لكنه لم ينضج: أوه منك، أيها الفلاح!

اقترفوا كلَّ شيء، وقضوا على كل شيء. سرقوا بعضهم بعضا – كفى! أما المارد فبقي نائما ينظر من جوف السنديانة إلى الشمس مباشرة بعينين مطفأتين، وغطيطه المتقطع ملأ المدى المحيط إلى مسافة مائة فرسخ[1].

تأمل الأعداء طويلا، وفكّروا طويلا: لا بد أن تكون البلاد التي يخاف أهلها المارد الجبّار، حتى وهو نائم في جوف السنديانة، عظيمة!

لكنهم بداؤا يرخون لعقلهم العنان قليلا..قليلا: بداؤا يذكرون، كم مرّة انثالت على البلاد المذكورة المصائب الشداد، ولم يهب المارد الجبّار لمساعدة الناس الضعفاء.

وفي سنة من السنين تشاجر الناس فيما بينهم، وقتل خلق كثير عبثا. ولول كبار السن بحرقة، وبحرقة استغاثوا: احضر إلينا، أيها المارد الجبّار، وحاكم زمننا القاتم. أما هو، فعوضا عن أن يفعل ذلك، بقي غافيا في جوف السنديانة. في سنة مثلها احترقت الحقول من الشمس، وتلفت من البرد. فكروا: سيأتي المارد، وسيطعم الناس الضعفاء حتى الشبع. أما هو، فبدل ذلك، بقي مسترخيا داخل الشجرة. وفي سنة أخرى أحرقت النيران المدن والقرى، ولم يبق لدى الناس المساكين مأوى أو لباس، أو طعام. فكّروا: سيأتي المارد وسيوفِّر الاحتياجات المعيشية – أما هو فبقي نائما في التجويف.

١- وحدة قياس طول روسية تساوي ١٠٦٨م.

باختصار، فقد عانت تلك البلاد من كل الأمراض خلال الألف عام، ولم يحرِّك المارد أذنه ولو مرة، ولم يرمش بطرف عين، كي يعرف مما تصدر الأرض أنيننا من حوله.

أي مارد هذا؟

كان لدى أهل تلك البلاد التي عانت كثيرا، وصبرت كثيرا، إيمان لا يطاله الوهن. كانوا يبكون- ويظلون على إيمانهم، يتنفسون الصعداء- ويبقون مؤمنين. آمنوا بأنه عندما ينضب الدمع، وتنضب الأنفاس، فإن المارد سيختار اللحظة المناسبة لينقذها. وهذه هي اللحظة المناسبة قد هلّت، لكنها ليست نفسها التي كانوا ينتظرونها. انتفض الأعداء وطوقوا البلاد، التي كان العملاق ينام فيها في جوف الشجرة. ذهبوا جميعاً إلى المارد مباشرة. اقترب أحدهم بحذر نحو التجويف - عفن، اقترب آخر - عفن. قال الأعداء: «إذا المارد متعفن!» وانقضّوا على البلاد.

كان الأعداء قساة لا يرحمون. قطّعوا، وحرّقوا كل شيء في طريقهم، منتقمين بذلك من الخوف المضحك، الذي أنزله المارد في نفوسهم قرون عديدة. اضطرب الناس وهم يمرون بلحظات لا توصف في قسوتها. اندفعوا لملاقاة الأعداء، نظروا، لا شيء لديهم يلاقونهم به.

وتذكروا حينها المارد الجبار، وراحوا ينشدون بصوت واحد:

«أغثنا، أيها المارد الجبار، أغثنا».

عندها حدثت المعجزة: لم يحرك المارد ساكنا. وكما كان منذ ألف عام، كانت رأسه تنظر بعينين مطفأتين نحو الشمس، لكنها لم تعد تصدر ذاك الغطيط العظيم، الذي كانت ترتجف منه أمنا السنديانة الخضراء في تلك اللحظة، اقترب إيفانوشكا المجنون من المارد الجبار، وحطّم بضربة من قبضته التجويف- نظر فإذا بأفاعي الكوبرا السّامة قد أكلت جسد المارد الجبار حتى رقبته.

العين اليقضة

عــاش في قديـم الزمان في إحدى الممالك أو إحــدى الدول، محقق، وكـانت لــه عينان: واحدة غير يـقظـة، والأخرى يـقظـة. بالتأكـيــد، فهو لم يـكـن يرى بالعين غير اليقظة، أما بالعين اليقظة، فكان يرى توافه الأمور.

و كـان في هــذه المملكــة، عُـرْف قديــم، مــا إن يولد لــدى أحدهم طفل بعينــين، واحــدة يقظة وأخــرى غير يقظــة، فإنــه يُـكـتـب في القصص التي تتحدّث عن المحققين: لقد ولد لدى المواطن كوراليس بروكازنيكوف[1]، في (بالوتو)، طفل اسمه بروكورور. ثم ينتظرون، حتى يبلغ الولد رشده.

وهذا ما حدث هنا. فما إن كبر الولد قليلا، حتى أعلموه في اللحظة ذاتها:

- تفضّل!
- بكل ســرور. لكن، هل يبــدو،، في المدى المنظور، وجود شـاغر في المجلس التشـريعي (السنات)؟
- أوه، يا له من أمر قريب! كأننا به أمامنا الآن.
- نعم، نعم، إنني أراه كذلك بالضبط.

شــد الولــد قامتــه، نظــر إلى نفســه في المــرآة، ورأى: أي مخاتــل ينظر من هناك؟ لكن لم يكن الشــخص في المرآة سواه نفسه. لا بأس. قام إلى عمله في الحال، دون أن يتفوّه بكلمة سوء. بالعين غير اليقظة لا يرى شيئا، وبالعين اليقظــة يرى توافه الأمور. قال: «إنني هنا للحظة، إنني في طريقي إلى الســنات، هناك، سأغمض كلتا عيني. أما أذناي، أعنّي إلهي كي تصابا بالصمم.

1- يستخدم الكاتب في هذه القصة أسلوب التلاعب بالألفاظ. فاسم بروكورور-تعني المحقق، وبروكازنيكوف- من الآمر. وكوراليسيتش- من كورال- الجوقة. وبولوتو- هو المستنقع. وزافيتايف- من العهد.

رأى المرتشون، والأفّاقون، والقتلة، والمختلسون الجشعون، واللصوص الولد ينظر إليهم بعينه اليقظة، ارتعبوا من توّهم. فكّروا كيف سيكون الأمر. وقرروا أن يبتعدوا عن العين اليقظة ويتواروا تحت رموش العين غير اليقظة. أصبح الوضع أمام العين اليقظة صافياً، كما لو أنه لم يوجد في يوم من الأيام مرتشون، وأفاقون، وقتلة، ولصوص. كان هناك، فقط، كذّابون عاديون، وسفلة، وخونة، وعملاء، ومدّعون لا شأن للمحقق، حقيقة، بهم. وكان الولد لا يرى بعينه اليقظة سوى آفاقٍ صافية مفتوحة، فيشعر بالارتياح. فكّر: من غير الممكن ألا تأخذ الإدارة جَدّه بعين الاعتبار؟

وانطلق على أرض الإدارة القضائية يسير الهوينى، بكبرياء. يمشي ويصفر: حذار، إنني أغرق في شبر ماء!

لم ير سوى رجلٍ واقف يصيح بأعلى صوته: «نشلوني! يا ناس، يا دركـ!»

توجه إلى الرجل الذي سرق:

- ماذا دهاك أيها الرجل؟ لقد ملأت الشارع صراخا.ها أنا ذا.

- ارحمني، يا بروكورور كوراليسيتش، لصوص!

- أين هم اللصوص؟ أي لصوص؟ أنت تكذب. لا يوجد لصوص، ولم يكونوا موجودين أبدا (وكان اللصوص قد اختفوا تحت أنفه من ناحية العين غير اليقظة)! إنكم تريدون، أيها البطّالون، أن تضعوا العراقيل أمام الإدارة بشكاواكم التي لا تستحقّ الاهتمام.. اعتقلوه!

يسير قُدما، يتناهى إلى سمعه: راشون، يا بروكورور كوراليسيتش، يقدّمون لي الرشوة. مرتشون! مبتزون! مدّعون! الزناة!

- أين المرتشون؟ أي مبتزّين؟ إنني لا أرى أي مرتش! أنتم تتعمدون الصراخ بهذه الأكاذيب، كي تشوهوا سمعتنا.. اعتقلوه!

يســير قُدما. يتناهى إلى سمعه: إنهـم ينهبون أملاك الخزينة والمجتمع! ما بك تحدّق يا بروكورور كوراليسـيتش! أولاء هم المختلسون الجشعون، انظر!

- أين هم المختلسون؟ من يسـرق أملاك الخزينة؟

- أولاء هـم المختلسـون! أولاء هـم! انظـر إلى لبـاس الدومينـو، الـذي يرتديه ذاك منتفشـا بالأموال المســروقة! أما ذاك – آه، كم من ألوف الهكتارات سـرق من أملاك الخزينة!

- إنـك تكـذب، أيها البطّال! هؤلاء ليسـوا مختلسـين، بل ملاّك. إنهم يديـرون أملاكهـم الخاصـة بهـدوء، ولديهـم الوثائـق مكشـوفة للناظرين. إنكم تتعمدون، أيهـا البطّالون، الضجيج كي تقوضوا مبدأ الملكية! اعتقلوه!

وقُدمـا يسـمع المزيـد: «الزوجـة تذبـح حيـاة زوجهـا مـن الصبـاح إلى المسـاء»، «انظر إلى الزوج، إنه يثبّت غطاء التابوت عليها بالمسـامير وهي حيّة»، ألا يشد نظرك شـيء يا بروكورور كوراليسـيتش؟

- أأنـا لا أرى؟ أتـرى أي عـين لدي؟ إنهـا عين واحدة، لكن لـو تدري إلى أي مـدى أنـا أرى بها! إنني أسـتطيع أن أفهـم ما يـدور في خلدك حتى مـن خلال حجاب، أيها البطّـال! أنا أعرف ما تريدونه أيها الفاسـدون؟ إنكم تريدون أن تقوّضوا أسس العلاقات الزوجية! اعتقلوه.

باختصـار، فقـد عاين جميع الاتحادات، ووجدها قائمة بشـكل راسـخ في كل مـكان، لكنّ كثـيري الصخـب، لا يدهنون أفواههـم، حتما، بعد أن يقـدّم لهـم الشـراب[1]. وعندما اقـترب الولد من اتحاد حكومـي، توقّف عن الكلام. صاح وقد أشـرق ذهنه: امسـكوه! امسـكوه! أغلقوا عليه بالطوب، سدّوا كل المنافذ! كان يصيح وعينه اليقظة تتحرك في محجرها بشكل دائري.

[1] - في العادات الروسية، عندما يشربون الكحول، يأكلون شيئا من الشحم أو ما شابه.

كان الولد يتجوّل طوال النهار، يحمي الاتحادات، وعند المساء يعود لمنزله ليستريح. يستلقي على السرير ويفكّر: لقد نفّذت كل شيء كما ترغب بذلك الإدارة. لقد شتت جميع المختلسين الجشعين، والمرتشين، وقطّاع الطرق، والفاسدين بواسطة عيني الوحيدة، أما أولئك الهدّامون، الذين يزعجون الإدارة بشكاواهم الفارغة، فقد تصرفت معهم كما يجب، بشهامة خالصة. وآمل أن تقدّر الإدارة من جهتها أعمالي بما يتناسب معها.

قال لنفسه: «تذكّر، ماذا تتمنى لنفسك؟ هل تريد الوصول إلى– السنات– فأنا أسمع بأذن واحدة، نعم، السنات لن يفلت مني..لو لم يحصل ذلك الآن، إلا أنه سيتحقق مع الزمن – لو أنه في.. لا، سيكون ذلك بعد فقداني حاسة الذوق! لا، إنه سيتحقق الآن، في القريب العاجل، ماذا ينقصني أن أتمنّى؟»

استفزّ خياله، نعم، وفي النهاية خرج بنتيجة: « يجب أن أتزوّج بأقرب ما يمكن– هذا هو المطلوب!»

وهكذا، فما إن أطلق عينه اليقظة للبحث عن عروس، حتى وجدها، وكانت بالتحديد، العذراء أجريبينا ذات الجمال، الذي لم تعرفه حكاية، ولا وصفه قلم. ولديها مائتا ألف، تماما كما يحدث مع «بطاقة القرض الداخلي» عندما تربح.

تزوج. احتفلا بزواجهما المجيد في مطعم زافيتايف الصغير، ثم انتقلا إلى البيت الجديد. تلفّت الولد، فإذا العروس قد توارت عن عينه اليقظة، صاح من توّه: أين أنت، يا أجريبينا؟

- أنا لست أجريبينا، لكني أجافيا. ويوم مولدي هو الخامس من شباط.

أي نكتة هذه؟ شحب وجهه من شدة الخوف: أتراه الشيطان تدخّل في سير عمله في الخدمة؟

تمتم قائلا: اظهري.. يا أجافيا!

نظـر: لدى أجافيا عين غير يـقظة كـمـا هي لديه، أما الأخرى فكـانت يـقظة. الاختـلاف كـان في أن عينهـا اليقظـة هـي اليمنـى، أما عنـده، فقد كـانت اليســرى. إنـه القــدر نفســه الذي حـدد لهمـا أن يخوضـا الخدمـة التحقيقيّة بشكل مشترك.

- ألديك مهر؟
- ولا مهر لدي. كل ما أملك هو عين يـقظة وحسب.

وراح يحدّث نفسـه: «آه، إلى الجحيم! كـانـت أجريبينا، وفجأة تحوّلت إلى أجافيا! كيف حصل ذلك؟ اتضح أن ذلك حدث بكل بساطة، إذ أنه كـان قد صـوّب عينه اليقظة ناحية خطيبته، إلا أن أجريبينا اختفت للحظة، وكـان أن تزوّجت ضابطاً. أما هو فقد تزوّج.. أجافيا!

ليس بالإمكان عمل شــيء. المال لم يقدّم لصاحب مطعم زافيتايف عبثا – يجب أن يحيا كيفما كـان. استلقيا على الفراش للنوم، وبلا تردد أو حذر، نظـر أحدهما إلى الآخر بعينه المبصـرة _ يا للهول! لقد أصيب بالرعب، أما هي، فقد كـان الأمر بالنسبة لها كـالماء بالنسبة للإوزّة!

سألها:

- هل أنت ساحرة؟ أخبريني!
- لا، لسـت سـاحرة، لكـنـي زوجتـك الشــرعية. وكـنت حتـى هذه اللحظة أتاجر بالجوارب القديمة المسـروقة في سوق أبراكسـين.
- كيف «المسـروقة»؟ كيف لم أمسك بك؟
- وهـل يمكـنـك أصلا أن تمسـك أحداً؟ إنـك تصوّب عينـك في جهة واحدة، أما ما يدور تحت رموش عينك اليسـرى، فأنت لا تراه.
- إذاً، مـا دام الأمـر كذلـك، دعينـا نصطاد اللصـوص معا. أنـا – من اليمين، وأنت من الشمـال.

باختصار، فقد رتبا أمورهما بشـكل ممتاز، وولد لهما طفل بعد عام، وكان بعين يقظة وحيدة.

هتف الوالد وهو ينظر إلى وليده الأول:

- يا للغرابة، إنها معجزة!

الآن، فقـط، عرف كم هي العين اليقظة ثمينة، وأن العينين الطبيعيّتين أثــمن.

على أي حال، استمرّت خدمته في التجوال. وبشكل تدريجي، ملأ السجون بالثرثارين، والطفيليين، والمرتشين، والمستثمرين وأشباههم من المخربين الحقيقيين، الذين كانوا يتنعّمون تحت رموش عينه الكسلى.

زمن طويل، أم قصير، لا فرق، مضى، قبل أن يضعف سمعه. حتى عينه اليقظة، أصبحت تغمض تدريجيا. «حان الوقت، إذاً، للإسراع نحو السنات، وإلا فإنني سأفقد حاسة الشم»

يسمعهم.. ينادون!

ارتدى كنزة الفانيلا، وجوارب الصوف ودسّ قدميه في جزمته المهملة، وحشا أذنيه بالقطن، ودهن نفسه بزيت الكافور، والتف بالفراء. أما أجافيا، فقد عقدت فوق الفراء شالا صوفياً. ذهب إلى السنات. سار وهو يفكّر: أي حلم سيراه في أول جلسة في المجلس.؟

لكن حدث أمر غير متوقع على الإطلاق. فقد صوّب عينه اليقظة، طوال الوقت، نحو اليمين ـ أما السنات فكان إلى الشمال، ولم تشاهده العين غير اليقظة. بحث بروكورور كوراليسيتش، مد أنفه في الهواء، حرّك لسانه، تحسس بيديّه فيما حوله – لكنه لم يتمكّن من أن يلمس السنات.

في النهاية شاهد شرطي حراسة نشط يؤدّي نوبته الوظيفية، توجّه نحوه، سأله: أيها الموظف، ألا تعرف أين اختفى السنات؟

نظر إليه الشرطي، وعرف في الحال «العين اليقظة»، قال:

- أعرف، ذاك هو السنات! إنه يلعب تحت الشمس! إنه يراقب، أي هازل لم يعتد على القانون.. آه منك آه! لكن السنات ليس لكل من يحب الجلوس فيه. لقد نظرت أنت في الكتاب بعينك اليقظة، ورأيت لسانا ممدوداً في وجهك، فمثلكم لا يجوز جلوسهم في هذه الأماكن. من الأفضل لك أن تغرب بوجهك، وأن تعود إلى البيت، أيها الرجل المعتوه. اخلع حذاءك، أفرك عينيك، نظّف أذنيك، واستلق مع امرأتك فوق المدفأة ونم!.. أما نحن، فلدينا في هذا المكان العرف التالي: إن الرأس والأعضاء الأخرى يجب أن تكون مكانها جميعا، أما العيون والآذان فيجب أن تكون على اتساعها لدى الجميع!

وهكذا لم يصل بروكورور كوراليسيتش إلى السنات.

الليبرالي

عاش في زمان ما، في بلد ما، شخص ليبرالي، وأي شخص صريح كان! ما إن يتفوه أحدهم بكلمة، حتى يطلق صرخة ملء فيه: «آه، أيها السادة! ماذا تصنعون! إنكم تخربون على أنفسكم!» ولم يكن أحد يعتب عليه بسبب هذا الكلام، بل على العكس من ذلك، كان الجميع يقولون: «دعوه يحذّر - إن في ذلك مصلحة لنا!»

كان يقول: «ثلاثة عوامل يجب أن تشكل أساس كل مجتمع: الحرية، الرفاه، المبادرة. وإذا ما حرم المجتمع من الحرية، فإن ذلك يعني أنه يعيش دون مثل عليا، دون توقّد للفكر، مفتقدا لأسس الإبداع، والإيمان بالمصير المنتظر. وإذا ما أدرك المجتمع أنه غير مكتفٍ، فإن ذلك يلقي عليه طابع الخنوع، و يجعله لا مباليا تجاه قدره الخاص. وإذا ما افتقد المجتمع المبادرة، فإنه سيصبح غير قادر على تسيير أموره، وسيفقد، شيئا فشيئا، أي تصور يتعلق بالوطن.»

هكذا كان يفكر الليبرالي، و يجدر بنا قول الحقيقة، إنه كان يفكر بشكل صحيح. كان يرى أن الناس الذين يحومون من حوله، هم في الحقيقة ذباب سام. وكان يقول لنفسه: «هذا بسبب أنهم لا يعون أنهم صانعو مصيرهم. إنهم مقيدون بالأصفاد، تأتيهم السعادة والشرور دون توقع منهم، لا يستسلمون لأحاسيسهم بإخلاص، لأنهم لا يستطيعون أن يحددوا، ما إذا كانت تلك الأحاسيس واقعية، أم أنها نوع من الرؤى الكابوسية. وباختصار، فإن الليبرالي كان مؤمنا إيمانا لا يتزعزع، بأن العوامل الثلاثة المذكورة يمكن أن تقدم للمجتمع دعائم متينة، وتجر وراءها الخيرات الأخرى، اللازمة

لتطوره.

ليس هذا كل شـــيء! فالليبرالي لم يكن يقدم الأفكار المثمرة وحسب، لكنه كان يقوم بأعمال الخير أيضا. إن أمنيته المقدسة كانت تتلخص بأن يخترق شعاع النور، الذي أوقد ذهنه، العتمة المحيطة، وينيرها بشكل كامل ويفيض بالخير علـى جميع الكائنـات، وقد كان يعترف بأن جميع الناس أخوة، ويدعوهم بالتساوي إلى أن يستمتعوا بالحيـاة تحت ظلال المثل المحببة إليه.

وبالرغم من أن سعيه لنقل المثل من محيط النظرية إلى أرض التجربة كانت تفوح منه رائحة شـك نتنـة، إلا أن الليبرالي كان يسـعى صادقا للتنوير، وفي الوقت ذاته كان لطيفا، ودودا مع الجميع، مما جعل الناس يغفرون له إخفاقاته عن طيب خاطر. كانت لديه القدرة على قول الحقيقة من خلال الابتسامة، وأن يمثل حالة الشـخص البسـيط حيث يتطلب الأمر ذلك، ويظهر بأفضل أناقته. لا أطماع لديه، وأهم من كل ذلك، فهو لم يطلب أي شـيء، في أي وقت من الأوقات، استجابة لأي ضغوطات، لكنه يطلب «قدر الإمكان» فقط.

إن تعبير «قـدر الإمـكان» لم يـكـن مُرضيـا بالنسـبة لمثابرتـه، لكن الليبرالـي، كان يهادنـه، مـن أجـل المصلحـة العامـة، التي كانت تقـف لديه في المقدمـة دائمـا، أولا، ومن أجل حمايـة مثله العليا من الموت العبثي، السـابق لأوانـه، وثانيا. إضافـة إلى ذلك، فقد كان يعرف، أن المثـل التي كانت تلهمه، لها طابع مجرد جدا، وهي أبعد من أن تؤثر على الحياة بشـكل مباشـر. ما هي الحرية، الرفاه، المبادرة؟ إنها جميعها مصطلحات مجردة، يجدر ملؤها، دون شك، بمحتوى ملموس، لكي يحدث إزهار في المحصلة النهائية. هذه المصطلحات، في مجملها، يمكنها القيام بتربية المجتمع، ورفع مستوى إيمانه وآماله، لكنها لا تسـتطيع أن تقدم خيرا ملموسـا، يفيض بشـعور الفرح. ولكي نصل إلى هذا الخير، ولكي نجعـل المثل العليـا في متناول الجميع، مـن الضرورة بمكان تحويرهـا، تجزئتها، وعبر هذا الشـكل فقط يمكن اسـتخدامها للشـفاء من

العلل التي تصيب البشرية. وهنا بالتحديد، عند عملية التجزئة، تفعل عبارة «قدر الإمكان» ذاتيا، العبارة، التي تتكون من جانبين متجهين نحو التماس، أحدهما تجبره عبارة «بدرجة معروفة»، على الامتناع عن الانغلاق، والآخر تجبره عبارة «بدرجة محسوسة» على اختزال مطالبها.

كل هذا فهمه ليبراليُنا بامتياز، وقد استعد للدخول في معركة مع الواقع، متسلحاً بهذا الفهم. وقبل كل شيء، فقد توجه، بالطبع، إلى أصحاب الخبرة. سألهم:

- الحرية! أظن، أنه لا يوجد أي مثلب في ذلك؟

أجاب أصحاب الخبرة:

- ليست بلا مثالب وحسب، بل إنها مبجلة جدا، إنهم يفترون علينا، كما لو أننا لا نريد الحرية، وفي الواقع فإننا نأسى على فقدانها.. لكن، طبعا، بحدود أيضا.
- أوه.. «بحدود».. فهمت! وماذا تقولون بخصوص الرفاه؟
- نرجو العفو.. لكن، هنا أيضا، بحدود، بالتأكيد.
- وكيف تجدون مبدئي في المبادرة الشعبية؟
- هذا فقط ما ينقصنا. لكن، مرة أخرى، بحدود.

وماذا في ذلك! بحدود، إذا بحدود! الليبرالي نفسه فهم بشكل جيد، أنه لا يجوز غير ذلك. جرّب أن تطلق فرسا سنجابية اللون من دون لجام، إنها سرعان ما تجمح، وتخرب ما يصعب إصلاحه لسنوات طويلة لاحقة. أما أمر اللجام، فهو شأن مقدس! تذهب الفرس السنجابية، وتنظر في كل مكان: إيه، أيتها الفرس، سأجلدك بالسوط بقسوة... هكذا!

وبدأ الليبرالي يعمل بـ «حدود»، هنا ينتش، وهناك يهبش، وفي مكان ثالث يختفي تماما. وأصحاب الخبرة ينظرون غير مبتهجين. وفي وقت من الأوقات، كانوا قد انجذبوا إلى عمله، لدرجة أنه كان بالإمكان الاعتقاد أنهم أنفسهم قد تحولوا إلى ليبراليين.

وقد كانوا يشجعونه:- تجاوز هنا، توار عن الأنظار في هذا المكان، لا تقترب من هناك بأي حال من الأحوال، وكل شيء سيكون على ما يرام. كان بودنا، يا صديقنا العزيز، وكنا مستعدين أن نطلقك- أيها التيس- في الحوش بكل سرور، فأنت ترى بنفسك، كيف عُزِّز سياج الحوش عندنا بالأغصان المزروعة بالأرض.

يوافقهم الليبرالي قائلا:

- أرى، أرى، لكني أخجل أن ألوي عنق مُثُلي! إنه مخجل! آه، كم هو مخجل!
- إيه، اخجل قليلا: إن الخجل لا يأكل العيون!، ومع ذلك، فإنك بذلك تحقق فكرتك «قدر الإمكان»!

في نفس الوقت، وبعد أن تتحقق الفكرة الليبرالية «قدر الإمكان»، فإن أصحاب الخبرة، كانوا يظنون أنه حتى بهذا الشكل، فإن مُثل الليبرالي لا تعبق برائحة الورد. فقد بولغ بالفكرة وتوسعتها، من جهة، ولم تكن ناضجة بما فيه الكفاية، وغير جاهزة للاستيعاب، من جهة أخرى.

قال أصحاب الخبرة لليبرالي:

- ليس في مقدورنا تبني مُثُلك! إننا غير جاهزين، لن نحتمل!

وهكذا، فإنهم بكل سفالتهم وتهافت آرائهم، وبشكل دقيق وجلي، قدّروا، أن على الليبرالي الاعتراف بأن في مشروعه توجد بقعة جبرية معتمة، غير سالكة، بغض النظر إن كان محزنا أو صعبا عليه تقبل ذلك.

دمدم متذمرا من حظه:

- آه، كم ذلك محزن!

وقد واساه أصحاب الخبرة:

- إنك غريب! وجدت ما يبكيك! ماذا ينقصك؟ أن يتحقق المستقبل على ضوء مثلك العليا؟ إننا لا نقف حجر عثرة في طريق ذلك. لكن لا تتعجل، بحق المسيح! وإذا لم يتحقق شيء«قدر الإمكان» فانعم بما تحصله من «أي شـيء«! فـ«أي شـيء» لها قيمتها. قليلا فقليلا، وشـيئا فشـيئا، غير متعجل، ومؤد صلواتك للرب، سترى وإذ قدمك تدخل المعبد! ذلك المعبد، الذي لم يلتفت إليه أحد منذ بنائه، أما أنت فقد تمكنت من إلقاء نظرة إلى داخله...ولأجل ذلك اشكر الرب.

لا يوجد ما يمكن فعله، واقتضى الأمر التصالح مع هذا أيضا. فإذا لم يتحقق شـيء من«قدر الإمكان» فاسع لانتزاع«أي شـيء»، وعلى هذا قل شكرا. وفعلا تصرف الليبرالي على هذا النحو، وسرعان ما استأنس الوضع الجديد ذاك، لدرجة أنه تعجب كيف كان غبيا، مفترِضا أن حدودا مغايرة كانت ممكنة. وقد ظهرت حالات مماثلة متنوعة هبت لمساعدته. إن القمح، وكافة أنواع الحبوب لا تعطي ثمارها مباشـرة، وكذلك المجاملات.في البداية تـزرع البـذرة في الأرض، بعـد ذلك تبقى حتى تحـدث فيها عمليـة التحلل، ثم تخرج منها نبتة، تذبل بدورها بعد فترة متحولة إلى قصبة، تحمل سنابل.. الخ. وهكـذا، فكم من المراحل الساحرة، على البذرة أن تمر بهـا، حتى تتحول إلى ثمرة عظيمة الفائدة! وبنفس الدرجة هنا، في السعي وراء المثل العليا. تزرع في الأرض«أي شـيء» – واجلس وانتظر.

وبالفعـل: فقد زرع الليبرالي في الأرض«أي شـيء»ـ وها هو جالس ينتظر. انتظر، ولم ترتجف «أي شـيء» من البرد، ولم يطل بها الانتظار. ترى هل سقطت البذرة على صفاة صخرية، أم أنها تعفنت على مزبلة – تقدّمْ وجِد الحل!

دمدم الليبرالي بامتعاض عظيم:

- أي علة هذي؟

أجاب أصحاب الخبرة:

- العلة هي نفسها، إنك تجدّف بشكل واسع جدا، أما الشعب عندنا فضعيف في واقع الحال، منغمسا في الدناءات. أنت تقابله بالخير، وهو يسعى جهده، في المقابل، لإغراقك في الباطل. لا بد أن تكون حاذقا حتى تتمكن من المحافظة على نقائك وسط هذا الشعب!

- العفو، ماذا تقولون! أي كلام يمكن أن يقال، في هذا الوقت، عن النقاء! بأي مخزون خرجت أنا إلى الدرب، وها قد انتهيت بأن أضعته كله عليه. في البداية عملت بـ«قدر الإمكان»، ومن ثم رحلت على«أي شيء» – ولا يعقل أن يكون بالإمكان السير قدما إلى أسفل الجبل؟

- إنه ممكن بالتأكيد. ألا تود أن تجرب، على سبيل المثال،«بمقتضى الدناءة»؟

- كيف ذلك؟

- بسيط جدا. أنت تقول إنك أحضرت لنا المثل العليا، و نحن نقول: هذا رائع، أما إذا ما أردت أن يتعاطفوا معك، فما عليك إلا أن تفعل حسب المقتضى.

- وبعد؟

- نعني، عليك أن لا تعلن مثلك العليا، واختصرها في إطارنا نحن، وتصرف حسب المقتضى. وبعد ذلك، من الممكن، أن نرى نحن فائدة... نحن، يا أخانا، أيضا ذئاب تطاردها الكلاب، وقد رأينا الكشافات الضوئية! وهكذا فقد برز إلينا الجنرال كروكوديلوف قائلا: أيها السادة، إن مثلي الأعلى – الحبس! تفضلوا! ومن غبائنا صدقنا، وها نحن الآن نجلس لديه خلف الأبواب الموصدة.

شرد ذهن الليبرالي بشدة عندما سمع هذه الكلمات. ومثله العليا الأولى، التي لم يبق منها سوى العناوين وحدها، يلصق عليها دناءة حقيقية! فأنت في

الحقيقة ما إن تتكيف قليلا حتى تجد نفسك غارقا في الدناءة. إلهي أرشدني!

أما أصحاب التجربة، فإنهم من جهتهم عندما يكتشفون شرود ذهنه، يأخذون بالضغط عليه.

- ما دمت، أيها الليبرالي، قد بدأت بسلق العصيدة، فلا تطلق أحكاما، واكمل طبخك حتى النهاية! لقد نشطّتنا، فاحسن إلينا.. وباشر فعلك!

وباشر فعله. وكل شيء بمقتضى الدناءة. يجرب أحيانا الإتيان بخطيئة ويختفي جانبا، أما صاحب التجربة يمسكه فورا من كمه: لماذا عينك تحولُ بالنظر جانبا؟ انظر إلى الأمام مباشرة!

وهكذا، مرت الأيام تلو الأيام، وجرّت وراءها آيات الفلاح لمبدأ «بمقتضى الدناءة»، المثل العليا أصبحت أثرا بعد عين- بقي مخلوق دنيء وحسب - أما الليبرالي فلم يتقاعس قط. «ما هذا، هل، تراني، أغرقت مثلي العليا بالدناءة حتى الأذنين؟ في المقابل فإنني أقف صامدا مثل الطود! إنني اليوم أسبح في القذارة، لكن غدا ستظهر الشمس، وتجفف القذارة - ومن جديد أنا بطل الأبطال!» أما أصحاب التجربة فكانوا يسمعون مفاخره تلك ويرددون: نعم، هو كذلك!

وهكذا، كان يسير يوما مع أحد أصدقائه في الشارع كالمعتاد، متحدثا عن مثله العليا، ناشرا حكمه على ذلك العالم، عندما شعر فجأة بسقوط رذاذ على وجهه. من أين؟ من ماذا؟ التفت الليبرالي إلى الأعلى: أليس هذا مطر؟ وفي نفس الوقت، رأى أنه لا توجد في السماء سحابة واحدة، والشمس متوهجة تتلألأ في كبد السماء. ورغم أن نسيما كان يهب، لكن لا شيء يشير إلى أن أحدهم ألقى بماء غسيل من شباك. حتى هذه الفرضية، لا يمكن الاعتماد عليها.

قال الليبرالي لصديقه:

- شـيء غريب! لا يوجد مطـر، لا يوجد غسـيل، ورذاذ يتطاير على وجهي!

أجاب الصديق:

- انظر، هناك شخص ما توارى خلف المنعطف، لا بد أن يكون ما حدث مـن فعله! لقـد أراد أن يبصق في وجهك بسـبب شـؤونك الليبرالية، لكن لم تسـعفه الشـجاعة كـي يفعل ذلـك وجها لوجـه. هذا هو «بمقتضـى الدنـاءة»، يبصـق من خلـف المنعطف، والنسـيم حمل الرذاذ إلى وجهك.

السحلب

غلت الطباخة السحلب ووضعته على الطاولة. أتى السادة عليه عن بكرة أبيه، وقالوا: شكراً، أما الأطفال فراحوا يلعقون أصابعهم. علا مجد السحلب، وأعجب به الجميع، وناسب أذواقهم. «آخ، أي سحلب طيب! آخ، أي سحلب سلس! هكذا يكون السحلب، وإلا فلا. وأضافوا: اسمعي أيتها الطباخة، يجب أن يكون السحلب على الطاولة كل يوم! «لقد شبع الجميع، وأكرم الضيوف، ثم خرجوا تاركين خلفهم أكواب السحلب فارغة» «كلوا السحلب، أيها السادة الكرام! انظروا أي سحلب لدينا، إنه ينزلق في الحلق من تلقاء نفسه! كلوا أكثر، إنه يحب أن يُؤكل!»، وكان كل شخص يتقدم، يُغوِّص ملعقته في السحلب، ويأكل، ثم يمسح فمه ويمضي.

كان السحلب طرياً، وسهل الغرف بالملاعق، ولم يشعر بالانزعاج يوما من أنه يؤكل، بل بالعكس من ذلك، فقد أصيب بالغرور من كثرة المديح الذي كان يوجه له. يقف على الطاولة مزبدا مرغياً: إذاً أنا منته، ما دام السادة يحبوني! لا تتثاءبي أيتها الطباخة، بل اسكبي وحسب!»

مضى زمن، لا أحد يتذكّر إن كان طويلا أم قصيراً، إلا أن الناس ملّوا السحلب، فراح السادة يستعرضون ويتظاهرون أنهم مثقفون، مترفعون على السحلب. حتى أولئك الأشخاص من ذوي المسميات الوظيفية التافهة، الذين حصلوا على درجاتهم بالتدرج البطيء فقد بدأوا يفضلون الهلام والجلي وما شابه. وأحدهم يقول:

- المعذرة! ما هو الحسن في السحلب؟ هل يعتبر هذا طعاماً أصلاً؟

جربوه، كم هو رخو، وحلو، ومائع!

- ويقول آخر:

- قدموه للخنازير أيها السادة! أما نحن فنود الذهاب إلى المياه الدافئة للتمشي هناك! سنمشي كثيراً، وإذا ما فرض علينا أن نأكل السحلب هناك، فإننا سنقفل راجعين إلى بيوتنا.

ما علينا! للخنازير، إذا للخنازير، فلا يهم السحلب شيئاً، وفي أي من الدرجات أن يؤكل، المهم أن يؤكل.

دسّت الخنزيرة خطمها في السحلب حتى آذانها، وعلى مطقها، وعلت همهمتها في أرجاء الزريبة: «سوف أتمرجح، وأدور، عندما أشبع من سحلب الأسياد! إنها لا تعرف الشبع هذه الحقيرة.

تتباطأ الطباخة قليلا، فتهمهم الخنزيرة، وتقول: اسكبي! ولا يهمّها أن يقولوا: كان هناك سحلب، واختفى جميعه، إنها تدسُّ خطمها في طل زاوية، وكل ثنية، وفي الروث، باحثة عن السحلب، وسوف تجده.

أكلت الخنزيرة حتى أتت على آخر قطرة من السحلب. الأسياد في تلك الآونة ظلوا يتمشون ويتمشون حتى ملّوا، وقال بعضهم لبعض: الآن لم تعد بنا حاجة إلى المشي! لنعد إلى البيت لنأكل السحلب!.

وصلوا البيت، تناولوا الملاعق، نظروا فلم يجدوا من السحلب سوى فضلات جافة.

سيغني الجميع الآن (السادة والخنازير) بصوت واحد: أكلنا السحلب، ولم نوفر منه شيئاً للمستقبل! أي طعام سيشبعنا بعد اليوم، أين أنت أيها السحلب؟ اوه!

ليف كاسيل

(١٩٠٥–١٩٧٠)

- أقحوان الليل.

ليف كاسيل

ولد في قرية بوكروفسكايا (حالياً مدينة إنجلز) لأب طبيب يهودي، وأم موسيقية وطبيبة أسنان ١٩٠٥. درس الفيزياء والرياضيات في جامعة موسكو، ثم درس الأدب، وأصبح كاتبا صحفيا ساخرا ومراسلا لجريدة «الإيزفيستيا»، وأصبح مدير التحرير المسؤول في مجلة الأطفال «مورزيلكا». أصبح رئيس لجنة أدب الطفل في اتحاد الكتاب السوفيت، كتب العديد من القصص للأطفال صدرت في عشرة مجلدات، والعديد من القصص والروايات وسيناريوهات الأفلام وغيرها من الموضوعات. حائز على جائزة ستالين عن رواية «شارع الابن الأصغر» (١٩٥١)، ووسام النجمة الحمراء، ووسام راية العمل الحمراء.

أقحوان الليل

تحدَّد بثّ يوم الأحد في الساعة ١٢:٢٠، كان عليّ أن أقرأ قصتي عبر الأثير.

كان ليل في موسكو دامساً، وعاصفة ثلجية تعربد في شوارعها، التي لم يكن ينيرها أي مصباح، فلم يكن بإمكانك رؤية شخص على بعد خطوتين. وفي الشارع، عند مدخل محطة الراديو، كِدت أدوس جسماً صغيراً، وفجأة رأيت لمعاناً ضعيفاً صادراً عن أقحوانة زجاجية فسفورية، مما انتشرت صرعته في موسكو الجديدة، على صدر أحدهم. سمعت صوتاً مكسوراً وضعيفاً يناديني. بدا لي أن الجسم لصبي مراهق.

- أيها الرفيق، كيف يمكن إرسال رسالة من الجبهة بالراديو؟

اقتربت من الجسد، الذي اتضح أنه لفتاة، ترتدي معطفاً عسكرياً، وتحمل كيس أمتعة على الظهر، وتعتمر قبعة ذات أذنين على رأسها.

الكثيرون كانوا يُحضرون إلينا الرسائل - لم أستغرب السؤال، قلت فقط، إن الرسائل تقدم في مكان آخر، إضافة إلى أن اليوم هو يوم الأحد، يوم العطلة، وإنها متأخرة بشكل عام - فلا يوجد أحد في القسم في هذا الوقت. قالت متلهفة:

- لا، لا بد من إيصالها اليوم، الآن من فضلك، أتوسّل إليك، بُثّ هذه الرسالة اليوم... ألا تعمل في الإذاعة؟ كل شيء مكتوب هنا، بثها الآن في الراديو، أرجوك.

ودسّت في العتمة رسالة في يدي.

- إنني أتوسل إليك كثيراً. أنت لا تتصور أهمية ذلك.

- في الحقيقة، أنا لا أتصور، لكني سأوصل رسالتك إلى قسم الرسائل في الجبهة غداً.

- لا، لا، إذ يصبح الوقت متأخراً، من الضروري بثها اليوم، الآن بالتحديد، إنه ينتظر على الجبهة، إنه قلق الآن. سأشرح لك كل شيء الآن... صديقة، أتفهمني.

- أهو، صديقة؟ قد فهمت.

- نعم، صديقة، وهي... يعني أنا، عليّ، أو بالأصح، فقد وعدتها، أنه...

قلت:

- اسمعي، كيف يمكنك استيعاب كل هذه الضمائر: أنتم، هو، أنا، هي؟ يوجد هنا شيء مشوش، فقد تُهتُ أنا شخصياً وسط هذه الضمائر الكثيفة، يبدو لي أن الوضع مشوش للغاية، أنت تتكلمين عن صديقتك بصيغة «أنا»، لكن الصديقة يجب أن تتكلم عن نفسها لأنها «هي». ما هذا، لقد احمرّ خدّاك، على ما يبدو؟

- لم أحمر على الإطلاق، كيف قرّرتَ ذلك؟ ها أنا. لكن، قل لي كيف عرفت وفي مثل هذه العتمة؟

أما هي فقد سحبت بنفسها القفازات من يديها وراحت تتحسس خلسة برؤوس أناملها على خديها – الأيمن والأيسر.

قلت:

- لا بأس، اعرضي، أيتها الفتاة، قضيتَك، فأنا سأتأخر، وهكذا من

يكون هو؟ أهو ملازم؟

- نعم، إنه ملازم ثان.

- أجل، أين هو ملازمك الثاني؟

- إنه لا يخصني – إنها إحدى صديقاتي، ببساطة...

- أوف، لا بأس أين هو... ملازم إحدى صديقاتك.

قالت:

- هنا المشكلة، إننا لم نعرف أحداً، كنّا، أنا وصديقتي، في إحدى المجموعات، كلانا كنّا من...، وتطوعنا مع الفدائيين وعملنا في نفس القطاع، أما فصيلة هذا الملازم، الذي ترسل له صديقتي الرسالة، فقد عمل هناك، وقد نفّذنا مَهمة معاً، و نحن على صداقة معه منذ أيام المدرسة، لقد كان يعطينا دروساً في العسكرية، إنه لطيف جداً وشهم – الجميع عندنا يحبونه.

- أرى ذلك.

- لا، هذه حقيقة. إنه إنسان رائع، شجاع، وكان يهتم جداً بصديقتي.

- وهي؟

- إنها غريبة نوعاً ما وهي كتومة، وهذا بالتحديد سر تعاستها، أنا أقول لها: «أخبريه، فهو نفسه ...» لكنها تقول لي ...

- أها، مرة أخرى تأتي الضمائر!

أطلقت ضحكة هادئة في الظلام:

- حسناً، سأحاول من دون ضمائر، وهكذا، أنت تعرف، قبل الذهاب في مهمة، حدث شيء ما بينهما. على كل، لقد أغضبته هي. لم تتكلم كما يجب، وهي الآن تتعذب، حتى إنهما لم يودّعا

بعضهما كما يجب. وكانت المهمة صعبة – كان بالإمكان أن تموت، رتبنا أمورنا، بحيث لا يقلق أحد علينا عبثاً، وحدّدنا موعداً بعيداً – ثلاثة أشهر، وهكذا، فإذا لم نخبر عن أنفسنا خلال ثلاثة أشهر، فإننا لن نكون في عداد الأحياء. كان ذلك في الخامس عشر من شهر كانون الثاني، واليوم هو الخامس عشر من آذار. هل تفهمني؟ إنه اليوم الأخير في الموعد. إنه ينتظرني هناك ...

سألتها :

- وتراك تركت الأمر لليوم الأخير؟

- لقد تأخرنا في الطريق، في المستشفى العسكري، نمنا كلانا.. أنا وصديقتي وعندها وقعنا، وجَرحوا... صديقتي... أما أنا... لا بل فتاة من جماعتنا كانت جريحة في ساقيها، سحبتها، سحبتها خمسة كيلو مترات، تحملتْ على نفسها، نفسها كانت تستند بمرفقيها على الزلاجات، وهكذا زحفت اثنتي عشر ساعة... وبعد ذلك، وبين اكتشافنا، ونقلنا إلى المستشفى العسكري وعلاجنا، ها قد مرَّت ثلاثة أشهر، طبعاً أنا كتبت له... أعني نحن... لكن لا جواب منه، على أي حال، فهو أينما وجد سيكون بالتأكيد على انتظار، أنا متأكدة، فاليوم هو الخامس عشر من آذار، اليوم الأخير، كما اتفقنا، وصديقتي تتعذب كثيراً، وهو، لا بد قلق ويعاني هناك، أنا أرجوك كثيراً: بثها الآن. قل فقط إنها للملازم سيرجي ناراسوفيتش فلاسوك. تُسلِّم عليه... أقصد أن الرسالة من ليدا كوروميسلوفا، كل شيء مكتوب هنا، من فضلك، افعل ذلك، لقد وصلتُ إلى هنا بصعوبة، جئت من محطة القطار مباشرة، وكنت أفكر أنني لن ألحق، وما أن وصل قطارنا...

كان عليّ أن ألحق البرنامج، تحركت نحو المدخل، سارت هي إلى جانبي، ومن خلال صوت خطواتها غير المنتظم عرفت أنها تعرج.

قلت:

- أتعرفين، إن لديك صديقة غير جدّية، إنها أولاً تختفي وراء ظهرك، وثانياً، لأنها أجبرتك أن تركضي إلى هنا مباشرة من محطة القطار، على ساق مصابة، وفي ليل ثلجي دامس وعاصف.

- وماذا في ذلك؟ لقد تعبت من الطريق، وبالرغم من أنني أصغر منها، إلا أنني أقوى، هذه حقيقة، حقيقة.

رأيت أمامي في العتمة جسمها غير الكبير القوي بمعطف عسكري، لكني لم أتمكن من مشاهدة الوجه، فقط كانت تشع على معطفها أقحوانه فسفورية بشكل ضعيف وخجول.

- أين تمكَّنت من الحصول على أقحوانة مسكوبية؟

- في المترو، كانوا يبيعونها عند محطة القطار، هل أعجبتك؟ خذها مني للذكرى، رجاءً. إنها ليست من صديقتي، إنَّها مني شخصياً.

وقبل أن أتمكن من الاعتذار، كانت قد فكّت «البروش» المشعّ، من على المعطف بلمح البصر، ودسته في يدي.

- إذاً، ستبثُّها الآن، ولك كل الشكر على ذلك، إنني لا أعرف كيف أشكرك، فقط، لو تعرف...

- أعرف

- لا، إنك لا تعرف شيئاً، إنك على ما يبدو، تعتقد، أنني أكون ليدا نفسها؟ لا، بالتأكيد، إن اسمي ... ليس مهماً من أكون أنا. أضف هناك، عندما تبث الرسالة، أن كوتيا تهديه التحية أيضاً، كانوا يدعونني في الفصيل: «كوتيا» وزحفت خمسة كيلو مترات – هذا حقيقة. أنا من سحب ليدا، لكن لا تبث ذلك لأنه سيظن، أنني أرغب أن أكون أخرى، من أجله حاولت، لكني حينئذ لم أكن أفكر بذلك.

وفي العتمة دسّت يديها في القفازين المصنوعين من فرو الثعلب، أخذتهما، وشددت عليهما بقوة. وقد أفلت مني الكلام:

- هل تعرفين، لو كنت مكان الملازم لكنت ...

- لا، أنت ... ليدا إنسانة جيدة، جميلة، ممشوقة ... ثم ...! أخذتْ نفساً، ثم واصلت الكلام، عندما سحبتها، تجمّد وجهي بشدة ... كنت مضطرة لإجراء عملية فيما بعد ...الآن، في العتمة، أنت لا ترى شيئاً ... حدث ذلك بشكل نهائي، وإلى الأبد.

مرّرت يدها بسلاسة، أما أنا فلم أُقرِّرْ أن أمسكها في تلك اللحظة، وفيما بعد كان الوقت قد أصبح متأخراً. فقد اشتدت العاصفة الثلجية، وبقي في يدي فقط الأقحوانة – المضيئة، وكدت أتأخر عن بداية البرنامج، لكن، وبدل أن أتلو القصة التي أعلن عنها المذيع، أوفيت بوعدي، بعد أخذ موافقة معدِّ البرنامج.

قلت أمام الميكروفون: الملازم الثاني سيرجي تاراسوفيتش فلاسوك، أنقل إليك تحيات أصدقائك: ليدا إيغناتوفنا كوروميسلوفا، ومن الفتاة التي اسمها كوتيا، إنها فتاة رائعة، صدقني، أيها الرفيق الملازم، لديها عيب واحد – لديها الكثير من الضمائر التي يختفي خلفها قلبها الرائع ...وتحدثت عن لقائنا.

ولم أتمكن من قراءة القصة المعلنة: انتهى الوقت المحدد للبرنامج، وقد اعتذرت للمستمعين لأنني استخدمت الدقائق المتاحة لي ليس كما هو محدد، على كل حال، لا أظن أن من استمع للأمسية التي خصّصناها لتلك الفتاة التي تستحق ذلك كان نادماً.

بعد ذلك سلكت إلى البيت عبر شوارع موسكو العاصفة المعتمة. وكان الضوء الأخضر للإشارة الضوئية يكشف لي الطريق، وكنت أستمع من خلال الريح إلى خطوات طابور عسكري متزنة، قادمة من بعيد. وعلى معطفي كانت تلقي الأقحوانة المهداة ضوءاً خيفاً لطيفا، مكتوما...

فاسيلي شوكشين

- شمس وشيخ وفتاة .
- وحيدان .

فاسيلي شوكشين

كاتب ومخرج وممثل روسي. ولد سنة ١٩٢٩، عمل مزارعا، وعاملا في مصنع الجرارات الزراعية، وسبّاكا، وشارك في عملية إعادة الإعمار بعد الحرب الالمية الثانية في إعادة بناء السكك الحديدية. خدم في سلاح البحرية الروسية، وسرح من الخدمة بسبب حالته الصحية. درس السينما في موسكو سنة ١٩٥٤. قلد وسام الراية الحمراء، وحاز على جائزة الدولة في الاتحاد السوفيتي عن دوره في فيلم على ضفاف البحيرة ١٩٧٣. وحصل على لقب فنان الشعب الروسي. من أعماله الأدبية: المجموعات: «شخصيات»، «أحاديث تحت نور القمر»، «أهل الريف»، ورواية «جئت لأمنحكم الإرادة» وغيرها. ومن أعماله السينمائية: هؤلاء دافعوا عن الوطن، بسطات ومواقد، كالينا الجميلة، وقصة وحيدان.

توفي سنة ١٩٧٤ بحادث أثناء تصويره فيلم «هؤلاء دافعوا عن الوطن».

شمس وشيخ وفتاة

اشتعلت النهارات بلهب أبيض. كانت الأرض والأشجار ساخنة. العشب الجاف كان يصدر خشخشة تحت الأقدام. فقط عند المساء، كان الطقس يتحسن بعض الشيء. كان شيخ طاعن في السن يخرج إلى شاطئ نهر كاتوني السريع، و يجلس دوما في المكان ذاته إلى جذع الشجرة الغارق في الماء – ناظراً إلى الشمس.

كانت الشمس تغيب خلف الجبال. عند المساء يصبح قرص الشمس أكبر وأكثر احمراراً. الشيخ يجلس دون حراك، وقد استلقت يداه البنيتان الجافتان المتغضنتان بشكل مخيف، على ركبتيه. الوجه مجعد أيضاً، والعينان مبللتان ذابلتان، والرقبة نحيلة، والرأس صغير أشيب.

تحت القميص الأزرق المغسول بالنيلة الزرقاء، كانت تتراءى عظام الترقوة ناتئة.

في أحد الأيام، وقد كان يجلس في تلك الوضعية، سمع صوتاً من خلفه:

- مرحباً أيها الجد!

هزّ الشيخ رأسه.

إلى جانبه كانت تجلس فتاة ممسكةّ بحقيبة مسطحة.

- أتستريح؟

هز الشيخ رأسه مجدداّ. قال:

- أستريح.

لم يلتفت إلى الفتاة. سألت الفتاة:

- هل بإمكاني تصويرك؟

لم يفهم العجوز، سأل:

- كيف ذلك؟

- أقصد رسمك.

ظلّ الشـيخ صامتاً للحظات، ناظراً إلى الشمس، رامشاً بأجفان حمرٍ خالية من الرموش. قال:

- لكني، حالياً، لست جميلاً.

انفعلت الفتاة بعض الشـيء.

- لماذا تقول ذلك؟ أنت جميل، أيها الجد!

- وسقيم أيضاً.

نظرت الفتاة طويلاً إلى الشـيخ، ثم مسـحت بكفهـا الطرية على جلده البنّي الجاف، وقالت:

- أنت جميل جداً، أيها الجد، إني أقول الحقيقة.

أطلق الشـيخ ابتسامة مبتسـرة:

- ارسمي، ما دام الأمر كذلك.

فتحت الفتاة حقيبتها. سعل الشـيخ عدة مرات في كفيه وسأل:

- أنت من المدينة، على ما يبدو؟

- من المدينة.

- يدفعون لك، على ما يبدو، مقابل ذلك؟

- حسب؛ لكن، بشكلٍ عام، إذا ما أحسنت صنعاً، فإنهم يدفعون.

- السعي واجب.

- ها أنا أسعى.

صمت.

وظـل الشـيخ ينظر إلى الشـمس. وراحت الفتاة ترسـم، متأملة وجه الشيـخ من جانب.

- هل أنت من هنا، أيها الجد؟

- من هنا.

- وهل ولدت هنا؟

- هنا، هنا.

- وكم عمرك الآن؟

- من الأعوام؟ ثمانين.

- أوه!

وافق الشـيخ قائلاً: كثير، ثم أطلق ابتسامته المبتسـرة مجدداً.

- وأنت؟

- خمسة وعشـرين.

ومن جديد يسود الصمت.

هتف الشـيخ بصوت غير مرتفع:

- يا للشمس!

- ما بها الشمس؟ سألت الفتاة غير فاهمة.

- كبيرة.

- أها... نعم. المكان جميل هنا.

- لكن الماء زخم هنا، انظري كيف هو على الجانب الآخر..

- نعم، نعم.

- تماماً كما لو أنه أذيب فيه دم.

نظرت الفتاة إلى الشاطئ الآخر:

- نعم، نعم.

لامست الشمس قمم جبال الألتاي، وراحت تغرق ببطءٍ في العالم الأزرق البعيد. وكلّما ازدادت غياباً، اتضحت صورة الجبال بشكل جلي، كما لو أنها كانت تتحرك من مواضعها. وفي الوادي – بين النهر والجبال – كان الشفق يشتعل وتقدمت من الجبال ظلال ساهمة ناعمة. بعد ذلك، اختفت الشمس تماماً خلف سلسلة جبال بابور خان، في حين انطلقت الأشعة الحمراء– الساطعة على شكل مراوح في السماء المائلة إلى الخضرة. تماسك الشيخ فترة ليست طويلة. انطفأ كذلك بهدوء. أما على الجانب الآخر فقد حلّ شفق.

تنفس الشيخ الصعداء، وقال:

- غابت الشمس.

أعادت الفتاة ترتيب أوراقها في الحقيبة.

جلسا لبعض الوقت هكذا، منصتين إلى تمتمة موجات النهر العجلى. في الوادي كان الضباب يزحف بكتل كبيرة. أما في الغابة الصغيرة، غير البعيدة، كان طائر من طيور المساء يصيح بصوت مبحوح، وقد جاءت الاستجابة من الشاطئ الآخر عالية، صاخبة.

قال الشيخ بصوت منخفض:

- حسنا.

كانت الفتاة تفكّر كيف ستعود قريبا إلى مدينتها العزيزة، البعيدة، حاملة العديد من الرسومات. ومن بينها سيكون بورتريه هذا الشيخ. أما الفنان الذكي، فسيحتد بالتأكيد: «مرة أخرى الغضون!».. لماذا؟ من المعروف للجميع، أن المناخ في سيبيريا قاس، وأن الناس يعملون هناك كثيراً. وماذا بعد؟... »

كانت الفتاة تعرف، أنها ليست عظيمة الموهبة، لكنها تفكّر: أيّ حياة قاسية عاشها هذا الشيخ، أي يدان لديه..

مرة أخرى الغضون!

«العمل واجب، العمل، العمل.. »

سأل الشيخ:

- هل ستأتين غداً أيتها الفتاة؟

ردّت على الفور:

- سآتي.

نهضت الفتاة، وسارت إلى القرية.

جلس الشيخ قليلاً، ثم غادر هو الآخر.

وصل إلى البيت، اتخذ مكانه في الزاوية خلف الموقد، جلس بهدوء، منتظرا عودة ابنه من العمل ليجلسا معا للعشاء.

كان الابن متعباً دائماً، متبرماً. وزوجته هي الأخرى كانت دائمة التذمر. الأحفاد كبروا، وانتقلوا إلى المدينة. أصبحت أجواء البيت من دونهم مملة. جلسوا للعشاء. فتّوا للعجوز خبزاً بالحليب، راح يأكل جالساً على طرف الطاولة البعيد.

كان يصلصل بالملعقة في الصحن بحذر، محاولاً أن لا يثير ضجيجاً. صمتوا، بعد ذلك ذهبوا جميعا للنوم.

زحف العجوز إلى الموقد، أما الابن وزوجته فقد ذهبا إلى الغرفة. صمتوا. بماذا يمكنهم أن يتحدثوا؟ كل شيء يمكن أن يقال، قد قيل منذ زمنٍ بعيد.

في المساء التالي التقى الشيخ بالفتاة، وجلسا على الشاطئ عند الجذع الغارق. راحت الفتاة ترسم متعجلة، أما الشيخ فجلس ينظر إلى الشمس، وراح يتحدث :

- كنا نتدبر أمورنا دائماً. كنت نجاراً، وكان العمل كافياً دوماً. وكل أولادي نجارين. قتل أكثرهم في الحرب- أربعة، وبقي اثنان. لكني الآن أعيش مع أحدهم- ستيفان. أما فانكا، فإنه يعيش في المدينة، في بيسك، يعمل مشرفاً في إحدى المنشآت الحديثة. يراسلنا، أحواله لا بأس بها، يتدبر أموره. حضر لعندنا، حلّ علينا ضيفاً. لديّ العديد من الأحفاد، وهم يحبونني. إلا أنهم جميعاً توزعوا على المدن..

رسمت الفتاة يديّ العجوز. كانت متعجلة، وأعصابها متوترة، وكانت كثيراً ما تمسح ما ترسم.

سألت، ببلاهة:

- هل كانت الحياة صعبة؟

قال العجوز مستهجنا:

- عن أي صعوبة تتحدثين؟. قلت لك: عشنا بشكلٍ جيد.

- هل أنت حزين بسبب الأولاد؟

استهجن العجوز مجدداً. قال:

- كيف لا؟ أن أدفن أربعة – لا أظن أن في ذلك نكتة.

لم تفهم الفتاة. فالشيخ يحزنها أحياناً، وأحياناً تكون مندهشة لهدوئه الغريب، وسكينته.

الشمس تختفي خلف الجبال من جديد، ومن جديد يشتعل الشفق بهدوء.

قال الشيخ:

- سيكون الغد غائماً.

نظرت الفتاة إلى السماء الصافية:

- لماذا؟

- كلّ شيء في جسمي يؤلمني.

- لكنّ السماء صافية

سكت العجوز قليلا.

- هل ستأتي، أيّها الجدّ، غداً؟

لم يستجب العجوز تلقائياً.

- لا أعرف، شيء ما يؤلمني.

قالت الفتاة مستخرجة من جيب جاكيتها حجراً أبيض ضارباً إلى اللون الذهبي:

- ماذا يسمّى هذا الحجر لديكم، أيها الجد؟

سأل الشيخ مواصلا النظر إلى الجبال:

- أي حجر؟

مدت الفتاة يدها بالحجر. فتح العجوز كفّه دون أن يستدير نحوها. سأل ملقياً طرف نظره على الحجر، مقلّباً إيّاه بين أصابعه الجافة، المقفعة:

- هذا؟ إنه حجر صوان. كان الناس، في الماضي، عندما لم يكن الكبريت موجوداً، يشعلون بواسطته النار.

لقد أدهش الفتاة لغز غريب: هيئ لها، أن العجوز ضرير.

لم تجد ما تتحدث به مباشرة، صمتت، ناظرة من جانب إلى العجوز، أما هو فقد راح ينظر إلى حيث كانت الشمس تغيب. كان يراقبها بهدوء، شارد الذهن.

مد يده بالحجر للفتاة:

- خذي... ، وأضاف، وهي تصادَف غير هذا: منها ما يكون كلّه أبيض لامع، وفي داخله توجد فيه بقع صغيرة. ومنها ما لا يمكن تمييزه عن البيض الصغير، ومنها ما يشبه بيض العقعق، مرقط الجوانب، ومنها ما يميل إلى الزرقة كما عند الزرازير.

ظلت الفتاة تنظر طول الوقت إلى الشيخ. ولم تتجرأ على السؤال: هل حقيقة هو ضرير؟

- أين تسكن، أيها الجد؟

- هناك، ليس ببعيد عن هنا. انظري، ذاك هو بيت إيفان كولوكولنيكوف.. وأشار إلى المنزل على الشاطئ- يليه منزل آل بيداريوف، ثم منزل آل فولوكيتين، يليه منزل آل زينوفيوف، وهناك عند الدخلة الفرعية، بالتحديد، يقع بيتنا. عرجي علينا إذا احتجت إلى شيء. عندما كان الأحفاد هنا، كان لدينا مرح كثير.

- شكراً.

- أنا ذاهب، جسمي كله يؤلمني.

ظلت الفتاة تنظر بأثره حتى انعطف إلى الدخلة. وأكثر من مرة كان يتعثر ويتباطأ. كان يسير ببطء ناظراً إلى موطئ قدميه. «لا، ليس ضريراً- استنتجت الفتاة- نظره ضعيف وحسب»

في اليوم التالي لم يأت الشيخ إلى الشاطئ. جلست الفتاة وحيدة، فكرت: «يوجد شيء غير بسيط، وكبير، ومهم، في حياة هذا الإنسان غير البسيطة، وغير العادية... الشمس هي الأخرى تشرق ببساطة، وتغرب ببساطة، فهل يسمى ذلك بساطة؟» وراحت تتأمل رسوماتها بتركيز شديد. كانت حزينة.

لم يظهر الشيخ لليوم الثالث والرابع.

ذهبت الفتاة تبحث عن منزله. وجدته.

داخل سياج بيت خماسي بسقف حديدي، وفي الزاوية، تحت المظلة، كان رجل في الخمسين يمسح لوح خشب صنوبري فوق المنضدة بالفأرة.

- مرحبا، قالت الفتاة.

اعتدل الرجل، نظر إلى الفتاة، مسح بأصبعه على جبينه المتعرق، أجاب:

- عوفيت.

- أخبرني، من فضلك، هل يسكن هنا شيخ..

كان الرجل ينظر إلى الفتاة باهتمام وغرابة. صمتت.

قال:

- كان. وها أنا أعمل له بيتاً صغيراً.

فتحت الفتاة فمها على اتساعه.

- توفي، أليس كذلك؟

- مات.

وانحنى مجدداً فوق اللوح، مسح مرتين بالفارة، ثم التفت إلى الفتاة وسأل:

- وماذا كنت تريدين؟

- لا شيء... لقد رسمته.

- أها. ثم راح يمسح الخشب بشدّة.

سألت الفتاة بعد صمت طويل:

- هل كان ضريراً؟

- ضريراً.

- منذ زمن طويل؟

- منذ عشر سنوات. لماذا تسألين؟

- لا شـيء.

خرجت الفتاة من السـياج.

في الشـارع التصقت بسـياج من الأشـجار المتشـابكة وراحـت تبكـي. كانـت حزينـة علـى العجـوز، وحزينـة لأنها لم تتمكـن من الحديـث عنه، لكنها شـعرت، لتوها بمعنى أكثر عمقاً، وبسـر حياة هذا الإنسان ومآثره، وهي نفسها من حيث لم تكن تشعر، أصبحت أكثر نضجاً.

وحيدان

كان السراج أنتيب كالاتشكوف يحترم من الناس الطيبين واللطيفين. كان في لحظات المزاج الحسن، عندما يسود وئام نسبي في البيت، يقول لزوجته بلطف:

- أنت، يا مارفا، وبالرغم من أنك امرأة كبيرة الحجم، إلا أنك مشوشة الذهن.
- ما مناسبة هذا الكلام؟
- لأنك... ماذا ينقصك، حتى أظل أخيط ليلاً ونهاراً؟ إن لدي روح، إنها تتوق للحركة، تود لو أمارس هواية أحبها.
- إنني أبصق على روحك، هذي.
- أوف.. أوف.
- لماذا تتأفف؟ لماذا تتأفف؟
- تذكّرت أباك الكولاك[1]، عليه الرحمة.

اعتدلت مارفا ضخمة الجثة، والمخيفة، واضعة يديها على خاصرتيها، ملقية نظرة قاسية على أنتيب. أنتيب الضئيل، ضامر الجسم، تلقى نظراتها بثبات:

- أنت، لا تذكر أبي على لسانك! هل فهمت؟
- أجاب أنتيب ذليلاً:
- أها، فهمت.
- إيّاك، إيّاك.

١ ـ الفلاح الملاّك المتوسط في روسيا القيصرية.

- ما بك، مارفا؟ أنت جَدُّ شديدة. لا يجوز ذلك، يا عزيزتي: ستتعبين قلبك وتموتين.

إنها ورغم مرور أربعين سنة على حياتهما المشتركة، لم تتعلم؛ متى يكون كلامه جاداً، ومتى يكون مزاحاً.

- خِط، على أي حال.

- هأ أنا أخيط، أيتها الأم، أخيط.

كانت روائح الجلد المدبوغ، والقطران، والقار القوية التي لا تمحى، تعشش في بيت آل كالاتشكوف. كان البيت كبيراً، جيد الإنارة، يضجّ بضحكات الصغار، وفي مرحلة تالية امتلأ بالأعراس، وأحياناً بساعات الليل الكئيبة، غير المريحة، عندما كانت المرآة المغطاة، وضوء الشمعة الشاحب، يكشفان قليلاً ـ قليلاً سر الموت العميق. كانت هناك أشياء كثيرة تموت. لقد أخرج أنتيب كالاتشكوف من خلال نصفه عظيم القدرة، اثنتي عشرة روحاً، وقد كانوا ثمانية عشرة.

لقد تغيّرت هيئة البيت مع السنين، لكن ركن عمل أنتيب بقي ثابتاً ـ إلى اليمين من المدفأة، خلف الحاجز. هناك، كان أنتيب يخيط أطقم الخيل، والأعنّة، والسروج، وكان يصنع النيرة. وهناك أيضا كانت معلقة آلة البلالايكا[1] المحبوبة. لقد كانت عشق أنتيب. كانت حبّه العميق في الحياة كلها، كان قادرا أن يعزف عليها ساعات طوال دون ملل، مميلاً رأسه جانباً عليها، ولم يكن مفهوماً: أكانت تحدّثه هي بشيء عزيز، كان قد نسيه منذ زمن طويل، أم كان هو يبث لها أفكاره أفكار العجوز المتأني. كان باستطاعته أن يجلس هكذا يوماً بأكمله، وكان يفعلها عندما لا تكون مارفا موجودة، وبالفعل كانت مارفا ترغب أن يعمل الأيام بطولها فقط في الخياطة: كانت تحب المال بشغف، وترتجف على كل كوبيك[2].

١ ـ آلة موسيقية شعبية روسية. وهي وترية مثلثة الشكل، تصنع من الخشب.
٢ ـ أصغر وحدة في العملة الروسية.

وكانت طول حياتها في صراع مع البلالايكا. وصل الأمر مرّة إلى أن رمتها في لحظة غضب في نار المدفأة. وراح أنتيب ينظر إليها حينها وهي تحترق وقد شحب وجهه. اشتعلت البلالايكا فوراً، مثل لحاء شجر البتولا. راحت تتلوى... أصدرت أنيناً ثلاث مرات، أنيناً يشبه أنين البشر تماماً.. ثم لفظت نفسها الأخير.

خرج أنتيب إلى حوش البيت، أخذ فأساً وراح يكسر النيرة المصنّعة، والسروج، والأطقم إلى قطع صغيرة. كان يكسر بصمت، وبدقة، على المنضدة. لم تتفوه مارفا الخائفة بشيء. بعد تلك الحادثة شرب أنيتب لمدة أسبوع، دون أن يعود إلى البيت، ثم عاد، علق على الحائط بلالايكا جديدة وجلس للعمل. بعدها، لم تتجرأ مارفا على سيرة البلالايكا، لكنها كانت تراقب أنتيب بدقة: لم تكن تجلس عند الجيران طويلا، وبشكل عام كانت تحاول أن لا تغيب عن البيت كثيراً. وكانت تعرف: إنها وحدها عند العتبة، أنتيب يتناول البلالايكا، يحاول أن يعزف لكنها لا تعمل.

جلسا في إحدى الأمسيات الربيعية أنتيب في زاويته، مارفا على الطاولة مع حياكتها. جلسا صامتين.

كان حوش البيت موحلاً بسبب المطر. أما داخل البيت فقد كان دافئاً ومريحاً. كان أنتيب يدق المسامير النحاسية الصغيرة في النير بواسطة المطرقة: تيك.. تيك.. تيك... وضعت مارفا حياكتها جانبا، وراحت تنظر من النافذة وهي تفكر بشيء ما. تيك.. تيك.. تيك.. تيك. كان أنتيب يدق، وكانت الخطوات تصدر صوتاً، وبدت كما لو أنها ستتوقف حالاً. لكنها لا تتوقف. كان المطر يضرب النافذة برشقات ناعمة ومكتومة.

سأل أنتيب:

- لماذا تكدّرت، يا مارفنكا[1]؟ أما زلت تفكرين كيف توفرين نقوداً أكثر؟

١- صيغة التحبب من اسم مارفا.

تصمت مارفا، ناظرة من النافذة، شاردة الذهن. نظر أنتيب إليها:

- سنموت قريباً، فكّرتِ أم لم تفكّري. فكّرت أم لم تفكّري، مائة روبل ليست نقوداً.

كان أنتيب يحب الحديث أثناء العمل:

- فكّرت أنا طول حياتي، وما خرجت من كل ذلك إلا بباسور. عملت! لكن اسألي: هل وجدت شيئاً جميلاً في الحياة؟ لا شيء، مع أن الناس يكابدون.. قاموا بانتفاضات مختلفة، شاركوا في الحرب الأهلية، وفي الحرب الوطنية.. وبالرغم من أنهم ماتوا بشكل بطولي، إلا أنني مذ بدأت العمل في الثلاثين من عمري، ما زلت أجلس في المكان ذاته، وقريباً سأبلغ السبعين. أي صابر، أنا! أفكّر الآن: من أجل ماذا كنت أعمل؟ لماذا لم أبخل بالنقود في أي يوم، إنني أبصق عليها. إنني لم أصبح من الناس الكبار أيضا. وحرفتي ستختفي قريبا، لن تكون هناك حاجة إلى سراجين. وأتساءل، لماذا أُعطيت الحياة إذاً؟

قالت مارفا جادة:

- من أجل الأبناء.

لم يكن أنتيب ينتظر أن تشارك زوجته بالحديث. عادة ما كانت تقاطع ثرثرته بملاحظات ما مهينة. انتعش وواصل الحديث:

- من أجل الأبناء! هذا صحيح من جهة، لكنه من جهة أخرى، ليس صحيحاً.

- من أي ناحية هو غير صحيح؟

- من ناحية أننا لا يجوز أن نعيش من أجل الأبناء فقط. لا بد وأن نعيش من أجل أنفسنا قليلاً.

- وماذا فعلت أنت من أجل نفسك؟

لم يجد أنتيب ما يجيب به مباشرة:

- كيف هذا، ماذا فعلت؟ كان بإمكاني أن أجد شيئاً.. كان بإمكاني، أن أصبح موسيقياً. جاء وقتها رجل من المدينة، وقال، إنني صاحب موهبة، والموهبة- قطعة من الذهب الخالص، إنها ندرة، هكذا أفهمها. من أنا الآن؟ سراج عادي، وقد كان بإمكاني أن أكون...

لوحت مارفا بيدها:

- توقف، كفى! لقد أصبح الاستماع إلى حديثك مقززاً.

أخذ أنتيب شهيقاً:

- هذا يعني أنك لا تفهمين.

صمتا بعض الوقت. فجأة بكت مارفا، ومسحت دموعها بالمنديل، وقالت:

- لقد تفرق أبناؤنا في جهات الأرض.

علق أنتيب:

- وما في ذلك، هل عليهم أن يبقوا إلى جانبك أبد الدهر؟

قالت مارفا فجأة:

- كفى دقاً! دعنا نجلس ونتحدث عن الأبناء.

ابتسم أنتيب، ركن المطرقة جانباً، وقال بمرح:

- استسلمت يا مارفا، هل ترغبين بأن أعزف لك، أُشعل أشواقك؟

وافقته قائلة: اعزف

غسل أنتيب يديه ووجهه ومشّط شعره

- أعطني قميصاً جديداً.

أخرجت مارفا قميصاً جديداً من الصندوق. ارتداه، وحزم نفسه بحزام. أنزل البلالايكا عن الجدار، جلس في الزاوية الحمراء، نظر إلى مارفا: نبدأ حفلنا!

نصحته مارفا:

- فقط، أرجوك لا تتظاهر بالهبل.

قال أنتيب مفاخرا: سنتذكر الآن شبابنا. ثم أضاف وهو يعدّ البلالايكا- هل تذكرين، كيف أقمنا حفلات الرقص على الغدران؟

- أتذكر، وماذا يعني أن أتذكر؟ تراني أصغر منك عمراً.

- بكم أصغر مني؟ بثلاثة أسابيع ونيف؟

- ليس بثلاثة أسابيع، بل بعامين. في ذلك الوقت كنت أنا في ريعان الشباب، أما أنت فقد بدأ ظهرك بالتقوس.

ابتسم أنتيب:

- ومع ذلك، فقد كنت شاباً عالمياً. هل تذكرين كيف لاحقتِني مغازِلة؟

- من؟ أنا؟ إلهي! على من تسوّق هذا الكلام؟ من أضاع حجلة بنطاله في حوش بيتنا؟

- لنفترض أن الحجلة كانت لي...

شد أنتيب آخر مفتاح في البلالايكا، أمال رأسه الصغير على كتفه، ضرب على الأوتار... وبدأ العزف، انسكبت موسيقى أيام الشباب البعيدة، الموسيقى الهادئة المتألقة في المكان الدافئ، في عتمة الكوخ. أعادت ذكريات أماسي أخرى، وأثارت الأفكار حول أشياء مهمة في الحياة، التي لا نسمعها عادة، أشياءٍ مهمة بشكل جيد وحزين.

غنّى أنتيب، وأشار إلى مارفا برأسه، استجابت الأخيرة، مساندة بالغناء:

لا تخيطي لي، يا أماه،

سارفان أحمر اللون.

لا تدخلي يا عزيزتي،

في الخسارة سُدى..

غنيا، ليس بشكل متناسق تماماً، لكن الغناء جعلهما سعيدين بشكل عجيب. قفزت إلى الذاكرة مشاهد منسية، فتارة يظهر السهب الواقع خلف قريتهم، وتارة شاطئ النهر، وتارة يتذكران همسات حرش أشجار الحور، المعتم، الكثيف بعض الشيء... وكان شيء حلو ينبض في كلّ هذا. لم يظهر الخريف، ولم تكن هناك وحدة، ولم تكن نقود، أو أنيرة...

بعدها عزف أنتيب عزفاً مرحاً. وراح يمشي في الكوخ بخيلاء، هازاً فخذيه الهزيلين.

آخ، تام، ري- تا- تام.

يا ألحاني، تعالي تمشي،

اعزفي،

راح يقفز. ابتسمت مارفا، ثم لوحت بيدها، لكنها هنا راحت تمسح الدموع عن عينيها، ثم ابتسمت من جديد:

- ليته لا يقترف الجنون، يا رب! تراني لا أستطيع أن لا أنظر إليه.

أشرق وجه أنتيب، والتمعت عيناه الصغيرتان الذكيتان ببريق مبهر.

آخ، مارفاي،

آخ، مارفنكا،. إنك تستعبديني من أجل وشاية!

- هل تذكر يا أنتيب، عندما أخذتني إلى المدينة، إلى سوق النيرة؟

هز أنتيب رأسه.

آخ، أذكر، يا حبيبتي،

أذكر يا مارفنكا!

آخ، يا للنكتة،

عدس أم كرسنة.

قالت مارفا بلطف:

- مجنون أنت يا أنتيب! الشيطان يعلم ماذا تؤلف.

آخ مارفوشينكا[1]. حبيبتي،

الفرح يملأ الدنيا...

راحت مارفا تدور:

- لا، أنت لست مجنوناً، يا أنتيب!

آخ، تام، ري- تا- تام،

الحاني الحبيبة!

قالت مارفا وهي تمسح الدموع:

- اجلس، دعنا نغني أغنية مشتركة.

صدر عن أنتيب لهاث خفيف، نظر إلى مارفا مبتسماً.

- ماذا قلت؟! لكنك كنت تقولين: لديك صوت سيء، يا أنتيب!

صوبت له مارفا الكلام:

- لا، ليس سيء، لكن فيه شيء من الجنون.

قال مستاء قليلاً من هذا التأكيد.

١- صيغة المبالغة بالتحبب من اسم مارفا.

- هـذا يعـني، أنـت لا تفهمـين، أتدريـن كيـف كان بإمكاننـا أن نعيـش؟ روحاً بروح. لكن كل ما كان يعذبك هو النقود اللعينة. لا تزعلي، طبعاً.

- ليست النقود ما كان يعذبني، بل غيابها.

- كان دوماً لدينا ما يكفي منها.. دعينا، رجاء. لن نتجادل. أي أغنية تريدين، مودموزيل فراو؟

- تلك التي تتحدث عن الفتى فولوديا.

- إنها ثقيلة، لكن هيّا بنا!

- لا بأس، سأرقص أنا قليلاً.

غنى أنتيب.

آخ، لا تحلّقي أيتها النوارس فوق البحر،

لا مكان تحطّين عليه، أيتها المسكينة.

طيري إلى سيبيريا، المكان البعيد،

احملي معك الخبر الحزين.

كان يغني من الأعماق، متفكراً، تماماً كما لو أنه يتحدث.

آخ، في الساعة الثانية عشرة، في الليلة المظلمة،

قتلوا الفتى فولوديا،

في الصباح، خرج الابن الأصغر....

صفقت مارفا بيديها. قالت من خلال الدموع:

- أنتيب، أنتيب! سامحني، إذا ما أسأت إليك بشـيء.

قال:

- هذا سخف، أنت أيضاً سامحيني، إذا ما أخطأت.
- إنني لا أسمح لك بالعزف...

قال مجدداً:

- مرة أخرى هذا سخف، أعطني حريتي.. حتى أعزف لك ليل نهار. وهكذا لا يجوز. إنني أفهم.
- هل ترغب، بأن نشتري لك ربعية؟

قال موافقاً:

- ممكن.

مسحت مارفا دموعها، ونهضت.

- اذهب إذاً إلى الدكان، وأنا سأُحضّر العشاء.

ارتدى أنتيب معطفه التاربولين (المشمع)، وقف وسط الكوخ، انتظر حتى تتمكن مارفا من تحصيل النقود من قاع الصندوق الكبير، تحت الخرق الكثيرة. وقف وراح ينظر إلى ظهرها العريض. بدأ الكلام بلا مبالاة:

- يا له من أمر! لقد أصبحت هرمة... إنني بحاجة إلى واحدة جديدة. لقد أحضروها إلى الدكان بالأمس فقط. دعيني أشتري واحدة.

توقف ظهر مارفا عن الحركة

- ماذا؟
- بلالايكا.

تحركت مارفا من جديد. أخرجت النقود، جلست على الصندوق وراحت تعدها ببطء وصعوبة، محركة شفتيها ومقطبة الجبين. قالت:

- إنها ما زالت تعزف.

- لقد انشرخ لوح فيها.. إنها ترتج.
- ألصقها. ألصقها بالقطران بشكل متقن.
- وهل يمكن إلصاق آلة موسيقية بالقطران؟ ماذا تقولين. سامحك الله!

صمتت مارفا. ومن جديد راحت تعد النقود. كانت هيئتها صارمة ومهمومة. مدّت يدها له بالنقود، ولم تنظر في عينيه:

- خذ.

تدلت شفة أنتيب السفلى

- فقط من أجل ربعية؟ أها؟
- لا بأس، إنها ستظل تعزف لديك. ألم تر كيف عزفت اليوم؟

زفر أنتيب بشدة، وقال:

- آخ منك، يا مارفا!
- لماذا آخ، لماذا؟
- هكذا.. لقد خرجت الكلمة مني.

ثم استدار وتوجه نحو الباب.

سألت مارفا فجأة وبصرامة.

وكم سعرها؟

توقف أنتيب عند العتبة

- إن سعرها كوبيكات! ستة روبلات بالأسعار الجديدة.

مدت مارفا يدها بالروبلات الستة، وقالت بانزعاج:

- خذ.

اقترب أنتيب من زوجته بخطوات سريعة، أخذ النقود وخرج صامتاً، مفكراً:

- الحديث أو التأخير خطيران. بإمكان مارفا أن تتراجع.

أندريه بلاتونوف

(١٨٩٩–١٩٥١)

- عجول الأهالي.

أندريه بلاتونوف

اسمه الحقيقي أندريه بلاتونوفيتش كليمنتوف. ولد في قرية يامسكايا في محافظة فورونيج في روسيا. كان والده سائق قطار، وسبّاكاً، وحائزاً على لقب بطل العمل مرتين. له عشرة من الإخوان هو أكبرهم. أنهى المدرسة والتحق بالعمل باكراً، عمل بالمياومة، وصبياً في جمعية تأمين، ومساعداً لسائق قطار، وسبّاكا في مصنع، وفي مشاغل صناعة أحجار الرحى.

درس الميكانيك بتخصص سكك الحديد. وعمل في تحرير مجلة «الدرب الحديدي»، ومراسلاً حربياً في الحرب الأهلية التي حدثت بعد ثورة أكتوبر ١٩١٧، وبدأ في تلك الفترة نشاطه الأدبي بوصفه شاعرا وكاتبا وناقدا. جُنِّد لدعم الجبهة، فعمل سائق قطار حربي، ثم انتقل إلى قسم المهام الخاصة في سكة الحديد، ثم عمل مهندسا مختصا بكهربة الاقتصاد الزراعي. وبنى ثلاث محطات كهربائية.

كتب روايتي الخندق، وتشيفينغور (١٩٢٧-١٩٣٠)، اللتين صورتا عالم الاتحاد السوفيتي في فترة التصنيع والتعاونيات الزراعية (الكلخوز) بروح ساخرة. لكنهما لم تنشرا في حياته. اضطهد في العهد الستاليني، عندما اطلع الأخير على قصته «المتاجرة» كتب: كاتب موهوب، لكنه نذل. وقد لاقت تلك القصة انتقادات شديدة من ستالين، الذي وصف الرواية في مقالة نشرها قائلا: إنها قصة عميل لأعدائنا، كتبت بهدف التخريب على الحركة التعاونية الزراعية «الكلخوزية»، مطالبا بمحاسبة الكاتب والناشر.

سافر سنة ١٩٣٤ في رحلة إلى أسيا الوسطى، عاد منها بقصة «تاكير»، إثرها عادت الملاحقات. ولم تعد الصحف تنشر مقالاته. نشر قصص: «الخلود»،

و«البيت الطيني في حديقة القرية»، و«الابن الثالث»، و«سيميون»، ورواية «نهر بوتودان» سنة ١٩٣٧.

شارك في حوارات فلسفية حول الحرية والاغتراب، تحولت إلى تيار فلسفي. اعتقل ابنه ابن الخامسة عشرة سنة ١٩٣٨، وخرج بعد عامين مريضاً بالسل، انتقلت العدوى للأب وهو يعتني به، وظل مريضاً به حتى وفاته.

في الحرب العالمية الثانية عمل مراسلاً حربيا لجريدة النجمة الحمراء، وظهرت قصصه عن الحرب في الصحف. وقد شارك في العمليات القتالية، ومع ذلك لم يُقدَّر مثل بقية زملائه الآخرين. وقد سرح من الجيش بسبب المرض سنة ١٩٤٦.

نشر قصته «العودة» سنة ١٩٤٦، تعرض إثرها للهجوم، واتُّهم بالافتراء على المواطنين السوفيت، والعائلة السوفيتية، وعلى المنتصرين العائدين من الحرب. ولمّا لم يعد قادرا على كسب قوته من خلال الكتابة في نهاية الأربعينات، راح يعمل في إعادة تحرير القصص وتحويلها إلى قصص للأطفال.

توفي سنة ١٩٥١، في موسكو متأثرا بمرض السِّل.

عجول الأهالي

تقف خلف مناجم كريند اتشيفسك محطة غنية، لا ليس محطة، بل بئر قمح.

وتحت السهول القوزاقية، التي مّر منها يوماً تاراس بولبا[1] مع أبنائه إلى زبوروجسكايا سيتش، يرقد مسترخيا فوق شحم الأرض منذ آلاف القرون – الفحم السميك، المرصوص، قوة الصخر.

في بيوت طينية بيضاء يعيش في الأعلى أحفاد الزبوروجيين[2]، وقد نسوا حكايات السلطان التركي، سيوف قديمة معوجّة فقط، معلقة في الغرف، وعلى أغمدتها كلحت الزخرفة الفضية العتيقة.

كبار السن ما زالوا يذكرون أغاني المسير القديمة الشجيّة، مع الصفير عن الأتراك «السفلة»، والطرقات المتربة. وعندما جاء البلاشفة[3] من موسكو، راحوا يتنبئون أن الأتراك استداروا من الجهة الأخرى وهم يهاجمون الأرثوذكس.

أوعز الشيوخ لكل الشباب من أجل اعتلاء الخيول مثل البواسل للدفاع عن الدين المقدس، وعن الأعراض، وعن كل شعبهم المسالم. وكان الشيوخ المتعبون يقولون عند الرحيل.... ارفسوا الجميع، أيها الأبناء، ليبقى الصليب المقدس في سهولنا،....

---

١ ـ أحد الأبطال الشعبيين الروس، من القوزاق وهم قوم عاشوا في جنوب وأواسط روسيا اشتهروا بحب القتال. اشتهر بحزمه، إذ قتل ابنه لخيانته وانضمامه إلى الأعداء بسبب حبه لفتاة من الأعداء. توجد رواية تحمل نفس الاسم للكاتب الروسي الشهير غوغول.

٢ ـ نسبة إلى مدينة زابوروجيا، وهي مهد القوزاق، وتقع في وسط روسيا.

٣- البلاشفة هم الشيوعيون الذين أسقطوا الحكم القيصري وأقاموا النظام السوفيتي بثورة ١٩١٧في روسيا.

لكنَّ الأبناء الأربعينيين كانوا يلتزمون الصمت ناظرين بعيون متعبة إلى القرية التي كان المساء يهبط على حدودها. لقد كانوا يعرفون ماذا تعني الحرب، ولم يكونوا يشعرون بالصليب، مثل الآباء، كل ما كانوا يحلمون به: أغنام وعجول، وبيت حجري، وحيازة تكفيهم مئونة العيش.

ورغم أن الخطيئة لا تذهب إلى الكنيسة، إلا أن حياة الفقر والإفلاس، واعتلاء الخيول في السهب.. ليست هي المثل الأعلى المطلوب.

لا تستسيغ النفس الابتعاد عن ساحة المنزل، والمزرعة، والقرية العزيزة، والزوجة، وكل شيء، تعيش فيه ومن أجله،... الذي يدعوا له الشيوخ.

يأتي كاتسابيون إلى النساء القوزاقيات من المناجم في الأعياد؛ لم يكونوا قد تعمدوا في المعبد ويهددون أصحاب البسطات بالبلاشفة وهم في حالة من السكر، قاتمي البشرة، غرباء، يجوبون شوارع القرية حتى الفجر.

لنترك، يا فانكا، شرب الفودكا.

ولنذهب إلى العمل.

سوف نحصل على النقود كل سبت.

جاء دينيكين[1]، جمّع القمح والعجول، شنق ثلاثةً من عمال المناجم والتحق بموسكو.

تكدّرت النفوس حتى عند شيوخ القوزاق. وأصبحت ساحات البيوت والعنابر أهدأ وأحب، وأصبحوا أقل صراخا على نسائهم.

أين هي الحقيقة الإلهية؟ هل يمكن معرفتها من أولئك الذين لا يملكونها من حاملي الصلبان. ومن الصليب يطل وجه المسيح الدجال...

١- كان فريقًا في الجيش الإمبراطوري الروسي ١٩١٦م. وواحدًا من أول جنرالات الحركة البيضاء في الحرب الأهلية الروسية بعد الثورة البلشفية.

توقف الكاتسابيون عن المجيء من المناجم. اختفوا مرة واحدة.

لا تدعـوا الأطفال يتسـكعون فرادى، سـيصنعون منهم حسـاء حامضا، أولئـك الفقـراء في الأسمـال الباليـة وخفاف القـش.... هـكذا كانـت العجائز يُهلِّسن عليهم.

كان القـوزاق يسـكرون: الـرب لم يعط الضفدع ذيلا، حتى لا تسـحق العشب، ولم يعط العجائز العقل، كما الذيـل للضفدع.

رجعت الريـح بالجنرالات، استولوا على العجول، وأبقوا فقط لبعضهم زوجا، ولآخرين زوجين واختفوا باتجاه البحر الأسود.

أثارت العجول غير متعجلة الغبار لآخر مرة، واختفت للأبد.

ذهـب مع الجنرالات عدد كبير من الشـباب والشـيوخ. ولم يبق سـوى من تكدّرت نفسه، ومن أضاع نهايات الحقيقة المعتادة أو خاف على السهل وحيازة الأرض.

جاء البلاشفة. جاؤا إلى الجد أنطون كاربيتش ومن دون سؤال أو حوار اقتحم الكوخ شاب مرح يرتدي سترة جلدية ولم يرسم إشارة الصليب على جبينه:

- العوافي، أيها القروي!
- عوفيت.
- هل البيض[1] بعيدون؟
- ومن لاحقهم؟
- هل يمكن أن أدخن؟
- أنت حر.
- هكذا إذا! لا تغضب، أيها العجوز، سوف أدخِّنُ سيجارتي وأذهب. لن نمسّكم بسوء، لم نأت لنسـيء إليكم، عيشوا حياتكم.

١- البيض هم ضباط الجيش القيصـري الذين ظلّوا يقاومون الثورة البلشفية الشـيوعية، وكانت راياتهم بيضاء.

- جلس الشاب المرح ذو السترة الجلدية، ضحك ثم ذهب.
- وداعا.
- سر العجوز
- اللّه معك، يا بني! هؤلاء بشر

هؤلاء أيضا بشر. عند المساء، وما أن بدأ البلاشفة بالرحيل، حتى ذهب إليهم يحمل شرائح الشحم، وأعطاها للازم من الحمر[1].

- شكراً، أيها الأب! سنلتقي مرة أخرى.
- كيف؟ وقد أخذوا كل العجول، وحملوا القمح أيضا.
- لا بأس، لا بأس، سوف نعمل، ونوفّر، سوف نعيش. الآن، أصبح الأمر واضحاً. الوضع سيء بالنسبة للجميع، سوف نصبر.

دخل العجوز وسط تجمع للجنود، تأملهم، وراح يستمع.

- هل يعني ذلك أن ننتظرهم؟
- كما ترغب، يمكنك أن تنتظر، لكنهم لن يأتوا.
- ألست أنت من سلالة تركية؟ وتحمل صليبا؟
- علينا أن نحرق الصليب، لقد صلبوا عليه المسيح. أما نحن فكلنا من أصل واحد. هؤلاء يحمّلون الصليب للجميع، أما نحن فنريد أن نُنزِل الصليب عن ظهورنا، حتى نتمكن من الحياة بسهولة أكثر.
- هكذا إذا...

استمع العجوز لكل تلك الكلمات، ثم ذهب إلى بيته ليفكر.

وذهب البلاشفة أيضا. كان قد بقي عند جار روديونيتش زوج من العجول. كان يأتي كل مساء إلى أنطون كاربيتش و يحلف مبديا سرورا:

١- الحمر، هم أفراد الجيش الأحمر، وهو جيش الثورة البلشفية، وكانت راياتهم حمراء .

- أهـا؟ ألا ترى أنني ما زلت ملّاكا، يـا كاربيتش؟ ماذا تقول؟ يمكن أن تنقلب الجبهة. ويعود السهب لنا، والعجول، وتعود البيوت سليمة، و نحتفظ بالقمح حتى الصيف... ونُسقط الصلبان عن الكنائس، كان ذلك كذبٌ خالص.

فكَّر كاربيتش، وفكر، أين هو الشيطان الحقيقي، أين هي دمغته مطبوعة؟ أليست هناك حيث توجد عجوله؟ لا يمكن أن يكون الصليب ختم الشيطان... لا يمكن، بأي حال من الأحوال، أن تكون الصلاةُ لما عُذّب عليه المسيح، كيف لم يعرف أحد هذا الأمر؟

تذكر الشابُ المرحُ الرجلَ ذا السترةِ الجلدية. أليس هو الشيطان، والدمغة عليه من السماءِ- النجمة.

غفى كاربينش، ورأى فيما يرى النائم عجوله تتجول في البراري هادئة، عائدة من البحر الأسود.

١٠ نيسان ١٩٦٦

ألكسندر سولجنيتسين

(١٩١٨-٢٠٠٨)

- احتفالية عيد الفصح.

ألكسندر سولجنيتسين

أديب ومعارض روسي سوفيتي. كاتب مسرحي وروائي ومؤرخ. ولد في كيسلوفودسك في مقاطعة ستافروبول. والده كان ضابطا في الجيش القيصري، ووالدته كانت مثقفة. درس الرياضيات، في ولاية روستوف على الدون، ثم الأدب والفلسفة والتاريخ في موسكو، شارك في الحرب العالمية الثانية. اعتقل سنة١٩٤٥، وأمضى سنوات في معسكرات الاعتقال في سيبيريا، التي كانت تسمى الغولاغ. كان من المشكِّكين بالأسس الأخلاقية للنظام السوفيتي. أطلق سراحه سنة ١٩٥٦ في عهد الزعيم السوفيتي خروتشوف. نفي خارج روسيا سنة ١٩٧٤، لكنه عاد إليها سنة ١٩٩٤ في مرحلة البيروسترويكا. جعل الناس، من خلال كتاباته، يحذرون من الغولاغ، خاصةً في روايتيه أرخبيل غولاغ، ويوم في حياة إيفان دينيسوفيتش -وهما اثنتان من أشهر أعماله. وهو والد إغنات سولجنيتسين غازف البيانو الشهير.

احتفالية عيد الفصح

يعلمنا بعض العارفين هذه الأيام، بأنه لا يلزم أن نرسم الأشياء بالألوان الزيتية كما هي تماماً، أو كما هو في الصورة الفوتوغرافية. فلا بد أن توصل الفكرة من خلال الخطوط المنحنية، ومن خلال توليفة الأشكال المثلثة والمربعة عوضا عن الأشياء ذاتها.

أمّا أنا فلا أستوعب أن تتمكن الصورة الفوتوغرافية من انتقاء الوجوه الضرورية مع الأفكار وأن تحشرها في لقطة واحدة من مسيرة احتفالية عيد الفصح لدى بطريركية كنيسة بيريديلكينسكايا بعد نصف قرن من الثورة. الشيء الوحيد الذي أوضح لنا الكثير هو مسير هذا اليوم، وما رسمه بأقدم الوسائل حتى من دون مثلثات.

ظهرت ساحة بطريركية كنيسة «صورة الرب» بنصف ساعة قبل الاحتفال كأنها دربكة في ساحة رقص في قرية عمالية متهورة. الفتيات كن يرتدين إشاربات ملونة وبناطيل رياضية(وتنانير أيضا)، أصواتهن عالية، كنّ يمشين بمجموعات من ثلاثة أو خمسة أشخاص، يتزاحمن نحو الكنيسة، لكن مدخل الكنيسة كان مزدحما، إذ اتخذت العجائز أماكنهن منذ المساء الباكر، الفتيات الصغيرات رحن يتبادلن معهن الصراخ في الخارج، أحيانا يدرن في ساحة الكنيسة، يصرخن بلا ضوابط، يتنابزن بالألقاب من بعيد، ويراقبن مواقد نيران خضراء ووردية وبيضاء أشعلت عند الإيقونات الجدارية الخارجية، وعند أضرحة الأساقفة والمطارنة، أما الشباب الأقوياء كثيري البصاق، كانوا جميعا يحملون تعابير المنتصر(على من انتصروا خلال أعمارهم التي تتراوح ما بين الخامسة عشرة والعشرين؟) هل

بتصويب الكرات في الشباك.. جميعهم يرتدون قبعات الكاب، أو الفرو، وبعضهم كان حاسر الرأس، ليس لأنهم خلعوا قبعاتهم هنا، بل لأنهم يخرجون هكذا، كل رابع منهم في حالة انتشاء من المشروب، وكل عاشر سكران، وكل ثان يدخن، وكانوا يدخنون بطريقة مقززة، يثبتون السيجارة على شفتهم السفلى. وحتى قبل البخور، أو بدل البخور، كانت سحب الدخان الأزرق ترتفع عبر الأنوار الكهربائية من باحة الكنيسة إلى سماء الاحتفال في سحب غير متحركة عاصفة. يبصقون على الإسفلت، يدفعون بعضهم بعضا للتسلية، يصفرون بصوت عال، وبعضهم يرسلون أقذع الشتائم، حاملين معهم أجهزة ترانزيستور مثيرين الحرارة في ساحة الرقص، وبعضهم يحضن عشيقته تماما في الممر، ويتجاذبون الفتيات فيما بينهم، يراقبون الاحتفال بضوضاء، وما عليك إلا أن تنتظر أن يستلوا حرابهم: في البداية يوجهون الحراب ضد بعضهم بعضا، وبعد ذلك ضد المؤمنين من المسيحيين الأرثوذكس. لأن جميع هؤلاء الشباب ينظرون إلى المؤمنين لا نظرة الصغير إلى الكبير، ولا نظرة الضيف إلى المضيف، بل نظرة السيد إلى الذباب.

لا يلجأ أحد إلى الحراب- ثلاثة أو أربعة من الشرطة، يتلكئون هنا وهناك للاستعراض. الصراخ الذي تسمعه ليس زعيقا عبر الباحة، بل هي أصوات، أحاديث روسية حميمة, ومع ذلك لا ترى الشرطة مخالفات، ويبتسمون بود للجيل الناشئ. لا تلجا الشرطة إلى سحب السجائر من بين الأسنان، ولا يلقون القبعات عن الرؤوس: فهذا يحدث في الشارع، وحق الكفر بالخالق محميّ بالدستور. الشرطة ترى بصدق أن تدخّلها لا مكان، لأنه لا توجد قضية جنائية هنا.

لم يكن بإمكان المؤمنين المدفوعين حتى سياج المقبرة، وجدران الكنيسة، الاحتجاج. كانوا يتلفتون إلى الوراء، مستغربين أنهم لم يطعنوا بعد، وأن أحدا لم يجردهم من ساعات اليد، التي تضبط بها الدقائق الأخيرة لقيامة المسيح. هنا، وخارج المعبد، كان المؤمنون أقل بكثير من الأحرار الماجنين.

إنهم خائفون، يتعرضون لمضايقات أسوأ بكثير مما كان في عهد التتار.

ما كان للتتار أن يجثموا على صدر الصبح.

لم يتم تجاوز حد الحرية، والشجار كان غير دموي، أما الإهانة فكانت معنوية- في تلك الشفاه، الملتوية بالكلمات والأحاديث البذيئة، في الضحكات، وقرص الفتيات، والتدخين، والبصاق على بعد خطوتين من أهوال القيامة.

لقد أتى الأغرار بكثير من الازدراء والتعالي لمشاهدة كيف كان أجدادهم يعيدون طقوس أسلافهم.

يبرز من بين حشد المؤمنين وجه أو وجهان ناعمان من وجوه اليهود، ويمكن أن يكونا معمّدين، ويمكن أن يكونا من الغرباء. يراقبان بحذر، منتظرين مسيرة الفصح أيضا.

نحن جميعا نشتم اليهود، فهم يقفون في طريقنا دائما، وإذا ما تأملنا جيدا: أي مواطنين روس أنشأنا خلال هذه المدة؟ عندما تتأمل- سوف تقف متجمدا.

وكما يبدو لا المداهمات في الثلاثينيات، ولا الطعام المكرّس الذي كان يخطف من الأيدي، ويقذف به كسموم للحيوانات- لا! يبدو هذا مثيرا للفضول: انتهى موسم الهوكي على الجليد في التلفزيون، ولم يبدأ موسم الكرة، هناك شوق- وها هم يندفعون إلى نافذة الشموع الصغيرة، دافعين المصلين كأنهم أكياس نخالة، يشترون الشموع، لا يُعرَف لماذا، شاتمين في نفس الوقت اتجار الكنيسة بها.

شيء وحيد غريب: الجميع وافدون، والجميع يعرف بعضهم بعضا، وبالأسماء. كيف حدثت تلك الصداقات بينهم؟ هل هم من مصنع واحد؟ ألا يتمشى مسؤولهم الحزبي هنا؟ ومن الممكن أن تسجل هذه الساعات لهم كعمل تطوعي؟

يقرع الجرس فوق الرؤوس قرعات قوية- لكن يوجد تغيير: ضربات صفيحية بدل الضربات ذات الصوت الممتلئ. يقرع الجرس معلنا بدء مسير الفصح.

وهنا احتشدوا! لم يكونوا المؤمنين، بل أولئك الشبان الهادرين. لقد زاد عددهم الآن مرتين أو ثلاث مرات في الباحة، إنهم يسيرون متعجلين، لا يعرفون أنفُسهم عن ماذا يبحثون، وأي طريق يتبعون، ومن أين يبدأ المسير. راحوا يشعلون شموعا حمراء صغيرة، وبعدها يشعلون السجائر من تلك الشموع، نعم هكذا! كانوا يتجمهرون، كما لو أن فوكستروت[1] سيبدأ في تلك اللحظة. كان ينقصهم هناك كشك للبيرة، حتى يتمكن أولئك الفتية مشعثو الشعر- هذا لا يحط من سلالتنا- من ننفخ غثاء البيرة على القبور.

لقد بدأ رأس المسيرة من تحت طنف الكنيسة، وها هو يلتف نحونا تحت قرع الأجراس. أمام المسيرة كان رجلان يدل مظهرهما على أنهما رسميّان يسيران راجيَين الرفاق الشباب التراجع قليلا. وعلى مسافة ثلاث خطوات كان يسير رجل كهل أصلع يشبه راعي الكنيسة حاملا مصباحا زجاجيا مضلعا ثقيلا على عمود وفي داخله شمعة. كان يراقب المصباح بحذر شديد، كي لا يميل، حيث كان الأمر خطيرا على الجانبين. ومن هنا تبدأ اللوحة التي أردت بشدة وصفها، إذا ما تمكنت: ألا يخشى الراعي أن يحيط بهم بناة المجتمع الحديث وينهالون عليهم ضربا؟.. الرعب ينتقل أيضا إلى المشاهدين.

الفتيات بالبناطيل يحملن الشموع، والشبان بالسجائر بين أسنانهم، وقبعات الفرو والمعاطف المطرية مفتوحة الأزرار (وجوه غبية، سخيفة، محبة للشجار، لا يميّزون «الخمسة من الطمسة»، مزهوين بأنفسهم، ومنهم سذّج، شديدو الوثوق بالآخرين، كثرة من تلك الوجوه يجب أن تتضمنها اللوحة) وقفوا متلاحمين يراقبون الفرجة الساحرة، التي لا يمكن مشاهدتها في أي مكان حتى مقابل نقود.

---

١ ـ رقص ثنائي سريع، ويطلق على الموسيقى المصاحبة لهذا الرقص أيضا.

خلف المصباح كان حاملا رايات يتحركان، لكن ليس بشكل منفصل، وبالمثل بدا وكأنهما خجلان من الخوف.

وخلفهما بخمسة صفوف كانت عشر نساء منشدات يسرن أزواجا حاملات شموعا غليظة مشتعلة. جميع هؤلاء يجب أن يكونوا ضمن اللوحة! النسوة كنّ كهلات بتعابير صارمة وزاهدة بالدنيا، مستعدات للموت لو أطلقت عليهن النمور.

عشر نساء يغنّين، ويسرن متراصات. كن فرحات وكأن الذين حولهن يصلون ويصلّبون ويستغفرون وينحنون لبعضهم بعضا احتراما. أولئك النسوة لا يتنشقن دخان السجائر، آذانهن سدّت دون سماع الشتائم، أقدامهن لا تحس بأن باحة الكنيسة تحولت إلى ساحة للرقص.

هكذا يبدأ مسير الفصح الحقيقي! شيء ما أصدر زعيقا، فتبعه زئير من كلا الجانبين، ثم هدأوا قليلا.

خلف النسوة كان سبعة من القساوسة والشمامسة يسيرون مرتدين حبريات مشرقة. لكنهم لم يسيروا برحابة، كانوا كما لو أنهم ضلّوا الطريق، متعثرين بعضهم ببعض، يكادون لا يلوّحون بالمبخرة، ولا يرفعون... ترى لم يحاول أحد أن يقنع بطْريق روسيا لخدمة هذا الحفل!..

إنهم يعبرون الطريق على عجل، متلاصقين، أما في البعيد فلا يوجد مسير. لم يعد أحد هناك! لا مؤمنين مصلين في مسير الفصح، لأنه لم يعد بإمكانهم العودة والدخول إلى الكنيسة مجددا. لا يوجد مصلين، لكن ها هم السكارى يقتحمون، يندفعون بلا هوادة! يندفعون نحو بوابات المستودعات القديمة المحطمة، متعجلين الاستيلاء على غنيمة، وسرقة كل شيء مستندين إلى الجدران الحجرية، يدورون مع دوّامة التيار- يتزاحمون، يتدافعون، الشباب والفتيات يشقون طريقهم- من أجل ماذا؟ إنهم أنفسهم لا يعرفون. هل ينتظرون رؤية الباباوات يؤدون حركاتهم الغريبة؟ أو هو التدافع المجرد- إنها وظيفتهم بكل بساطة، على أي حال؟

مسـير الفصح مـن دون مصلين! مسـير الفصـح بقبعات علـى الرؤوس، وسـجائر بين الأسـنان، وأجهزة ترانزيسـتور معلقة على الصدور- أول صفوف هذا الجمهور الذين يندسون في السـياج، يجب أن يدخلوا في اللوحة!

عندها ستكتمل!

عجوز تصلّب جانبا وتقول لأخرى:

- الأمور جيدة هذا العام، لا يوجد أي نوع من الزعرنة. الشـرطة كثيرة.
- آخ! هكذا إذا! كيف صار هذا العام الأفضل؟
- مـاذا سـينتج مـن ملايينا هـذه ومن الذين سـوف يولـدون؟ إلى ماذا ستقود جهود التنوير والنبوءات التي تشجع تلك الرؤوس السادرة؟ ما هو الخير الذي ننتظره من مستقبلنا؟
- في الحقيقة: سـيعودون يوما ما ويدوسون علينا جميعا!

وسوف يدوسون على أولئك الذين وجهوهم إلى هنا!

مؤلفات المترجم

١. قيم الحياة عند أبي حيان التوحيدي، أطروحة دكتوراه، ١٩٩٠، باللغة الروسية.

٢. الصحافة الشيوعية في الأردن وفلسطين حتى عام ١٩٨٢، أطروحة ماجستير، ١٩٨٢، باللغة الروسية.

٣. الاستراتيجية الثقافية والأمن الوطني، أطروحة ماجستير، ٢٠١٠.

٤. الموت والزيتون، مجموعة قصصية، وزارة الثقافة، ١٩٩٥.

٥. رقصة العاج ،مجموعة قصصية من الأدب الإفريقي المعاصر. ترجمة، دار الهلال للترجمة،٢٠٠٠.

٦. ورقة واحدة لا تكفي، مجموعة قصصية، المؤسسة العربية للدراسات ،٢٠٠٢.

٧. دم الكاتب، مجموعة قصصية، دار الكندي، ٢٠٠٣.

٨. شخصية مشرقة، مجموعة قصصية مترجمة عن الأدب الروسي الساخر. دار ورد ، عمان، ٢٠٠٦. مكتبة الأسرة الأردنية (ط٢)، وزارة الثقافة، ٢٠٠٨.

٩. تقاسيم المدن المتعبة، مجموعة قصصية، إربد مدينة الثقافة الأردنية،٢٠٠٧.

١٠. ذات مساء. مجموعة قصصية للكاتب أركادي أفيرتشنكو. ترجمة عن الروسية. أمانة عمان-٢٠٠٧، ط٢، مكتبة الأسرة الأردنية، ٢٠١١، ط٣، الآن ناشرون وموزعون، ٢٠١٦.

١١. يتساقط الثلج هادئا. مجموعة قصصية مترجمة عن الروسية، دار ورد، عمان،٢٠٠٩.

١٢. أناملي التي تحترق، مجموعة قصصية، الكرك مدينة الثقافة الأردنية، ٢٠٠٩.

١٣. الحصان العربي، مجموعة قصصية للأطفال، السلط مدينة الثقافة الأردنية، ٢٠٠٨.

١٤. الدولاب، مجموعة قصصية للأطفال، وزارة الثقافة، ٢٠٠٧.

١٥. المحققان الصغيران، مجموعة قصصية للفتيان، وزارة الثقافة، ٢٠١٢.

١٦. الشمس تشرق غربا، مجموعة قصصية، أمانة عمّان، ٢٠١٢.

١٧. قصة حب بسيطة، مجموعة قصصية مترجمة عن الأدب الروسي المعاصر، الآن ناشرون، ٢٠١٦.

١٨. سحر الشرق، مجموعة قصصية مترجمة عن الأدب الروسي الكلاسيكي، الآن ناشرون، ٢٠١٦.

١٩. كتاب المكان/ إعداد وتحرير وتقديم ومشاركة. وزارة الثقافة. عمان ٢٠٠٣.

٢٠. وزارة الثقافة، واقع وإنجازات، إعداد وتحرير، وزارة الثقافة، ١٩٩٤.

٢١. الإشراف على إعداد معجم الأدباء الأردنيين، وزارة الثقافة، ٢٠١٤.

E.mail: basem7290@hotmail.com

المحتويات

تقديم 7

فيودور دوستويفسكي 9

صبي عند شجرة المسيح 13

أنطون تشيخوف 21

كاتب مسرحي 25

جزمة 29

رغم أن اللقاء تحقق، إلا أن 35

شخصية مشرقة 43

شمبانيا 49

وجع أسنان 57

مسمار في الحائط 61

كائن ضعيف 65

الوسام 73

إعلان طبيب الأسنان غفالتير 79

مسائل رياضي مجنون 83

فلاديمير نابوكوف 89

الكلمة 93

الجميلة 99

الموسى 107

عفريت الغابة 113

ناديجدا لوخفيتسكايا 117

المرأة الجنية 121

خروف غير حي 127

زمن الكلاب 137

عندما يصفر السلطعون 143
يافدوخا 151
الفتاة السعيدة 159
سحر الشرق 163
نحو نظرية الحب 169
أُنجِزَ العمل 175
الكسندر كوبرين 187
مديرة السحب 191
صاحبة الشقة 199
الرسام 205
باتي المستقبل 211
أسطورة 217
القُبلة المنسية 221
الكسندر تشيخوف 225
زيارات 229
دموع التماسيح 233
أركادي أفيرتشينكو 235
الشاعر 239
صداقة 247
السر 255
ذات مساء 265
قالوش دوبلس المفقود 271
جريمتا السيد فوبياغين 275
عيد الفصح لدى عائلة كينديكوف 279

سالتيكوف – شيدرين	289
المارد الجبار	293
العين اليقظة	297
الليبرالي	305
السحلب	313
ليف كاسل	315
أقحوان الليل	319
فاسيلي شوكشين	325
شمس وشيخ وفتاة	329
وحيدان	339
أندريه بلاتونوف	351
عجول الأهالي	355
ألكسندر سولجنيتسين	361
احتفالية عيد الفصح	365
مؤلفات المترجم	371

إصدارات

دار نشر أنباء روسيا
Russia News
www.russiannewsar.com

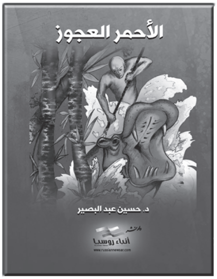

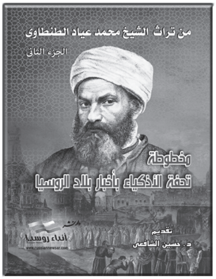

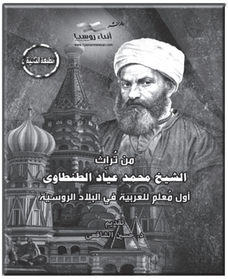

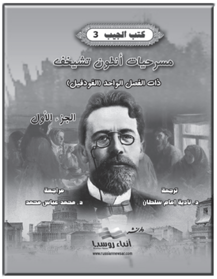

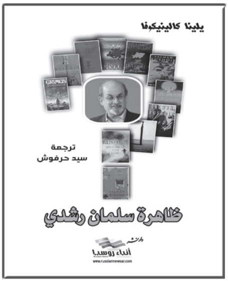

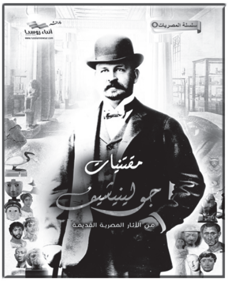

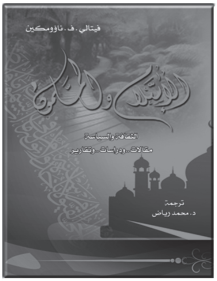

دار نشر
أنباء روسيا
Russia News
www.russiannewsar.com

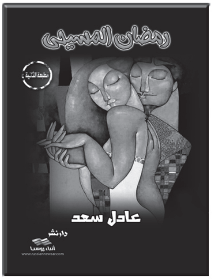

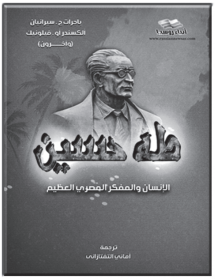

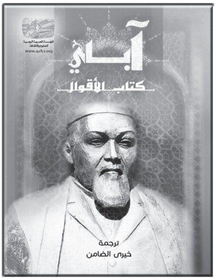

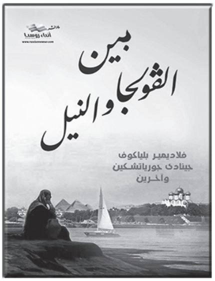

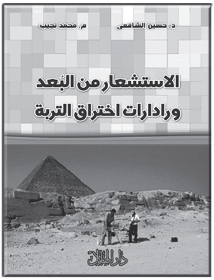

أنباء روسيا

Russia News

www.russiannewsar.com

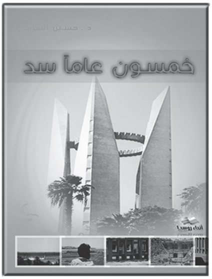

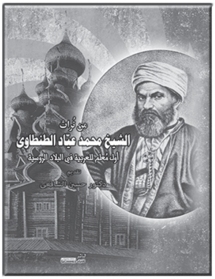

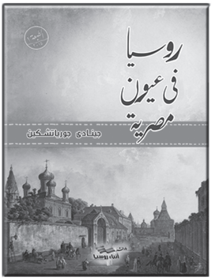

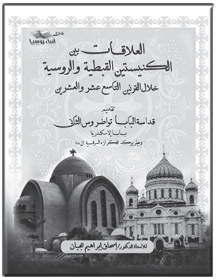

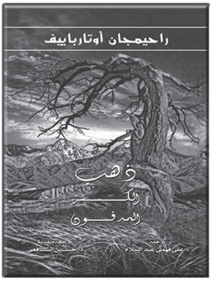

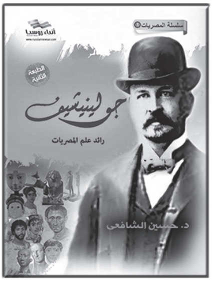

أنباء روسيا
Russia News
www.russiannewsar.com

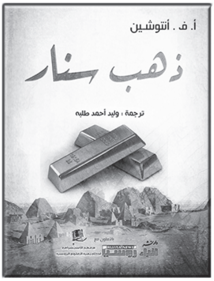

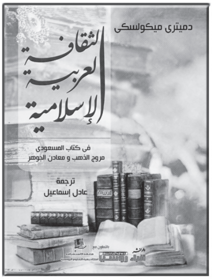

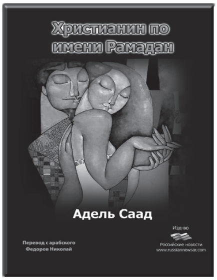

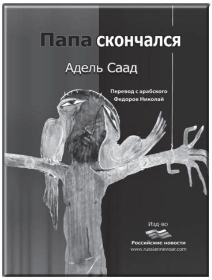

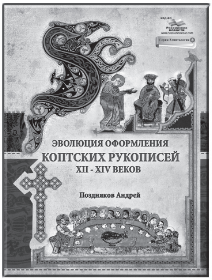

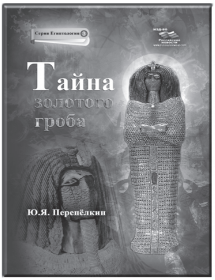

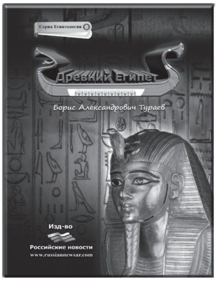

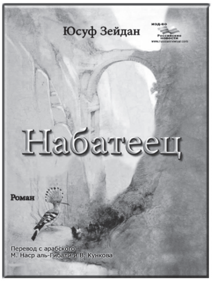

أنباء روسيا
Russia News
www.russiannewsar.com

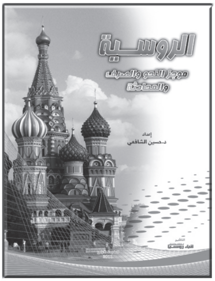

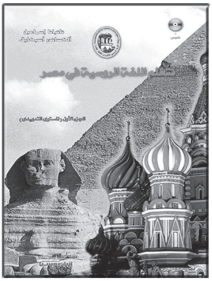

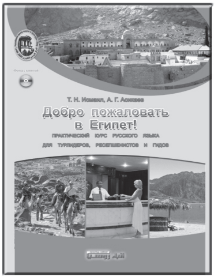

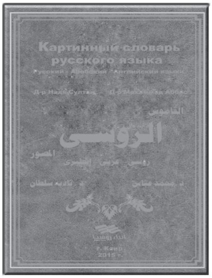

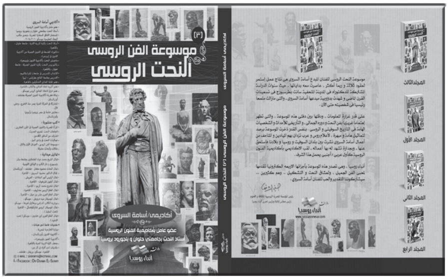

الإصدارات متوفرة لدى

مقار المؤسسة المصرية الروسية للثقافة والعلوم	114 شارع جوزيف تيتو برج رقم 2 ـ النزهة الجديدة ـ القاهرة	01006774027
	4 ميدان بن خلدون مدينة الصحفيين العجوزة ـ الجيزة ـ بجوار معهد القلب وأمام مستشفى أمبابة العام	33028975 – 33043052 01006157783
المركز الروسى للثقافة والعلوم	27 التحرير، الدقى، القاهرة	0233370577
الهيئة العامة المصرية للكتاب	كورنيش النيل – رملة بولاق – القاهرة	25775109 – 25775000 داخلى 200 ـ 01007772711 ـ 01223100145
وكالة الأهرام للتوزيع	مؤسسة الأهرام – شارع الجلاء – القاهرة	27705019 (+202) 25786622 (+202)
شركة المكتبة الأكاديمية	121 ش التحرير – الدقى الجيزة	01125043188 ـ 01002515013/14 ـ 33362341/2
مكتبة عمر بوك ستور	15 ش طلعت حرب – أعلى مطعم فلفة ـ القاهرة	0223960047 ـ 01003361217
مكتبة آفاق للنشر والتوزيع	4 ش محمد مظلوم– تقاطع هدى شعراوى وسط البلد – القاهرة	02 23926114 01003434967
دار الثقافة الجديدة	32 شارع صبرى أبو علم – باب اللوق – القاهرة	23922880
مؤسسة دار التحرير للطبع والنشر شركة التوزيع المتحدة الجمهورية	إدارة التسويق 21 شارع قصر النيل – 3 شارع طلعت حرب – 111 شارع رمسيس	01150575075 3901617 3923749
مؤسسة دار المعارف	27 شارع عبد الخالق ثروت وسط البلد – القاهرة	23936123
	9 شارع كامل صدقى بالفجالة	25905948
مكتبة مدبولى	6 ميدان طلعت حرب القاهرة	+20225756421
مكتبة دار حراء	33 شارع شريف القاهرة	23928963 01010524112
دار البلسم للنشر والتوزيع	128 شارع قصر النيل – الدقى – الجيزة – جمهورية مصر العربية	37627147 (+202)

دار نشر

www.russiannewsar.com

والمؤسسة المصرية الروسية
للثقافة والعلوم

www.a-rfcs.org

رئيس مجلس الإدارة ورئيس التحرير

د. حسين الشافعى